وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

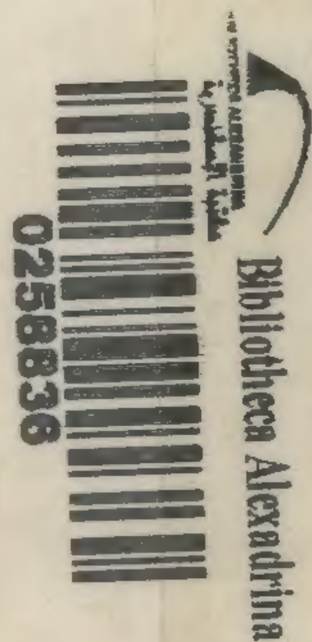
تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامرى بك ، محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف — المفتش بوزارة المعارف

الجزء الثانى



القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٣٤

وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامرى بك ، محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

المفتش بوزارة المعارف

الجـــزء الثـانى

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

فهرس الجزء الثانى من مهذب رحلة ابن بطوطة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صحفة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بنُ عبد الله بنِ محمد بنِ إبراهيم اللواتى الطَّنْجى ، المعروف بابن بطوطة ، رحمه الله تعالى :

ولما كان بتاريخ الغُرَّة من شهر الله المحرّم مُفْتَتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وصلنا إلى وادى السِند المعروف بِبَنْج آب . ومعنى ذلك المياه الخمسة . وهذا الوادى من أعظم أودية الدنيا . وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه ، كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل . وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند . ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكَّلون بذلك . وكتبوا بخبرنا إلى قطب المُلْك أمير مدينة مُلْتان . وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوكا للسلطان يسمى سَرْتيز ، وبين يديه تعرض عساكر السلطان. ومعنى اسمه: الحادّ الرأس، لأن سَرْ هو الرأس،وتِيز معناه الحادّ . وكان فى حين قدومنا بمدينة سِيوَستان من السند . وبينها وبين مُلْتان مسيرة عشرة أيام . وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دِهْلى مسيرة خمسين يوما . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه فى خمسة أيام بالبريد .

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صِنفان . فأما بريد الخيل فيسمونه الوُلاق، وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال . وأما بريد الرجّالة فيكون فى مسافة الميل . الواحد منه ثلاث رُتَب ويسمونها الداوة . والداوة هى ثلث ميل . والميل عندهم يسمى الكُرُوَة . وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة . ويكون بخارجها ثلاث قِباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدّوا أوساطهم . وعند كل واحد منهم مِقرعة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل نحاس . فإذا خرج البريد من المدينــة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمِقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، وخرج يشتد بمنتهى جُهده . فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له . فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جُهده ، وهو يحرك المقرعة حتى يصــل إلى الداوة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يُراد منه. وهذا البريد أسرع من بريد الخيل . وربمـا حملوا على هــذا البريد الفواكه المستَطْرَفة بالهند من فواكه خُرَاسان ، يجعلونها فى الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان . وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوى الجنايات : يجعلون الرجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رءوسهم ويسيرون به شدًّا . وكذلك يحملون المــاء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكِنْك الذى تحج الهنود إليه . وهو على مسيرة أربعين يوما منها . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده ، استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك ، وعرفوه أنه ورد رجل صفته كذا ولباسه كذا . وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لا يغادرون من ذلك كله شيئا . فإذا وصــل الوارد إلى مدينة

مُلْتَـان ،وهى قاعدة بلاد السند،أقام بها حتى يَنْفُذَ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة . وإنمـا يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته، إذ لا يعرف هنالك ما حَسَبُه ولا آباؤه . ومن عادة ملك الهند السلطان أبى المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة . ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء . ونَفَذ أمره بأن يسمى الغرباء فى بلاده بالأعزة . فصارلهم ذلك اسما عَلَما . ولا بد لكل قادم على هـذا الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين يديه . فيكافئـه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة . وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير . ولمـا تعوّد الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون كلَّ قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دَيْنا ، ويجهزونه بمـا يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ، ويخدُمونه بأموالهم وأنفسهم ، ويقفون بين يديه كالحَشَم . فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل، نقضى ديونهم ، ووفّاهم حقوقهم. فنفَقَتْ تجارتهم ، وكثرت أرباحهم ، وصار لهم ذلك عادة مستمرة .

ولمـا وصلت إلى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك. ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تَكْرِيت يعرف بمحمد الدُّرى بمدينة غَزْنَة نحو ثلاثين فرسا ، وجملا عليه حِمْل من النُّشَّاب ، فإنه ممـا يهدى إلى السلطان ، وذهب هـذا التاجر إلى خُراسان ثم عاد إلى الهند . وهنالك تقاضى منى ماله ، واستفاد بسببى فائدة عظيمة ، وعاد من كبار التجار . ولقيته بمدينة حَلَب بعد سنين كثيرة وقد سلبنى الكفار ما كان بيدى فلم ألق منه خيرا .

ذكر الكَرْكَدَّن

ولما أجزنا نهر السِنْد المعروف ببنج آب دخلنا غَيْضَــة قصب لسلوك الطريق لأنه فى وسطها ، فخرج علينا الكَرْكَدّن . وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجِرْم ، رأسه كبير متفاوت الضخامة . ولذلك يضرب به المثل فيقال : الكركدن رأس بلا بدن . وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع . وعرضه نحو شبر . ولما خرج علينا عارضــه بعض الفرسان فى طريقه ، فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصَرَعه ، وعاد إلى الغَيْضَة فلم نقدر عليه . وقد رأيت الكركدن مرة ثانية فى هذا الطريق ، بعد صلاة العصر ، وهو يرعى نبات الأرض . فلما قصدناه هرب منا . ورأيتــه مرة أخرى ونحن مع ملك الهند : دخلنا غَيْضَة قَصَب ، وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ، ودخلت الرجّالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحــلّة . وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جَنَانِى ، مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند ، لها أسواق مليحة ، وسكانها طائفة يقال لهم السامِرَة ، استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فَتْحها على أيام الحجاج بن يوسف ، على ما أثبت المؤرخون فى فتح السِــنْد . وأخبرنى الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ، ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ، ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهــاء الدين زكريا القُرَشى ، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرنى الشيخ الولى الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أنى سألقاهم فى رِحلتى ، فلقيتهم والحمدلله — أخبرنى أنّ جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القُرَشى ، وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق ، وأقام بها وتكاثرت ذريته .

وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع احد ، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ، ولا يصاهرهم أحد . وكان لهم فى هذا العهد أمير يسمى وُنَار ، وسنذكر خبره .

ثم سافرنا من مدينة جَنانى إلى أن وصلنا إلى مدينة سِيوَستان ، وهى مدينه كبيرة . وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غَيْلان. ولا يزرع على نهرها شىء ما عدا البِطّيخ . وطعامهم الذرة والجُلُبّان ومنه يصنعون الخبز . وهى كثيرة السمك والألبان الجاموسية . وأهلها يأكلون السَقَنْقُور ، وهى دُوَيّبة يسميها المغاربة حُنَيْشة الجنة ، إلا أنها لا ذنب لها . ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ، ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكُركم . وهو عندهم عِوَضُ الزعفران .

ودخلنا هذه المدينة فى احتدام القيظ . وحرها شديد . فكان أصحابى يقعدون عُرْيانين ، يجعل أحدهم فُوطة على وَسَطِه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء ، فما يمضى اليسير من الزمان حتى تَيْبَس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى ، وهكذا أبدا . ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشَّيْبانى ، وأرانى كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لجده الأعلى ، بخَطابة هذه المدينة . وهم يتوارثونها من ذلك العهد إلى الآن .

(ونص الكتاب) : هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان . وتاريخه سنة تسع وتسعين . وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : الحمد لله وحده ، على ما أخبرنى الخطيب المذكور . ولقيت بها أيضا الشيخ المُعَمَّر محمد البغدادىّ . وهو بالزاوية التى على قبر الشيخ

الصالح عثمان المرندى . وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ، وأنه حضر قتل المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس رضى الله عنهم ، لمَّا قتله الكافر هلاون(١) بن تنكيز التترى . وهذا الشيخ على كبر سنه قوى الجثة ، يتصرف على قدميه .

حكاية

كان يسكن بهذه المدينة الأمير وُنار السامرىّ الذى تقدم ذكره ، والأمير قيصر الرومى ، وهما فى خدمة السلطان ، ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس . وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن ، وهو من الحذاق فى الحساب والكتابة . فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء . فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند ، وولاه بتلك البلاد ، وأقطعه سيوستان وأعمالها ، وأعطاه المراتب وهى الأطبال والعلامات ، كما يعطى كبار الأمراء . فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهما تقديم الكافر عليهم ، فأجمعوا على قتله . فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ، ليطلع على أمورها . فخرج معهم . فلما جنّ الليل أقاموا ضجة بالمحلّة وزعموا أن السبع ضرب عليها . وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه وعادوا إلى المدينة ، فأخذوا ما كان بها من مال السلطان . وذلك اثنا عشر لكا ، واللك مائة الف دينار . وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند ، وصرف الدينار الهندى ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب . وقدموا على أنفسهم وُنار وسموه ملك فيروز . وقسم الأموال على العسكر ، ثم خاف على نفسه

---

(١) هو (هولاكو) .

لبعده عن قبيلته ، فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته . وقدّم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومى . واتصل خبرهم بعماد الملك سَرْتيز مملوك السلطان، وهو يومئذ أمير أمراء السند، وسكناه بِمُلْتان، فجمع العساكر وتجهز فى البر وفى نهر السند . و بين ملتان وسِيوِستان عشرة أيام . وخرج إليه قيصر فتلاقيا . وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة . وتحصنوا بالمدينة ، فحصرهم ونصب المجانيق عليهم ، واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم ، فأعطاهم الأمان . فلما نزلوا إليه غَدَرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم . فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ، و يوسِّط[1] بعضهم و يسلُخ آخرين منهم و يملأ جلودهم تبنا ، و يعلقها على السور . فكان مُعْظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ، تُرْعِب من ينظر إليها . و جمع رءوسهم فى وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك . ونزلت بتلك المدينة إثْر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة . وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ، ولم تطِب نفسى بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها . وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخُرَاسانى ، المعروف بفصيح الدين قاضى هَرَاة ، فى متقدم التاريخ ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لَاهَرِى وأعمالها من بلاد السند، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سَرْتيز بمن معه من العساكر ، فعزمت على السفر معه إلى مدينة لَاهَرِى. وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها فى نهر السند تحمل أثقاله ، فسافرت .

---

(١) وسطه توسيطا قطعه نصفين كما سبق .

ذكر السفر فى نهر السند وترتيب ذلك

وكان للفقيه علاء الملك فى جملة مراكبه مركب يعرف (بالأَهْوَرَة) وهى نوع من الطَّرِيدة عنـدنا . إلا أنها أوسع منها وأقصر . وعلى نصفها مَعْرَش من خشب يصعد له على دَرَج ، وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير . و يجلس أصحابه بين يديه . و يقف المماليك يَمْنة و يَسْرة . والرجال يَقْذِفون . وهم نحو أربعين . و يكون مع هذه الأَهْوَرَة أربعة من المراكب عن يمينها و يسارها : اثنـان منها فيهمـا مراتب الأمير ، وهى العلامات والطبول والأبواق والأنقار والصرنايات [1] ، والآخران فيهما أهل الطرب . فتضرب الطبول والأبواق نَوْبة ، ويغنى المغنون نَوْبة ، ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الغداء . فإذا كان وقت الغداء انضمت المراكب وَوُصِل بعضها ببعض ، ووضعت بينهما الإصقالات [2] وأتى أهل الطرب إلى أَهْوَرَة الأمير ، فيغنون إلى أن يفرغ من أكله . ثم يأكلون . و إذا انقضى الأكل عادوا إلى مراكبهم وشرعوا أيضا فى المسير على ترتيبهم إلى الليل . فإذا كان الليل ضُرِبت المحلّة على شاطئ النهر ، ونزل الأمير إلى مضاربه ، ومُدَّ السماط وحضر الطعام معظم العسكر . فإذا صلوا العشاء الأخيرة سَمَرَ السُّمَّار بالليل نَوْبات ، فإذا أتم أهل النَّوْبة منهم نوبتهم ، نادى مناد منهم بصوت عال : يا خَوَنْد مَلِك [3] ، قد مضى من الليـل كذا من الساعات ، ثم يَسْمُر أهل النوبة الأخرى . فإذا أتموها نادى مناديهم أيضا مُعْلِما بمـا مرّ من الساعات . فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول ، وصليت صلاة الصبح ، وأتى بالطعام .

---

(١) هذا اللفظ ليس بعربى كما تقدم الكلام فى الحواشى . وقد تقدم الكلام على الأنقار .

(٢) لعله يقصد خشبات تصل بين المراكب . وليس بعربى فيما نعلم .

(٣) سيد الملوك .

فإذا فرغ الأكل أخذوا فى المسير . فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب . إن أراد المسير فى البر ضربت الأطبال والأبواق وتقدم حجابه . ثم تلاهم المشاءون بين يديه . ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفُرسان ، عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلّدوها ، وعند ثلاثة صُرنايات ، فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ، ضربوا تلك الأطبال والصرنايات . ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه . ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نَوْبات . فإذا كان وقت الغداء نزلوا .

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام . ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهَرِى ، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير . وبها يصب نهر السند فى البحر ، فيلتقى بها بحران . ولها مَرْسى عظيم يأتى إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم . وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها . أخبرنى الأمير علاء الملك المذكور أن مَجْبَى هذه المدينة ستون لكا فى السنة . وقد ذكرنا مقدار اللك . وللأمير من ذلك نصف العشر . وعلى ذلك يعطى السلطان عُمَّالَه البلاد ، يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر .

ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة

وركبت يوما مع علاء الملك ، فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها ، يعرف (بتارنا) ، فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة ، على مثل صور الآدميين والبهائم . وقد تغير كثير منها وَدَثَرَتْ أشكاله . فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما . ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البُرّ والحِمَّص والفول والعدس . وهنالك آثار سور وجدران دور . ثم رأينا

رَسْم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة (١) حجارة منحوتة كأنها حجر واحد، عليها صورة آدمى إلا أن رأسه طويل، وفمه فى جانب من وجهه، ويداه خلف ظهره كالمكتوف. وهناك مياه شديدة النَّتْن، وكتابة على بعض الجدران بالهندى. وأخبرنى علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة، أكثر أهلها الفساد، فمُسِخوا حجارة، وأن ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التى ذكرناها، وهى إلى الآن تسمى دار الملك، وأن الكتابة التى فى بعض الحيطان هنا لك بالهندى هى تاريخ هلاك أهل تلك المدينة، وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها.

وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام، ثم أحسن فى الزاد. وانصرفت عنه إلى مدينة بَكَار. وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند. وفى وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر. عمرها كَشْلُوخان أيام ولايته على بلاد السند. وسيقع ذكره. ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفى. ولقيت بها قاضيها المسمى بأبى حنيفة. ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمدا الشيرازى. وهو من المُعَمَّرِين. ذكر لى أن سنه تزيد على مائه وعشرين عاما. ثم سافرت من مدينة بَكَار. فوصلت إلى مدينة أُوجَة، وهى مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة، وعمارة جيدة. وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكِيجى. أحد الشجعان الكرماء. وبهذه المدينة توفى بعد سقطة سقطها عن فرسه.

---

(١) الذى فى كتب اللغة التى بين أيدينا (دكان) لا دكانة.

مَكْرُمة لهذا الملك

ونشأت بيني و بين هــذا الملك الشريف جلال الدين مودّة ، وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة ، واجتمعنا بحضرة دِهْلي . فلما سافر السلطان إلى دولة أباد كما سنذكره . وأمرني بالإقامة بالحضرة ، قال لي جلال الدين : إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة ، والسلطان تطول غيبته ، فخذ قريتي واستغلها حتى أعود . ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار . جزاه الله أحسن جزائه . ولقيت بمدينة أُوجَة الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حَيْدرا العَلَوِى ، وألبسني الخــرْقة . وهو من كبار الصالحين . ولم يزل الثوب الذى ألبسنيه معي إلى أن سلبني كفار الهنود في البحر . ثم سافرت من أوجة إلى مدينة مُلْتان ، وهي قاعدة بلاد الســند ومسكن أمير أمرائه . وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال منها الوادى المعروف بِخُسْرُو آباد ، وهو من الأودية الكبار ، لا يجاز إلا في المركب . و به يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث ، وتفتش رحالهم . وكانت عادتهم في حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل مايجلبه التجار ، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مَغْرَما . ثم بعد وصولنا الهند بسنتين رفع السلطان تلك المغــارِم . وأمر ألا يؤخذ من النــاس إلا الزكاة والعشر لمــا بايع الخليفة أبا العباس العباسى . ولمــا أخذنا في إجازة هذا الوادى وفتشت الرحال ، عظم عليّ تفتيش رحلي ، لأنه لم يكن فيه طائل ، وكان يظهر في أعين الناس كبيرا ، فكنت أكره أن يُطَّلع عليــه . ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب مُلْتان ، فأمر ألا يُعْتَرض لي ببحث ولا تفتيش . فكان كذلك . فحمدت الله على ماهيأه لي من لطائفه .

وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادى . وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد، واسمه دِهْقان ، وهو سَمَرْقَنْدِى الأصـل . وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعِمالتها ، ومايحدث بها ، ومن يصل إليها . فتعرفت به ، ودخلت فى صحبته إلى أمير ملتان .

ذكر أمير مُلْتَان وترتيب حاله

وأمير مُلْتَان هو قطب المُلْك ، من كبار الأمراء وفضلائهم . ولمـا دخلت عليه قام لى وصافحنى وأجلسنى إلى جانبه . وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز . وهو من أعظم ما يهدى إليهم ، لأنه ليس ببلادهم وإنما يجلب من خُراسان . وكان جلوس هـذا الأمير على دكان كبير عليه البُسُط ، وعلى مقربة منه القاضى ، ويسمى سالار ، والخطيب ولا أذكر اسمه . وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهل السلاح وقوفا على رأسه ، والعساكر تعرض بين يديه . وهنالك قِسِىّ كثيرة . فإذا أتى من يريد أن يُثْبَت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسىّ ينزِع فيها . وهى متفاوتة فى الشدة . فعلى قدر نَزْعه يكون مرتبه . ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيُجْرِى فرسه ويرميها برمحه . وهنالك أيضا خاتم معلق فى حائط صغير ، فيجرِى فرسه حتى يحاذيه . فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم . ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرِى فرسه ويرميها . وعلى قدر ما يظهر من الإنسان فى ذلك من الإصابة يكون مرتبه . ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرنا ، أمر بإنزالنا فى دار خارج المدينة هى لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره . وعادتهم ألا يضيفوا أحدا حتى يأتى أمر السلطان بتضييفه .

ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند

فمنهم خُداوَنْدزاده قِوام الدين قاضى ترْمِذ . قدِم بأهـله وولده . ثم ورد عليه بها إخوته عماد الدين وضياء الدين و برهان الدين . ومنهـم مبارك شاه أحد كبار سَمَرْقَنْـد . ومنهم أُرُنْ بُغَا أحد كبار بُخَارى . ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده . ومنهم بدر الدين الفَصّال . وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدّامه وأتباعه. ولمـا مضى من وصولنا إلى مُلْتان شهران، وصل أحد حجاب السلطان، وهو شمس الدين البُوشَنْجى[١]، والملك محمد الهَرَوى الكُتْوال[٢]. بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده . وقدم معهما ثلاثة من الفِتيان بعثتهم المخدومة جِهَان ، وهى أم السلطان ، لاستقبال زوجة خداوند زاده . وأتوا بالخلع لها ولأولادهما ، ولتجهيز من قدِم من الوفود . وأتوا جميعا إلىّ وسألونى لمـاذا قدمت؟ فأخبرتهم أنى قدِمت للإقامة فى خدمة خَوَنْد[٣] عالَمَ، وهو السلطان . وبهذا يدعى فى بلاده . وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتى من خُراسان يدخل بلاد الهند إلا إن كان برسم الإقامة . فلما أعلمتهـم أنى قدِمت للإقامة ، استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقدا علىّ وعلى من أراد الإقامة من أصحـابى . وأبى بعضهم ذلك .

وتجهزنا للسفر إلى الحضرة ، وبين مُلْتان وبينها مسيرة أربعين يوما ، فى عمارة متصلة . وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بُعِث معه ما يُحتاج إليـه فى ضيافة قوام الدين . واستصحبوا من مُلْتان نحو عشرين طباخا . وكان الحـاجب

(١) نسبة إلى بُوشَنج ، بليدة بينها و بين هَرَاة عشرة فراسخ فى واد كثير الشجر والفواكه اهـ ياقوت .

(٢) رئيس الشرطة ، بلسانهم .

(٣) سيد العالم بلسانهم .

يتقدم ليــلا إلى كل منزل فيجهز الطعام وسوّاه ، فمــا يصل خُذَاوَنْدزاده حتى يكون الطعام متيسرا . وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حِدَة بمضاربه وأصحابه، وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوندازه. ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة . وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز ، وخبزهم الرُّقاق وهو شبه الجراديق[1]، ويقطعون اللحم المشوى قطعا كبارا بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا. ويجعلون أمام كل رجل قطعة. ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن، تشبه الخبز (المشرّك) ببلادنا، ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء مصنوع من الدقيق والسكر والسمن . ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزَّنجَبيل الأخضر فى صِحاف صينية . ثم يجعلون شيئا يسمونه سَمُوسك ، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفُسْتُق والبصــل والأبازير ، موضوع فى جوف رُقَاقة مقلوّة بالسمن ، يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعا ، ثم يجعلون الأرز المطبوخ بالسمن وعليــه الدجاج ، ثم يجعلون لُقَيْمات القاضى ، ثم يجعلون القاهرية . ويقف الحاجب على السماط قبل الأكل ، ويَخْدُم إلى الجهة التى فيها السلطان ، ويَخْدُم جميع من حضر لخدمته . والخدمة عندهم حطّ الرأس نحو الركوع . فإذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل . ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بمــاء النبات ، وهو الجُـلَّاب[2] محلولا فى المــاء ، ويسمون ذلك الشربة، ويشربونه قبل الطعام . ثم يقول الحاجب : باسم الله. فعند ذلك يشرعون فى الأكل . فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفُقَّاع[3] ، فإذا

---

(١) فى القاموس : الجردقة بالفتح الرغيف معرّب .

(٢) ماء الورد كما فى القاموس .

(٣) شراب يعلوه زبد كما فى القاموس .

شربوه أتوا بالتّانبُول[١] والفَوْفَل[٢] . وقد تقدم ذكرهما ، فإذا أخذوهما قال الحاجب : باسم الله ، فيقومون و يخدُمون مثل خدمتهم أولا و ينصرفون.

وسافرنا من مدينة مُلْتَان ، وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه ، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند. وكان أول بلد دخلناه مدينة (أَبُوهَر) وهى أول تلك البلاد الهندية ، صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار . وليس هنالك من أشجار بلادنا شئ ما عدا النَّبْق. لكنه عندهم عظيم الجِرم ، تكون الحبة منه بمقدار حبة العَفَص ، شديد الحلاوة . ولهم أشجار كثيرة ، ليس منها شئ ببلادنا ولا بسواها .

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العَنْبَة[٣] وهى شجرة تشبه أشجار النَّارَنْج ، إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا ، وظلها أكثر الظلال ، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وُعك . وثمرها على قدر الإجّاص الكبير . فإذا كان أخضر قبل تمام نُضْجه أخذوا ما سقط منه ، وجعلوا عليه الملح وصبروه كما يصبر اللَّيْم[٤] والليمون ببلادنا . وكذلك يصبرون الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل . و يأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بإثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات . فإذا نَضِجت العنبة فى أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح . فبعضهم يقطعها بالسكين ، و بعضهم يمصها مصا . وهى حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ،

(١) هو نبات طعم ورقه كالقرنفل كما فى القاموس . وقد سبق شرحه .

(٢) نبات هندى .

(٣) هى شجرة (المنجو) كما يؤخذ من الترجمة الفرنسية . ولم نجد هذه الكلمة فى كتب اللغة . وفى القاموس : والأنبج كأحمد وتكسر باؤه ثمرة شجرة هندية ، معرب أنْب اهـ .

(٤) يظهر أنه نوع من الليمون . وقال فى القاموس : إن نون الليمون قد تسقط .

ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار، كما تزرع نوى النارنج وغيرها. ومنها (الشَّكِي) و(البَرْكِي)، وهى أشجار أوراقها كأوراق الجوز. وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منه بالأرض فهو البَرْكِي. وحلاوته أشد ومطعمه أطيب، وما كان فوق ذلك فهو الشكى. وثمره يشبه القرع الكبار، وجلوده تشبه جلود البقر. فإذا اصفرّ فى أوان الخريف قطعوه وشقوه. فيكون فى داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار، بين كل حبة وحبة صِفاق[1] أصفر اللون. ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير. وإذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول، إذ ليس يوجد هنالك. ويدخرون هذه النوى فى التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى. وهذا الشَّكِي والبَرْكِي خير فاكهة ببلاد الهند. ومنها (التَّنْدُو) وهو ثمر شجر الآبَنُوس. وحباته فى قدر حبات المِشْمِش ولونها. وهو شديد الحلاوة. ومنها (الجُمُون) وأشجاره عادية[2]. ويشبه ثمرة الزيتون. وهو أسود اللون وله نواة واحدة كالزيتون. ومنها النَّارَنْج الحلو[3] وهو عندهم كثير. وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود. ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض، وثمره على قدر اللَّيم. وهو طيب جدا، وكنت يعجبنى أكله. ومنها (المَهْوَا)، وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز، إلا أن فيها حمرة وصفرة، وثمره مثل الإجّاص الصغير، شديد الحلاوة. وفى أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوّفة. وطعمها كطعم العنب، إلا أن الإكثار من أكلها يحدث فى الرأس صُداعا. ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست فى الشمس كان مطعمها كطعم التين. وكنت آكلها عوضا عن التين، إذ لا يوجد ببلاد الهند. وهم يسمون هذه الحبة (الأنكور)، وتفسيره

---

(١) يراد به ما يشبه الجلدة.

(٢) يراد به ما يطول عمرها جدا، نسبة إلى عاد. (٣) البرتقال.

بلسانهم العنب . والعنب بأرض الهند عزيز جدا . ولا يكون بها إلا فى مواضع بحضرة دِهْلى ، وببلاد أخَر . ويثمر مرتين فى السنة . ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به . ومن فواكههم فاكهة يسمونها (كَسِيرا) ، يحفِرون عليها الأرض وهى شديدة الحلاوة تشبه القَسْطَل[1] . وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان . ويثمر مرتين فى السنة ، ورأيته ببلاد جزائر (ذِيبة المَهَل[2]) لا ينقطع له ثمر . وهم يسمونه (أَنَار) . وأظن ذلك هو الأصل فى تسمية الجُلَّنار ، فإن جُل بالفارسية الزهر ، ونار الرمان.

ذكر الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزدرعون مرتين فى السنة . فإذا نزل المطر عندهم فى أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفى ، وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته . ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم (الكُذْرُو) ، وهو نوع من الدُّخن . وهذا الكذرو أكثر الحبوب عندهم . ومنها (القال) . ومنها (الشاماخ) ، وهو أصغر حبا من القال . وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة ، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين . يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة ، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره ، وتكون بيمناه مِقرعة يضرب بها الزرع . فيسقط فى القفة ، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة . وحب هذا

(١) هو ما يسمى فى مصر (أبا فروة) .

(٢) جزائر مالديف .

الشاماخ صغير جدا ، وإذا جمع جعل فى الشمس . ثم يدق فى مهاريس الخشب . فيطير قشره ويبقى لُبه أبيض. ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس . وهى أطيب من خبزه . وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبنى. ومنها الماش[١] وهو نوع من الجُلُبَّان. ومنها (المُنْج)، وهو نوع من الماش، إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة . ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه (كشرى)، وعليه يفطرون فى كل يوم. وهو عندهم كالحَرِيرة ببلاد المغرب . ومنها اللُّوبِيَاء وهى نوع من الفول. ومنها (المُوت) وهو مثل الكذرو ، إلا أن حبوبه أصغر، وهو من علف الدواب عندهم . وتسمن الدواب بأكله . والشعير عندهم لا قوة له ، وإنما علف الدواب من هذا (الموت) أو الحِمَّص ، يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب . ويطعمونها عوضا عن القَصِيل[٢] أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام ، فى كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة . ولا تركب فى تلك الأيام. وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش ، كما ذكرنا ، شهرا أو نحوه .

وهذه الحبوب التى ذكرناها هى الخريفية . وإذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية ، وهى القمح والشعير والحِمَّص والعَدَس . وتكون زراعتها فى الأرض التى كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها . وبلادهم كريمة طيبة التربة . وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات فى السنة. وهو من أكثر الحبوب عندهم. ويزدرعون السِمْسِم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التى تقدم ذكرها .

---

(١) فى القاموس : الماش حب معروف .

(٢) القصيل : ما قطع من الزرع أخضر .

(ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فأقول : سافرنا من مدينة أَبُوهَر فى صحراء مسيرة يوم ، فى أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار[1] الهنود . وربما قطعوا الطريق . وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار ، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين ، يسكنون القرى ، ويكون عليهم حاكم من المسلمين ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق ، وهى أول غزوة شهدتها ببلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أَبُوهَر ، خرج الناس منها أول النهار ، وأقمت بها إلى نصف النهار فى لُمَّة[2] من أصحابى . ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا ، منهم عرب ومنهم أعاجم ، فخرج علينا فى تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان . وكان أصحابى ذوى نَجْدة وعُتِىّ ، فقاتلناهم أشد القتال ، فقتلنا أحد الفارسين منهم ، وغنمنا فرسه ، وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلا . وأصابتنى نُشَّابة ، وأصابت فرسى نُشَّابة ثانية ، ومنَّ الله بالسلامة منها ؛ لأن نشابهم لاقوة لها . وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر ، وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا . وأوصلنا تلك الرءوس إلى حصن أبى بَكْهَر فعلقناها على سوره . وكان وصولنا فى نصف الليل إليه وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة أَجُودَهَن ، مدينة صغيرة ، هى للشيخ الصالح فريد الدين البَذَاوُنى ، الذى أخبرنى الشيخ الصالح الولى برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أنى سألقاه ، فلقيته والحمد لله . وهو شيخ

---

(١) يراد بذلك أنهم عبدة أوثان .

(٢) قال فى اللسان : لُمَّة الرجل أصحابه إذا أرادوا سفرا فأصاب من يصحبه فقد أصاب لُمَّة . والواحد لُمَّة والجمع لُمَّة اهـ .

ملك الهنـد ، وأنعم عليه بهذه المدينة ، وهـذا الشيخ مبتلى بالوَسْواس والعياذ بالله ، فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه . وإذا لَصِقَ ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه . دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين، فعجب وقال : أنا دون ذلك . ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين ، وهو أكبرهما ، ولما مات أبوه تولى الشُيُوخة بعده ، وعلم الدين . وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البَذَاوُنى ، منسوبا الى مدينة بَذَاوُن[1] . ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة ، قال لى علم الدين : لا بد لك من رؤية والدى فرأيته ، وهو فى أعلى سطح له ، وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة ، وهى مائلة إلى جانب . ودعالى و بعث إلى بسكر ونبات .

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يُهْرَعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا. فسألتهم ما الخبر؟ فأخبرونى أن كافرا من الهنود مات وأججت النار لإحراقه، وامرأته تُحْرِق نفسها معه. ولما احترقا جاء أصحابى وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . و بعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر . والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان ، استأذنوا السلطان فى إحراقها ، فيأذن لهم فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم من سامرة السند . وعلى مقربة منها الكفار العصاة . فقطعوا الطريق يوما ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار . ووقع بينهم قتال شـديد مات فيه من رعية الكفار سبعة . وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات . فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعـد زوجها

(١) بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون . ابن بطوطة .

عندهم أمر مندوب إليه غير واجب . لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونُسِبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خَشِن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتَهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها . ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتى ذكرناهن على إحراق أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن يودِّعن الدنيا ، وتأتى إليهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع أُتِيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يُسراها مرآة تنظر فيها وجهها . والبراهمة يَحُفُّون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار . وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى . وهى تقول نعم وتضحك لهم .

وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال . وبين أشجاره أربع قِباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صِهرِيج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس . ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصِهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ، وأُتِيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مَخِيط ، فَرُبط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت الجُلْجُلان(١) . فزاد فى اشتعالها . وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حُزَم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة ، وقد حُجِبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر إليها . فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك

(١) ثمر الكزبرة ، وحب السمسم » قاموس .

الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعُنْف ، وقالت لهم وهى تضحك : أبا لنــار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة . ثم جمعت يديهــا على رأسها خِدْمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنقار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها . وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك . وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج. ولمــا رأيت ذلك كدت أسـقط عن فرسى ، لولا أصحابى الذين تداركونى بالمــاء ، فغسلوا وجهى وانصرفت . وكذلك يفعل أهل الهند أيضا فى الغرق، يُغْرِق كثير منهم أنفسهم فى نهــر الكِنْك ، وهو الذى إليه يحجون ، وفيــه يُرْمى برماد هؤلاء المحرقين . وهم يقولون إنه من الجنة ، و إذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لاتظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شيء من أمور الدنيــا أو لقلة مال . إنما قصدى التقرب الى كُسَاى . وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم . ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور .

(ولنعد) إلى كلامنا الأول فنقول : سافرنا من مدينة (أُجودَهَن) فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها إلى مدينة سَرْسَتِي، مدينة كبيرة كثيرة الأرز. وأرزها طيب . ومنها يحمل إلى حضرة دهلى . ولها مجبى كثير جدا . أخبرنى الحاجب شمس الدين البُوشَنْجِى بمقداره وأُنسيته . ثم سافرنا منهــا إلى مدينة حَانِسِى، وهى من أحسن المدن وأكثرها عمارة . ولها سور عظيم ، ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تُورَة . وله عندهم حكايات وأخبار . ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضى قضاة الهند، وأخوه قُطْلُوخان معلم السلطان، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع إلى الله وجاور بمكة حتى مات . ثم سافرنا من حَانِسِى فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد.وهى على عشرة أميال من حضرة دهلى ،وأقمنا بها ثلاثة أيام. وحانْسِى و (مسعود أباد)

هما الملك المعظم هُوشَنْج ابن الملك كمال كُرْك . وكرك معناه الذئب ، وسيأتى ذكره.وكان سلطان الهند الذى قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قَنُوج. وبينها وبين حضرة دهلى عشرة أيام.وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جِهان . وجِهان اسم الدنيا . وكان بها أيضا وزيره خواجه جِهان، المسمى بأحمد بن إياس ، الرومى الأصل . فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا . وعين للقاء كل واحد منا من كان من صِنْفه ، فكان من الذين عينهم للقائى الشيخ البِسْطَامى والشريف المـازَنْدَرانى ، وهو حاجب الغرباء ، والفقيه علاء الدين المُلْتَانى المعروف بِقُنَّرة . وكتب إلى السلطان بخبرنا . وبعث الكتاب مع الدَّواة ، وهى بريد الرجالة على ما ذكرناه . فوصل إلى السلطان ، وأتاه الجواب فى تلك الأيام الثلاثة التى أقمناها بمسعود أباد .

وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء. وهم يسمون الأمراء ملوكا . فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها : الأمير ، يقولون هم : الملك . وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزَّنْجانى. وهو كبير المنزلة عند السلطان . ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بَالَم . وهى للسيد الشريف ناصر الدين مُطَهَّر الأَوْهَرِى ، أحد ندماء السلطان، وممن له عنده الحُظْوة التامة.وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دِهْلِى قاعدة بلاد الهند . وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة . وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير . وهى أعظم مدن الهند ، بل مدن الإسلام كلها بالمشرق .

ذكر وصفها

ومدينة دِهلى كبيرة الساحة ، كثيرة العمارة . وهى الآن أربع مدن متجاورات متصلات . إحداها المسماة بهذا الاسم دهلى ، وهى القديمة من بناء الكفار . وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة . والثانية تسمى سِيرِى وتسمى أيضا دار الخلافة ، وهى التى أعطاها السلطان غياثَ الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قَدِم عليه . وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين ، وسنذكرهما . والثالثة تسمى تُغْلُق أباد ، باسم بانيها السلطان تُغْلُق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه . وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له : يا خَوَنْد عَالَم ، كان ينبغى أن تبنى هنا مدينة . فقال له السلطان متهكما : إذا كنت سلطانا فابنها. فكان من قَدَر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه. والرابعة تسمى (جِهَان پَنَاه)، وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن، الذى قدمنا عليه . وهو الذى بناها . وكان أراد أن يضم هـذه المدن الأربع تحت سور واحد ، فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه ، لعظم ما يلزم فى بنائه .

ذكر سور دِهْلى وأبوابها

والسور المحيط بمدينة دهلى ليس له نظير . وعرض حائطه إحدى عشرة ذراعا . وفيه بيوت يسكنها السُّمَّار[١] وحفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ومخازن للعُـدَد ومخازن للمجانيق والرَّعَّادات[٢] . ويبقى الزرع بها مدة طائلة

(١) الذين يسهرون على حفظ السور ، تسمية اصطلاحية .

(٢) يقصد بها آلات رمى النار .

لا يتغير ولا تطرقه آفة . ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود، ولكن طعمه طيب. ورأيت أيضا الكُذُرُو[1] يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بلَبَن منذ تسعين سـنة . ويمشى فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء . وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر. وأبراجه كثيرة متقاربة . ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا .

ذكر جامع دِهلى

وجامع دهلى كبير الساحة ، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ، ملصقة بالرَّصاص أتقن إلصاق ، ولا خشبة به أصلا . وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة . ومنبره أيضا من الحجر. وله أربعة من الصحون . وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لايدرى من أى المعادن هو . ذكر لى بعض حكمائهم أنه يسمى (هَفْت جُوش) ومعنى ذلك سبعة معادن ، وأنه مؤلف منها . وقد جُلِيَ من هذا العمود مقدار السبابة. ولذلك المجلو منه بريق عظيم. ولا يؤثر فيه الحديد . وطوله ثلاثون ذراعا . وأدرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منهـا ثمانى أذرع . وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس، مطروحان بالأرض قد ألصقا بالحجـارة . ويطؤهما كل داخل المسجد أو خارج منه . وكان موضع هذا المسجد بُدْخَانة ، وهو بيت الأصنام . فلمـا افتتحت جعل مسجدا . وفى الصحن الشمالى من المسجد الصَّوْمَعة التى لا نظير لها فى بلاد الإسلام . وهى مبنية بالحجارة الحمر ، خلافا لحجارة سائر المسجد فإنها بيض . وحجارة

(١) سبق تعريفه فى ص ١٧

الصومعة منقوشة . وهى سامية الارتفاع . وبحلها (١) من الرخام الأبيض الناصع . وتفافيحها (٢) من الذهب الخالص . وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . حدثنى من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها . وهى من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن . وأراد السلطان قطب الدين أن يبنى بالصحن الغربى صومعة أعظم منها . فبنى مقدار الثلث منها واخْتُرِم(٣) دون تمامها . وأراد السلطان محمد إتمامها ، ثم ترك ذلك تشاؤما . وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها ، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة . وهـذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا أنها بالصحن الشمالى . وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المـدينة ، وعاينت الأسـوار على ارتفاعها وسموها منحطة . وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . و يظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك ، لعظم جِرْمها وسعتها . وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى أيضا مسجدا جامعا (بِسيرى) المسماة دار الخلافة ، فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب . و بناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر . ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد . وأراد السلطان محمد إتمامه و بعث عُرَفاء البِناء ليقـدروا النفقة فيه ، فزعموا أنه ينفق فى إتمامه خمسة وثلاثون لكا(٤) ، فترك ذلك استكثارا له ، وأخبرنى بعض خواصه أنه لم يتركه استكثارا ، لكنه تشاءم به ، لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه .

---

(١) المراد رأسها .

(٢) جمع تفاحة أى ما يشبه التفاح فى الاستدارة . ولم نر هذا الجمع فى مراجعنا .

(٣) مات .

(٤) تقدم الكلام عليه فى ص ٦

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لَلْمِش. ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلّاها . وماؤه يجتمع من ماء المطر . وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله ، والجهة الغربية منه من ناحية المصلّى مبنية با لحجارة ، مصنوعة أمثال الدكاكين ، بعضها أعلى من بعض . وتحت كل دكان دَرَج ينزل عليها إلى المــاء ، وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للتنزهين والمتفرجين . وفى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجــارة المنقوشة ، مجعولة طبقتين ، فإذا كثر المــاء فى الحوض لم يكن سبيل إليها إلا فى القوارب ، فإذا قل المــاء دخل إليها الناس . وفى داخلها مسجد . وفى أكثر الأوقات يقيم بهــا الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه . وإذا جف الماء فى جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقِثّاء والبطيخ الأخضر والأصفر ، وهو شديد الحلاوة صغير الجِرْم . وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض الخاصّ[1] ، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين ، وعلى جوانبه نحو أربعين قبة . ويسكن حوله أهل الطرب . وموضعهم يسمى طرب آباد . ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة . وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات . ويؤم بهن الأئمة. وعددهن كثير ، وكذلك الرجال المغنون . ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب فى عُرْس الأمير سيف الدين غَدَا بن مُهَنّاً ، ولكل واحد منهم مصلى تحت ركبته ، فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى .

(١) فى الترجمة الفرنسية أن المقصود (بحوض الخاص) الحوض الملكى .

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بَخْتيار الكَعْكي ، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم . وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكى ، أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القـلة ، أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به إلى أزواجهن ، يعطى من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة ، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكى رحمـه الله . ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكُرْلَانِى. ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكَرْمانى ، نسبة إلى كَرْمان . وهو ظاهر البركة ساطع النور . و بذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير ، نفع الله تعالى بهم .

ذكر بعض علمائها وصلحائها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكُبَّا ، وهو من كبار الصالحين . والناس يزعمون أنه ينفق من الكون[١] ، لأنه لا مال له ظاهرا . وهو يطعم الوارد والصادر ، و يعطى الذهب والدراهم والأثواب . وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها . رأيته مرات كثيرة وحصلت لى بركته . ومنهم الشيخ الصالح العالم عَلاء الدين النِّيلى ، كأنه منسوب إلى نيل مصر ، والله أعلم . كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البَذَاوُنى . وهو يعظ الناس فى كل يوم جمعة ، فيتوب كثير منهم بين يديه ، و يحلقون رءوسهم ، و يتواجدون[٢] و يغشى على بعضهم .

---

(١) يريدون بذلك أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب .

(٢) يظهرون الوجد . والمراد محبة الله تعالى .

حكاية

شاهدته فى بعض الأيام وهو يعظ ، فقرأ القارئ بين يديه : (يأيها النــاس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شئ عظيم ، يوم ترونها تَذْهَلُ كل مرضعة عمــا ارضعت وتضع كل ذاتِ حَمْل حملها ، وترى الناس سُكَارى وماهم بِسكارى ، ولكنّ عذاب الله شديد) ، ثم كررها الفقيه علاء الدين ، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ، ووقع ميتا . وكنت فيمن صلّى عليه وحضر جنازته . ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكُهْرَانى ، وكان يصوم الدهر ويقوم الليل . وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها . ولباسه عباءة . ويزوره السلطان وأهل الدولة . وربما احتجب عنهم . فرغب السلطان منه أن يُقْطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين ، فأبى ذلك . وزاره يوما وأتى إليــه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها . وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث ، وأنه قيل له فى ذلك ، فقال : لا أفطر حتى أُضْطَرّ فتحِل لى الميتة . ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع ، فريد دهره ووحيــد عصره ، كمال الدين عبد الله الغارى ، نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دِهْلى ، بِمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البَذَاوُنى . زرته بهذا الغار ثلاث مرات .

كرامة له

كان لى غلام فأَبَق منى . وألفيته بيد رجل من الترك ، فذهبت إلى انتزاعه من يده ، فقال لى الشيخ : إن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه . وكان التركى راغبا فى المصالحة ، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له . فلمـا

كان بعد ستة أشهر قَتَلَ سيده، وأُتِيَ به إلى السلطان ، فأمر بتسليمه لأولاد سيده فقتلوه . ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمته وتركت الدنيا ، ووهبت جميع ما كان عندى للفقراء والمساكين ، وأقمت عنده مدة ، فكنت أراه يواصل[1] عشرة أيام وعشرين يوما ، ويقوم أكثر الليل ، ولم أزل معه حتى بعث[2] عنى السلطان ، ونَشِبْتُ فى الدنيا ثانية . والله تعالى يختم بالخير . وسأذكر ذلك فيما بعد ، إن شاء الله تعالى ، وكيفية رجوعى إلى الدنيا .

ذكر فتح دِهْلى ومن تداولها من الملوك

حدثنى الفقيه الإمام العلامة قاضى القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد ابن البرهان الغَزْنَوى، الملقب بصدر الجهان : أنّ مدينة دهلى افتتِحت من أيدى الكفار سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الأعظم بها . وأخبرنى أيضا أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أَيْبَك، وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سَام الغَورى ملك غَزْنَة وخراسان، المتغلب على ملك إبراهيم ابن السلطان الغازى محمود بن سُبُكْتَكِين الذى ابتدأ فتح الهند . وكان السلطان شهاب الدين بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم ، ففتح الله عليه مدينة لَاهُور ، وسكنها وعظم شأنه . وسُعِي به إلى السلطان ، وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند ، وأنه قد عصى وخالف . وبلغ هذا الخبر قطب الدين فبادر بنفسه وقدِم على غَزْنَة ليلا ، ودخل على السلطان ، ولاعلم عند الذين وشوا به إليه. فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد أَيْبَك

(١) يتابع الصوم . (٢) يريد أرسل فى طلبى . وهو تعبير للمؤلف درج عليه . وقد أصلحناه فى مواضع كثيرة .

تحت السرير بحيث لا يظهر . وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به . فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن أَيْبَك ، فذكروا له أنه عصى وخالف . وقالوا : قد صحّ عندنا أنه ادّعى الملك لنفسه ، فضرب السلطان سريره برجله وصفق بيديه ، وقال: يا أيبك ، قال: لبيك ، وخرج عليهم ، فَسُقِط فى أيديهم ، وفزعوا إلى تقبيل الأرض . فقال لهم السلطان : قد غفرت لكم هذه الزلة ، وإياكم والعودة إلى الكلام فى أيبك . وأمره أن يعود إلى بلاد الهند ، فعاد إليها وفتح مدينة دِهْلى وسواها . واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد ، وأقام قطب الدين بها إلى أن توفى .

ذكر السلطان شمس الدين لَلْمِش

وهو أول من ولى الملك بمدينة دهلى مستقلا به . وكان قبل تملكه مملوكا للأمير قطب الدين أَيْبَك وصاحب عسكره نائبا عنه . فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة ، فأتاه الفقهاء يَقْدُمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى . فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وقعد القاضى إلى جانبه على العادة ، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه ، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه ، وأخرج لهم عَقْدا يتضمن عِتْقه، فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا . واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة . وكان عادلا صالحا فاضلا . ومن مآثره أنه اشتد فى رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض . فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته ، وأنصفه ممن ظلمه . ثم إنه أعيا فى ذلك . فقال : إن بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل وأريد تعجيل إنصافهم . فجعل على

باب قصره أسدين مصورين من الرُّخام ، موضوعين على برجين هنالك . وفى عنقيهما سِلسلتان من الحديد فيهما جَرَس كبير . فكان المظلوم يأتى ليلا فيحرك الجرس ، فيسمعه السلطان وينظر فى أمره للحين وينصفه . ولما توفى السلطان شمس الدين خلّف من الأولاد الذكور ثلاثة ، وهم ركن الدين الوالى بعده ، ومُعِز الدين وناصر الدين ، وبنتا تسمى رَضِيَّة ، هى شقيقة معز الدين منهم ، فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه .

ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه ، افتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله . وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها . فلما كان فى بعض أيام الجُمَع ، خرج ركن الدين إلى الصلاة ، فصعدت رضيّة على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ، وهو يسمى (دولة خانة) ولبست عليها ثياب المظلومين . وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم : إن أخى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه ، وذكرتهم بأيام أبيها ، وفعله الخير ، وإحسانه إليهم ، فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو فى المسجد ، فقبضوا عليه وأتوا به إليها . فقالت لهم : القاتل يقتل . فقتلوه قصاصا بأخيه . وكان أخوهما ناصر الدين صغيرا ، فاتفق الناس على تولية رضيّة .

ذكر السلطانة رَضِيَّة

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها . واستقلت بالملك أربع سنين. وكانت تركب بالقوس والتركش[١] والقُرْبان[٢]، كما يركب الرجال . ولا تستر وجهها . ثم إنها اتُّهِمت بعبد لها من الحبشة . فاتفق الناس على خلعها و تزويجها ، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها . وولى الملك أخوها ناصر الدين .

ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما خلعت رضية ولِي ناصِر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة . ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه ، وركبا فى مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد ، وتَهيَّآ لقتاله . وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن ، متولى الملك بعده ، فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية ، وفرت بنفسها ، فأدركها الجوع وأجهدها الإعيـاء ، فقصدت حَرّاثا رأته يَحْرُثُ الأرض ، فطلبت منه ماتأكله ، فأعطاها كِسرة خبز فأكلتها ، وغلب عليها النوم ، وكانت فى زِيّ الرجال . فلمـا نامت نظر إليها الحراث وهى نائمة ، فرأى تحت ثيابها قَبـاء مرصّعا ، فعلم أنها امرأة ، فقتلها وسلبها ، وطرد

(١) كلمة هندية فيما يظهر . ومعناها كنانة السهام .

(٢) من معانى (القُرْبان) جليس الملك الخاص . والمعنى عليه ظاهر .

فرسها ودفنها فى فَدّانه(١) ، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق لبيعها ، فانكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشِّحْنة وهو الحاكم ، فضربه فأقر بقتلها ودلّهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ، ودفنت هنالك و بنى عليها قبة . وقبرها الآن يزار و يتبرك به . وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجُون(٢) ، على مسافة فرسخ واحد من المدينة. واستقل ناصر الدين بالملك بعدها ، واستقام له الأمر عشرين سنة . وكان ملكا صالحا ينسخ نُسَخا من الكتاب العزيز و يبيعها فيقتات بثمنها . وقد وَقَفَنِى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة . ثم إن نائبه غِياث الدين بَلَبَن قتله وملك بعده . ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره .

ذكر السلطان غياث الدين بَلَبَن

ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة . وقد كان قبلها نائبا له عشرين سنة أخرى. وكان من خيار السلاطين، عادلا حليما فاضلا . ومن مكارمه أنه بنى دارا وسماها دار الأمن : فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ، ومن دخلها خائفا أمِن، ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضا من يطلبه . و بتلك الدار دفن لما مات . وقد زرت قبره .

(١) يريد الأرض التى يزرعها . وهو غلط ، لأن الفدان الثور أو الثوران يقرن للحرث بينهما ، أو هو آلة الثورين .

(٢) نهر جُمْنا .

حكاية [1]

يذكر أنّ أحد الفقراء بِبُخَارَى رأى بها بَلَبَن هذا، وكان قصيرا حقيرا دميما. فقال له: يا تركك، وهي لفظة تُعرِب عن الاحتقار. فقال له: لبيك يا خَوَنْد [2]، فأعجبه كلامه. فقال له اشتر لى من هذا الرمان، وأشار إلى رمان يباع بالسوق، فقال نعم، وأخرج فُلَيْسات لم يكن عنده سواها، واشترى له من ذلك الرمان. فلما أخذها الفقير قال له: وهبنا لك ملك الهند. فقبّل بلبن يد نفسه، وقال: قبلت ورضيت، واستقر ذلك فى ضميره. واتفق أن بعث السلطان شمس الدين لَلْمِش تاجرا يشترى له المماليك بِسَمَرْقَنْد وبُخارى وتِرْمِذ. فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بَلَبَن. فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم إلا بلبن، لما ذكرناه من دمامته. فقال: لا أقبل هذا. فقال له بلبن: يا خَوَنْد عَالَم، لمن اشتريت هؤلاء المماليك؟ فضحك منه وقال: اشتريتهم لنفسى. فقال له: اشترنى أنا لله عز وجل. فقال نعم وقبله. وجعله فى جملة المماليك. فاحتُقِر شأنه وجعل فى السقائين. وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين: إن أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه. ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت إلى أقوالهم، لصلاحه وعدله، إلى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده، فذكرت له ذلك وأثر فى نفسه. وبحث عن المنجمين، فقال: أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى إذا رأيتموه؟ فقالوا له: نعم، عندنا علامة نعرفه بها. فأمر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك، فعُرِضوا بين يديه طبقة طبقة، والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون: لم نره بعد. وحان وقت الزوال. فقال السقاءون

(١) فى هذه الحكاية كثير مما لا يمكن تصديقه.

(٢) يا سيدى.

بعضهم لبعض : إنا قد جعنا فلنجمع شيئا من الدراهم ، ونبعث أحدنا إلى السوق ليشترى لنا ما نأكله ، فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بَلَبَن ، إذ لم يكن فيهم أحقر منه . فلم يجد بالسوق ما أرادوه . فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ . وجاءت نوبة السقّائين فى العرض ، وهو لم يأت بعد ، فأخذوا زِقّه وماعونه وجعلوه على كاهل صبى ، وعرضوه على أنه بلبن . فلما نودى باسمه جاز الصبى بين أيديهم ، وانقضى العرض ، ولم ير المنجمون الصورة التى تطلبوها . وجاء بلبن بعد تمام العرض ، لما أراد الله من إنفاذ قضائه .

ثم إنه ظهرت نجابته بجعل أمير السقائين . ثم صار من جملة الأجناد ، ثم من الأمراء . ثم تزوّج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلى الملك . فلما وَلِىَ الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة . ثم قتله بَلَبَن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى ، كما تقدم ذكر ذلك . وكان للسلطان بلبن ولدان ، أحدهما الخان الشهيد ولىّ عهده ، وكان واليا لأبيه ببلاد السند ، ساكنا بمدينة مُلْتان ، وقتل فى حرب له مع التتر . وترك ولدين هما كِى قُبَاد وكِى خُسْرُو . وولد السلطان بلبن الثانى يسمى ناصر الدين . وكان واليا لأبيه ببلاد اللَّكْنُوتى وبَنْجَالة . فلما استُشْهِد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كِى خُسْرُو ، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين . وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بحضرة دِهْلى مع جده ، يسمى معز الدين . وهو الذى تولى الملك بعد جده ، فى خبر عجيب نذكره ، وأبوه إذ ذاك حى كما ذكرناه .

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن

ولما توفى السلطان غياث الدين ليلا ، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللَّكْنَوتِى ، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كى خُسْرُو ، على حسب ما قصصناه ، كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكى خسرو ، فأدار عليه حيلة تمت له وهى : أنه كتب بَيْعَة دلّس فيها على خطوط الأمراء الكبار ، بأنهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بَلَبَن ، ودخل على كى خُسْرُو كالمتنصح له . فقال له : إن الأمراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم . فقال له كى خُسْرُو : فما الحيلة ؟ قال : انج بنفسك هاربا إلى بلاد السند . فقال : وكيف الخروج والأبواب مسدودة ؟ فقال له : إن المفاتيح بيدى وأنا أفتح لك . فشكره على ذلك وقبّل يده . فقال اركب الآن . فركب فى خاصته ومماليكه . وفتح له الباب وأخرجه وسدّ فى إثره . واستأذن على معز الدين فبايعه . فقال : كيف لى بذلك وولاية العهد لابن عمى ؟ فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وبإخراجه . فشكره على ذلك . ومضى به إلى دار الملك ، وبعث إلى الأمراء والخواص فبايعوا ليلا . فلما أصبح بايعه سائر الناس . واستقام له الملك ، وكان أبوه حيا ببلاد بنْجَالة واللَّكْنَوتِى فاتصل به الخبر . فقال : أنا وارث الملك ، وكيف يلى ابنى الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة ؟ فتجهز فى جيوشه قاصدا حضرة دِهْلى . وتجهز ولده فى جيوشه أيضا قاصدا لمدافعته عنها . فتوافيا معا بمدينة كَرَا ، وهى على ساحل نهر الكنْك الذى تحج الهنود إليه . فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلى كرا ، ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلى الجهة الأخرى . والنهر بينهما . وعزما على القتال ثم إن الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين ، فألقى فى قلب

ناصر الدين الرحمة لابنه. وقال: إذا ملك ولدى فذلك شرف، وأنا أحق أن أرغب فى ذلك . وألقى فى قلب السلطان معز الدين الضراعة لأبيه . فركب كل واحد منهما فى مركب منفردا عن جيوشه ، والتقيا فى وسط النهر . فقبّل السلطان رجل أبيه واعتذرله . فقال له أبوه: قد وهبت لك ملكى ووليتك. وبايعه وأراد الرجوع لبلاده . فقال له ابنه: لا بد لك من الوصول إلى بلادى. فمضى معــه إلى دِهْلى ودخل القصر ، وأقعده أبوه على سرير الملك ، ووقف بين يديه . وسُمِّى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعْدَيْن ، لمــا كان فيه من حَقْن الدماء وتواهُبِ المُلْك والتجافى عن المنازعة . وأكثرت الشعراء فى ذلك . وعاد ناصر الدين إلى بلاده فمــات بها بعد سنين ، وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهَادُور الذى أسره السلطان تُغْلُق ، وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته . واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك . وكانت كالأعياد . رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورُخْص أسعارها ، وجود معز الدين وكرمه . وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى . ولا نظير لهــا فى البلاد . وحكى لى بعض أهل الهند أن معز الدين أعترته علة أعجز الأطباء دواؤها . ويبِس أحد شقيه ، فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخَلْجى .

ذكر السلطان جلال الدين

ولمــا اعترى السلطان معزالدين ما ذكرناه من يُبْس أحد شِقيه ، خالف عليه نائبه جلال الدين ، وخرج إلى ظاهر المدينه ، فوقف على تل هنا لك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشَانِى ، فبعث معز الدين الأمراء لقتاله ، فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته . ثم دخل المدينة وحصره فى القصر

ثلاثة أيام . وحدثنى من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع فى تلك الأيام، فلم يجد ما يأكله، فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أَوَدَه . ودُخِل عليه القصر فقتل. وولى بعده جلال الدين . وكان حليا فاضلا وحلمه أداه إلى القتل كما سنذكره .

واستقام له الملك سنين . وبنى القصر المعروف باسمه ، وهو الذى أعطاه السلطان محمد صِهْرَه الأمير غدا بن مُهَنَّا لما زوجه بأخته . وسيذكر ذلك . وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين، وابن أخ اسمه علاء الدين، زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانِكْبُور ونواحيها . وهى من أخصب بلاد الهند، كثيرة القمح والأرز والسكر . وتصنع بها الثياب الرفيعة ، ومنها تجلب إلى دهلى. وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما . وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه، فلا يزال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها . وكان علاء الدين شهما شجاعا مُظَفَّرا منصورا . وحب المُلْك ثابت فى نفسه ، إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار . فاتفق أنه ذهب مرة إلى الغزو ببلاد الدُّوَيْقِير ، وتسمى بلاد الكَتَكَة أيضا ، وسنذكرها. وهى كرسى بلاد المالْوَة والمَرْهَتَة. وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار. فعثرت بعلاء الدين فى تلك الغزوة دابة له عند حجر ، فسمع له طنينا ، فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما، ففرقه فى أصحابه. ووصل إلى الدُّوَيْقِير، فأذعن له سلطانها بالطاعة، ومكّنه من المدينة من غير حرب، وأهدى له هدايا عظيمة، فرجع الى مدينة كَرَا ، ولم يبعث إلى عمه شيئا من الغنائم . فأغرى الناس عمه به ، فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه . فقال السلطان جلال الدين: أنا أذهب إليه وآتى به فإنه محل ولدى. فتجهز

فى عساكره ، وطوى المراحل حتى حلّ بساحل مدينة كَكَرَا ، حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين . وركب النهر للوصول إلى ابن أخيه. وركب ابن أخيه أيضا فى مركب ثان ، عازما على الفتك به. وقال لأصحابه: إذا أنا عانقته فاقتلوه . فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه ، وقتله أصحابه كما أمرهم ، واحتوى على ملكه وعساكره .

ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخَلْجى(١)

ولما قتل عمه استقلَّ بالملك ، وفر إليه أكثر عساكر عمه . وعاد بعضهم إلى دِهْلِى واجتمعوا على ركن الدين ، وخرج إلى دفاعه ، فهربوا جميعا إلى السلطان علاء الدين، وفر ركن الدين إلى السِنْد. ودخل علاء الدين دار الملك ، واستقام له الأمر عشرين سنة. وكان من خيار السلاطين. وأهل الهند يثنون عليه كثيرا. وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم. ويحضر المحتسب ، وهم يسمونه الرئيس ، فى كل يوم لذلك . ويذكر أنه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أن ذلك لكثرة المغرَّم على البقر ، فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجار وأعطاهم الأموال ، وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها. ففعلوا ذلك. وفعل مثل هـذا فى الأثواب التى يؤتى بها من دَوْلة آباد . وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر . ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عيَّنه. فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن(٢). وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا فى أن يؤذن لهم فى البيع ، فأذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التى امتنعوا من بيعه بها .

(١) نسبة إلى خَلْج ، موضع قرب غَزْنه اهـ ياقوت .

(٢) بيت مال الدولة . وقد استعمل المؤلف هذه الكلمة كثيرا للدلالة على هذا المعنى .

وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما . وسبب ذلك أنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه . وكان يحبه و يعظمه . فركب يوما إلى الصيد وهو معه ، وأضمر فى نفسه أن يفعل به ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك . فلما نزل للغداء رماه بنُشّابة فصرعه ، وغطاه بعض عبيده بِتُرس ، وأتى ابن أخيه لِيُجهِز عليه ، فقال له العبيد إنه قد مات فصدقهم . وركب فدخل القصر على الحَرَم . وأفاق السلطان علاء الدين من غَشْيته . وركب واجتمعت العساكر عليه . وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به إليه فقتله . وكان بعد ذلك لا يركب . وكان له من الأولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان ، وهو قطب الدين الذى وَلِىَ الملك ، وشهاب الدين . وكان قطب الدين مُهتَضَما عنده ناقص الحظ قليل الحُظْوة . وأعطى جميع إخوته المراتب وهى الأعلام والأطبال ، ولم يعطه شيئا . وقال له يوما : لابد أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك ، فقال له : الله هو الذى يعطينى. فهال أباه هذا الكلام وفزع منه. ثم إن السلطان أصابه المرض الذى مات منه. وكانت زوجته أم ولده خضر خان ، وتسمى ماه حق (والماه القمر بلسانهم) ، لها أخ يسمى سِنْجر . فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان . وعلم بذلك (ملك نائب) أكبر أمراء السلطان. وكان يسمى الألفى . لأن السلطان اشتراه بألف تنكة ، وهى ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب . فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه : إذا دخل علىّ سِنْجر فإنى معطيه ثوبا ، فإذا لبسه فأمسكوا بأكمامه واضربوا به الأرض واذبحوه . فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه. وكان خَضْر خان غائبا بموضع يقال له سَنْدَبَت ، على مسيرة يوم من دهلى ، وقد توجه لزيارة شهداء مدفونين لنذر كان عليه أن يمشى تلك المسافه راجلا ، ويدعو لوالده بالراحة. فلما بلغه أن أباه قتل خاله ، حَزِن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه . وتلك عادة لأهل الهند ، يفعلونها إذا مات لهم من

يعز عليهم . فبلغ والده ما فعله ، فكره ذلك . فلما دخل عليه عنفه ولامه ، وأمر به فقيدت يداه ورجلاه ، وسلمه (لملك نائب) وأمره أن يذهب به إلى حصن كالِيور ، وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع ، على مسيرة عشر من دهلى . وقد سكنته انامدة . فلما أوصله إلى هذا الحصن سلمه للكُتُوَال، وهو أمير الحصن، وللفردين وهم الزِماميون[1] . وقال لهم: لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه . إنما هو أعدى عدو له . فاحفظوه كما يحفظ العدو . ثم إن المرض اشتد بالسلطان . فقال (لملك نائب) : ابعث من يأتى بابنى خضر خان لأوليه العهد . فقال له نعم، وماطله بذلك، فمتى سأله عنه ، قال هو ذا يصل ، إلى أن توفى السلطان رحمه الله .

ذكر ابنه شهاب الدين

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد(ملك نائب)ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايعه الناس . وتغلب (ملك نائب) عليه ، وسَمَل أعين أبى بكر خان وشادى خان ، وبعث بهما إلى كالِيوُر ، وأمر بِسَمْل عينى أخيهما خضر خان المسجون هنالك ، وسجنوا . وسجن قطب الدين لكنه لم تُسْمَل عيناه . وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه ، يسمى أحدهما بشير والآخر بمبشِّر، فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين، وهى بنت السلطان معز الدين، فذكرتهما بنعمة مولاهما ، وقالت : إن هذا الفتى (نائب ملك) قد فعل فى أولادى ما تعلمانه ، وإنه يريد أن يقتل قطب الدين ، فقالا لها : سَتَرَيْنَ ما نفعل . وكانت عادتهما أن يبيتا عند (ملك نائب) ويدخلا عليه بالسلاح. فدخلا عليه تلك الليلة وهو فى بيت من

---

(١) الجند المقيدة اسماؤهم فى جرائد الجيش : وهى تسمية اصطلاحية فيما يظهر .

الخشب، ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر. فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده إليه، فضربه به المملوك وثنّى عليه صاحبه، واحتزا رأسه، وأتيا به إلى مجلس قطب الدين، فرمياه بين يديه، وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين، وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له. ثم عزم على خلعه فخلعه.

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع إصبعه، وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته، واستقام الملك لقطب الدين. ثم إنه بعد ذلك خرج من حضرة دهلى إلى دولة أباد، وهى على مسيرة أربعين يوما منها. والطريق بينهما تَكْتُنفه الأشجار من الصَفْصاف وسواه. فكأن الماشى به فى بستان. وفى كل ميل منه ثلاث (داوات) وهى البريد. وقد ذكرنا ترتيبه. وفى كل (داوة) جميع ما يحتاج المسافر إليه. فكأنه يمشى فى سوق مسيرة الأربعين يوما. وكذلك يتصل الطريق إلى بلاد التِلِنْك والمَعْبر مسيرة ستة أشهر. وفى كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر. فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد فى ذلك الطريق. ولما خرج السلطان قطب الدين فى هذه الحركة، اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه، وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون، وسنه نحو عشرة أعوام، وكان مع السلطان، فبلغ السلطان ذلك، فأخذ ابن أخيه هذا وأمسك برجليه وضرب برأسه الحجارة حتى نَثَرَ دماغه. وبعث أحد الأمراء ويسمى (ملك شاه) إلى كالُيور حيث ابو هذا الولد وأعمامه، وأمره بقتلهم جميعا. فحدثنى القاضى

زين الدين مبارك قاضى هذا الحصن، قال : قدم علينا ملك شاه مَحْوَة يوم، وكنت عند خضر خان بمجلسه ، فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه . ودخل عليه الأمير. فقال له : فيم جئت؟ قال : فى حاجة خَوَنْد عَالَم. فقال له : نفسى سالمة ؟ فقال نعم . وخرج عنه واستحضر الكُتُوَال وهو صاحب الحصن ، والمفردين وهم الزماميون، وكانوا ثلاثمائة رجل، وأرسل إلىّ و إلى العدول، واستظهر بأمر السلطان فقرءوه ، وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه، وهو متثبّت غير جَزِع. ثم ضربوا عنق أبى بكرخان وشادى خان. ولما توا ليضربوا عنق خضر خان فزِع وَذَهَل . وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه . وسحبوهم جميعا فى حفرة بدون تكفين ولا غسل . وأُخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم . وعاشت أم خضر خان مدة . ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين. وحصن كَالِيُور هذا فى رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لايحاذيه جبل . وبداخله جِباب الماء ، ونحو عشرين بئرا عليها الأسوار ، مضافة إلى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرَّعّادات . ويُصْعَد إلى الحصن فى طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس . وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فَيّال . وإذا رآه الانسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة . وفى أسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة ، مساجدها ودورها، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب. وكذلك دار الملك بها ، والقِباب والمجالس. وأكثر سُوقتها كفار . وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان ، لا يزالون فى جهاد لأنها بين الكفار .

ولما قتل قطب الدين أخوته واستقل بالملك ، فلم يبق من ينازعه ولا من

يخالف عليه ، بعث الله تعالى عليه خاصته الحَظِىَّ لديه ، أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ، ناصر الدين خُسْرُو خان ، ففتك به وقتله واستقل بملكه ، إلا أن مدته لم تطل فى الملك . فبعث الله عليه أيضـا من قتله بعد خلعه ، وهو السلطان تُغْلُق ، كما نشرح ذلك كله مستوفى ، إن شاء الله تعالى ، إثر هذا ونسطره .

ذكر السلطان خُسْرُو خان ناصر الدين

وكان خُسْرُو خان من أكبر أمراء قطب الدين . وهو شجاع حسن الصورة . وكان فتح بلاد جَنْدِيرى و بلاد المعبر . وهى من أخصب بلاد الهند ، و بينهما وبين دِهْلى مسيرة ستة أشهر . وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا و يؤْثره ، فجر ذلك حتفه على يديه . وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضى خان صدر الجهان ، وهو أكبر أمرائه ، وكِلِيت دار ، وهو صاحب مفاتيح القصر . وعادته أن يبيت كلّ ليلة على باب السلطان ومعه أهل النَوْبة . وهم ألف رجل ، يبيتون مُناوبة بين أربع ليال ، ويكونون صَفَّين فيما بين أبواب القصر . وسلاح كل واحد منهم بين يديه ، فلا يدخل أحد إلا فيما بين سِماطيْهم . و إذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار . ولأهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم و يكتبون من غاب منهم أو حضر .

وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفعال خُسْرُو خان ، و يسوءه ما يراه من إيثاره لكفار الهنود وميله إليهم . وأصله منهم . ولا يزال يلقى ذلك إلى السلطان فلا يسمع منه ، و يقول له : دعه وما يريد ، لمـا أراد الله من قتله على يديه . فلما كان فى بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان : إن جماعة من الهنـود يريدون أن يُسْلموا . ومن عادتهم بتلك البـلاد أن

الهندى إذا أراد الإسلام أدخل إلى السلطان ، فيكسوه كُسْوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره . فقال له السلطان : ائتنى بهم ، فقال : إنهم يستحيون أن يدخلوا إليك نهارا لأجل أقربائهم وأهل ملتهم . فقال له ائتنى بهم ليلا . فجمع خُسْرُو خان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم ، فيهم أخوه خان خانان ، وذلك أوان الحر ، والسلطان ينام فوق سطح القصر ، ولا يكون عنده فى ذلك الوقت إلا بعض الفتيان . فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكّون فى السلاح ، ووصلوا إلى الباب الخامس وعليه قاضى خان ، أنكر شأنهم وأحسّ الشر ، فمنعهم من الدخول ، وقال : لا بد أن أسمع من خَوَنْد عَالَم بنفسى الإذن فى دخولهم ، وحينئذ يدخلون . فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه ، وعلت الضجة بالباب . فقال السلطان : ما هذا ؟ فقال خسرو خان : هم الهنود الذين أتوا ليُسلِموا فمنعهم قاضى خان من الدخول . وزاد الضجيج ، فخاف السلطان ، وقام يريد الدخول إلى القصر ، وكان بابه مسدودا والفتيان عنده ، فقرع الباب ، واحتضنه خُسْرُو خان من خلفه ، وكان السلطان أقوى منه فصرعه . ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان : هو ذا فوق فاقتلوه . فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه . وأرسل خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق . فكلما أدخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه . ولما أصبح أعلن أمره ، وكتب المراسم وهى الأوامر إلى جميع البلاد ، وبعث لكل أمير خِلْعة ، فأطاعوه جميعا وأذعنوا ، إلا تُغْلُق شاه والد السلطان محمد شاه ، وكان إذ ذاك أميرا بِدِبَال بُور من بلاد السند ، فلما وصلته خِلْعة خسرو خان طرحها بالأرض وجلس فوقها ، وبعث إليه أخاه خان خانان فهزمه . ثم آل أمره إلى أن قتله ، كما سنشرحه فى أخبار تُغْلُق .

ولما ملك خسرو خان آثر الهنود ، وأظهر أمورا منكرة ، منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود ، فإنهم لا يجيزون ذبحها . وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط فى جلدها ويحرق . وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة وللاستشفاء إذا مرضوا . ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها . وكان ذلك مما بغّض خسرو خان إلى المسلمين وأمالهم عنه إلى تغلق ، فلم تطل مدة ولايته ، ولا امتدت أيام ملكه ، كما سنذكره .

ذكر السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه

حدثنى الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ، ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبد الله ، ابن الولى الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القُرَشى المُلْتانى بزاويته منها ، أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقَرَوْنة ، وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك . وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار ، وكان كُلْوا نيّاله ، والكُلْوانىّ هو راعى الخيل(1) . وذلك فى أيام السلطان علاء الدين ، وأمير السند إذ ذاك أخوه أُولُوخان . فخدمه تُغْلُق وتعلّق بجانبه ، فرتّبه فى (البِيادَة) وهم الرجالة . ثم ظهرت نجابته فأُثبت فى الفرسان . ثم كان من الأمراء الصغار . وجعله أولوخان أمير خيله . ثم كان بعد من الأمراء الكبار . وسمى بالملك الغازى . ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بمُلْتان ، وهو الذى أمر بعملها : إنى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم ، فحينئذ سميت بالملك الغازى .

ولما وَلِىَ قطب الدين ولّاه مدينة (دِبال بُور) وعِمالتها ، وجعل ولده الذى هو الآن سلطان الهند أمير خيله . وكان يسمى جَوْنَة . ولما ملك سمى بمحمد شاه . ثم لما قتل قطب الدين ووَلِىَ خُسْرُوخان أبقاه على إمارة الخيل .

---

(1) أى بلسانهم .

فلما أراد تُغْلُق الخلاف، كان له ثلثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال. وكتب إلى كَشْلُوخان وهو يومئذ بمُلْتان، و بينها و بين (دِبال بُور) ثلاثة أيام، يطلب منه القيام بنُصْرته ، و يذكّره نعمة قطب الدين ، و يحرِّضه على طلب ثأره . وكان ولد كَشْلُوخان بدهلى ، فكتب إلى تُغْلُق : إنه لو كان ولدى عندى لأعنتك على ما تريد. فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه، و يأمره أن يَفرّ إليه و يستصحب معه ولد كشلُوخان. فأدار ولده الحيلة على خُسْرُوخان وتمت له كما أراد . فقال له : إن الخيل قد سَمِنت وَبَدُنَتْ ، وهى تحتاج إلى التضمير ، فأذن له فى تضميرها. فكان يركب كل يوم فى أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث. واستمر إلى أربع ساعات، إلى أن غاب يوما إلى وقت الزوال ، وذلك وقت طعامهم . فأمر السلطان بالركوب فى طلبه فلم يجد له خبرا . ولحق بأبيــه واستصحب معــه ولد كَشْلُوخان . وحينئذ أظهر تُغْلُق الخلاف وجمع العساكر ، وخرج معه كَشْلُوخان فى أصحابه. وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما ، فهزماه شر هزيمة، وفر عسكره إليهما . ورجع خان خانان إلى أخيه ، وقُتل أصحابه وأُخذت خزائنه وأمواله .

وقصد تغلق حضرة دهلى ، وخرج إليه خسرو خان فى عساكره ، ونزل بخارج دهلى ، بموضع يعرف بأُصْيا أباد ، ومعنى ذلك : رحى الريح . وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الأموال بالبِدَر لا بوزن ولا عدّ . ووقع اللقاء بينه وبين تغلق ، وقاتلت الهنود أشد قتال ، وانهزمت عساكر تُغْلُق ، ونهبت مَحلّته، وانفرد فى أصحابه الأقدمين الثلثمائة . فقال لهم : إلى أين الفرار، حيثما أُدْرِكْنا قُتِلنا ؟ واشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصد تغلق وأصحابه موقفه(١) ، فحمِىَ القتال بينهم وبين الهنود ، وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معــه أحد . وهرب فنزل عن

(١) أى موقف خُسْرُوخان .

فرسه ، ورمى بثيابه وسلاحه ، وبقى فى قميص واحد . وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند . ودخل بستانا هنالك. واجتمع الناس على تُغْلُق وقصد المدينه ، فأتاه الكُتُوال بالمفاتيح ، ودخل القصر ونزل بناحية منه ، وقال لكَشْلُوخان : أنت تكون السلطان . فقال كَشْلُوخان : بل أنت تكون السلطان . وتنازعا فقال له كَشْلُوخان : فإن أبيت أن تكون سلطانا يتولى ولدك. فكره هذا وقبل حينئذ . وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام. ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخُسْرُوخان ، وهو مختف بالبستان . فخرج وطاف به ، فوجد القيّم فسأله طعاما ، فلم يكن عنده ، فأعطاه خاتمه وقال: اذهب فارهنه فى طعام . فلما ذهب بالخاتم إلى السوق ، أنكر الناس أمره ، ورفعوه إلى الشِّحْنة وهو الحاكم ، فأدخله على السلطان تُغْلُق فأعلمه بمن دفع إليه الخاتم ، فبعث ولده محمدا ليأتى به ، فقبض عليه وأتاه به راكبا على (تَتُو)، وهو البِرْذَوْن . فلما مَثَل بين يديه ، قال له : إنى جائع فأتنى بالطعام ، فأمر له بالشربة[1] ثم بالطعام ثم بالفُقّاع ثم بالتَّانبُول. فلما أكل قام قائما ، وقال : يا تغلق افعل معى فعل الملوك ولا تفضحنى . فقال له : لك ذلك. وأمر به فضربت رقبته. وذلك فى الموضع الذى قَتَل هو به قُطْبَ الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين. وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه. ودفن فى مقبرته . واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام ، وكان عادلا فاضلا.

ذكر ما رامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك

ولما استقر تُغْلُق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التِلِنْك ، وهى على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلى. وبعث معه عسكرا عظيما فيه كبار الأمراء : مثل الملك تَمُور ومثل الملك تِكين ومثل الملك كافور المُهْردار ومثل الملك بَيْرَم

---

(١) شراب حلو كما يفهم مما تقدم .

وسواهم . فلما بلغ أرض التِلِنْك أراد المخالفة . وكان له نديم من الفقهاء الشعراء، يعرف بعُبَيْد ؛ فأمره أن يلقى إلى الناس أن السلطان تغلق توفى . وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين إذا سمعوا ذلك . فلما ألقى ذلك إلى الناس أنكره الأمراء ، وضرب كل واحد منهم طَبْله وخالف . فلم يبق معه من أحد . وأرادوا قتله ، فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه . ففر إلى أبيه فى عشرة من الفرسان سماهم (ياران موافق)، ومعناه الأصحاب الموافقون. فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود إلى تِلِنْك فعاد إليها. وعلم أبوه بما كان أراد، فقتل الفقيه عبيدا ، وأمر بالملك كافور المهردار فضرب له عمود فى الأرض محدود الطرف، ورُكِز فى عنقه حتى خرج من جنبه طرفه، ورأسه إلى أسفل. وترك على تلك الحال . وفر من بقى من الأمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن ؛ واستقروا عنده .

ذكر مسير تُغْلُق إلى بلاد اللَّكْنَوتى وما اتصل بذلك إلى وفاته

وأقام الأمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين . ثم إن شمس الدين توفى ، وعَهِد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه . ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بَهَادُور بُورة ؛ ومعناه بالهندية الأسود . واستولى على الملك ،وقتل أخاه قُطْلُوخان وسائر إخوته . وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق ، فتجهز معهما بنفسه لقتال أخيهما ؛ وخلّف ولده محمدا نائبا عنه فى ملكه ، وأجدّ السير إلى بلاد اللَّكْنَوتى فتغلب عليها . وأسر سلطانها غياث الدين بَهَادُور، وقدم به أسيرا إلى حضرته . وكان بمدينة دهلى الولى نظام الدين البَذَاوُنى. ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد إليه ويعظم

خدامه و يسأله الدعاء.وكان يأخذ الشيخَ حال تغلب عليه. فقال ابن السلطان لخدامه : إذا كان الشيخ فى حاله التى تغلب عليه فأعلمونى بذلك . فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه ، فلما رآه الشيخ قال : وهبنالك الملك . ثم توفى الشيخ فى أيام غيبة السلطان ، فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله ، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده ، وكان قد رابته منه أمور . ونَقَمَ منه استكثاره من شراء المماليك و إجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس ، فزاد حَنَقُه عليه . و بلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دِهْلى بعد سفره ذلك . ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة ، أمر ولده أن يبنى له قصرا ، وهم يسمونه الكُشْك ، على واد هنالك يسمى أفغان بور . فبناه فى ثلاثة أيام ، وجعل أكثر بنائه بالخشب ، مرتفعا على الأرض قائما على سوارى خشب . وأحكمه بهندسة تولَّى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجه جِهان ، واسمه أحمد بن إياس ، كبير وزراء السلطان محمد ، وكانت الحكمة التى اخترعوها فيه أنه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط . ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا . واستأذنه ولده فى أن يَعْرِض الفيلة بين يديه وهى مزينة ، فأذن له . وحدثنى الشيخ ركن الدين أنه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المُؤْثَر لديه محمود . فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ : يا خَوَنْد ، هذا وقت العصر ، انزل فصل. قال لى الشيخ: فنزلت . وأتى بالأفيال من جهة واحدة على ما دبّروه . فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود . قال الشيخ : فسمعت الضجة فعدت ولم أصل ، فوجدت الكشك قد سقط . فأمر ابنه أن يؤتى بالفئوس والمَسَاحِى [1] للحفر عنه . وأشار بالإبطاء ، فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس . فحفروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليقيه الموت . فزعم بعضهم أنه

(1) المِسْحَاة المجرفة .

أخرج ميتا، وزعم بعضهم أنه أخرج حيا، فأُجْهِز عليه، وحمل ليلا إلى مقبرته التى بناها بخارج البلدة المسماة باسمه، تُغْلق أباد، فدفن بها. وقد ذكرنا السبب فى بنائه لهـذه المدينة . وبها كانت خزائن تغلق وقصوره . وبهـا القصر الأعظم الذى جعـل قراميده مذهبة ، فإذا طلعت الشمس كان لهـا نور عظيم وبَصيص[1]، يمنع البصر من إدامة النظر إليها. واختزن بها الأموال الكثيرة. ويذكر أنه بنى صِهْريجا وأفرغ فيه الذهب إفراغا، فكان قطعة واحدة. فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لمـا وَلِى . وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جِهان فى بناء الكُشْك الذى سقط على تغلق ، كانت حُظْوته عند ولده محمد شاه وإيثاره لديه ، فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه ، ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولاغيرهم .

ذكر السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه ملك الهند والسند الذى قدِمْنا عليه

ولمـا مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ، ولا مخالف عليه ، وقد قَدَّمنا أنه كان اسمه جَوْنَة . فلما ملك تسمى بمحمد. واكتنى بأبى المجاهد . وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهنـد فهو ممـا أخبرت به وتلقيته أو معظمـه من الشـيخ كمال الدين بن البرهان الغَزْنَوى قاضى القضاة . وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده

---

(١) بريق

ذكر وصفه

وهذا الملك أحب الناس لإسداء العطايا و إراقة الدماء ، فلا يخلو بابه عن فقير يُغْنَى ، أو حيّ يقتل . وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة ، وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات . وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم إظهارا للعدل والحق . وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها . وهو من الملوك الذين اطَّردت سعادتهم ، وخرق المعتاد يُمْن نقيبتهم . ولكن الأغلب عليه الكرم . وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيدا . واعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسعه عقل كثير من الناس ، و يعدّونه من قبيل المستحيل عادة . ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعنى إلا قول الحق فيه . وأكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره[1] وترتيب ذلك

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سَرَا ، ولها أبواب كثيرة . فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به . و يقعد به أهل الأنفار والأبواق والصرنايات . فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها ، و يقولون فى ضربهم : جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضا فى البابين الثانى والثالث . وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون ، وهم الذين يقتلون الناس : فإن العادة عندهم أنه

(١) سبق أن قلنا فى حواشى الجزء الأول : إن هذه الكلمة يراد بها غالبا مجلس السلطان للاستقبال . وهى غير عربية فى هذا المعنى .

متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب (المشور). ويبقى هنالك ثلاثا. وبين البابين الأول والثانى دِهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه ، ويقعد عليها أهل النَّوْبة من حفاظ الأبواب . وأما الباب الثانى فيقعد عليه البوابون الموكلون به . وبينه وبين الباب الثالث دكان كبير يقعد عليه نقيب النقباء ، وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده. وعلى رأسه كلاة[1] من الذهب مجوهرة ، فى أعلاها ريش الطواويس . والنقباء بين يديه وعلى رأس كل واحد منهم شاشية[2] مذهبة. وفى وسطه مِنْطقة ، وبيده سوط نِصابه من ذهب أو فضة. ويفضى هذا الباب الثانى إلى (مشور) كبير متسع يقعد به الناس. وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتّاب الباب . ومن عاداتهم ألا يدخل هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك . ويعين لكل إنسان عددا من أصحابه وناسه يدخلون معه . وكل من يأتى إلى هذا الباب يكتب الكتّاب أنّ فلانا جاء فى الساعة الأولى أو الثانية أو ما بعدهما من الساعات إلى آخر النهار . ويُطَالَع السلطان بذلك بعد العشاء الاخرة . ويكتبون أيضا كلّ ما يحدث بالباب من الأمور . وقد عين من أبناء الملوك من يُوصِل كل مايكتبونه إلى السلطان . ومن عاداتهم أيضا أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر لا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذن من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره قَدَّم بين يديه هدية مما يليق إهداؤه إلى السلطان . وكذلك أيضا القادمون من الأسفار : فالفقيه يهدى المصحف والكتاب ، وشبه الفقير يهدى المصلى والسُّبْحة والمِسْواك

(١) ضرب من القلانس عندهم . والكلمة غير عربية .

(٢) غطاء الرأس من نسيج رقيق وهو ما يسمى بالشاش عندنا الآن .

ونحوها ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح . وهذا الباب الثالث يُفْضِى إلى (المشور) المائل الفسيح الساحة المسمى هَزَار أُسطون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وهى سوار من خشب مدهونة ، عليها سُقُف خشب منقوشة أبدع نقش ، يجلس الناس تحتها . وبهذا (المشور) يجلس السلطان الجلوس العام .

ذكر ترتيب جلوسه للناس

وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار. وجلوسه على مِصْطَبة مفروشة بالبياض ، فوقها مرتبة . ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد فى الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فإذا جلس وقف أمامه الوزير ، ووقف الكتّاب خلف الوزير، وخلفهم الحجاب. وكبير الحجاب هو (فيروز ملك) ابن عم السلطان ونائبه. وهو أدنى الحجاب إلى السلطان. ثم يتلوه (خاص حاجب)، ثم يتلوه نائب (خاص حاجب)، ووكيل الدار ونائبه، وشرف الحجاب ، وسيد الحجاب ، وجماعة تحت أيديهم . ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة . وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم : باسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير (قَبُولة) . وبيده المِذبة يُشَرِّد بها الذباب . ويقف مائة من السلحدارية[1] عن يمين السلطان، ومثلهم عن يساره ، بأيديهم الدَّرَق والسيوف والقِسِىّ . ويقف فى الميمنة والميسرة بطول (المشور) قاضى القضاة، ويليه خطيب الخطباء ، ثم سائر القضاة ، ثم كبار الفقهاء، ثم كبار الشرفاء المشايخ، ثم إخوة السلطان وأصهاره ، ثم الأمراء الكبار ، ثم كبار الأعزة وهم الغرباء ،

(١) جنود شاكُون فى السلاح ، بلسانهم .

ثم القواد . ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية . فمنها ماهو بشعار الخلافة ، وهى التى بجُمها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب ، ومنها ما يكون ذلك فيها من الحرير الأبيض المذهب . ولا يركب بذلك غير السلطان . فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين ، والنصف عن الشمال ، بحيث يراها السلطان . ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب ، مكسوة أنيابها بالحديد ، إعدادا لقتل أهل الجرائم ، وعلى عنق كل فيل فيّاله ، وبيده شبه الطبرزين[1] من الحديد ، يؤدبه به ، ويقوّمه لما يراد منه . وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم ، يسع عشرين من المقاتلة ، وأكثر من ذلك ودونه ، على حسب ضخامة الفيل وعظم جِرْمه . ويكون فى أركان ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة . وتلك الفيلة معلّمة أن تخدُم للسلطان وتَحُط رءوسها . فإذا خدمت قال الحجاب : باسم الله ، بأصوات عالية . ويوقف أيضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال ، خلف الرجال الواقفين . وكل من يأتى من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يَخْدُم عند موقف الحجاب . ويقول الحجاب : باسم الله . ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذى يخدم . فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ابدا . ومن كان من كفار الهنود يخدم ، ويقول له الحجاب والنقباء : هداك الله . ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم ، بأيديهم التِّرَسة والسيوف ، فلا يمكن أحدا الدخول بينهم إلا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان .

---

(١) آلة كالساطور . غير عربية .

ذكر دخول الغرباء واصحاب الهدايا عليه

وإن كان بالباب أحد ممن قَدِم على السلطان بهدية ، دخل الحجاب على السلطان على ترتيبهم ، يَقْدُمهم (أمير حاجب) ونائبه خلفه ، ثم (خاص حاجب) ونائبه خلفه ، ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ، ويَخْدُمون فى ثلاثة مواضع . ويُعلِمون السلطان بمن فى الباب . فإذا أمرهم أن يأتوا به ، جعلوا الهدية التى ساقها بأيدى الرجال يقومون بها أمام الناس ، بحيث يراها السلطان . ويُستدعى صاحبها ، فيخدم قبل الوصول إلى السلطان ثلاث مرات ، ثم يخدم عند موقف الحجاب . فإن كان رجلا كبيرا أوقف فى صف أمير حاجب ، وإلا وقف خلفه . ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ، ويرحب به . وإن كان ممن يستحق التعظيم فإنه يصافحه أو يعانقه ، ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه . فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده ، وأظهر استحسانها ، جبرا لخاطر مهديها وإيناسا له ورفقا به ، وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه[1] ، على عادتهم فى ذلك ، بمقدار مايستحقه المهدَى

ذكر دخول هدايا عُمَّاله عليه

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابى البلاد ، صنعوا الأوانى من الذهب والفضة مثل الطُسوت والأباريق وسواها ، وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر ، يسمونها الخِشْت . ويقف الفراشوان وهم عبيد السلطان صفا والهدية بأيديهم . كل واحد منهم ممسك قطعة . ثم يقدم الفيلة إن كان فى الهدية شيء منها ، ثم الخيل المسرجة الملجمة ، ثم البغال ،

(١) غسل الرأس هنا غير مراد . والمراد التكريم .

ثم الجمال وعليها الأموال . ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم ، حين قدم السلطان من دولة آباد ، ولقيه بها فى ظاهر مدينة بيانة . فأدخلت المدينة إليه على هذا الترتيب . ورأيت فى جملتها صينية مملوءة بأحجار الياقوت ، وصينية مملوءة بأحجار الزمرد ، وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر . وكان (حاجى كاون) ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك ، فأعطاه حظا منها . وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص ، وأرباب الدولة والأعزة ، والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار ، الخلع التى تعمهم جميعا . فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والجواهر . ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد ، وإنما هى مختصة بركوب السلطان . ويرفع عليها ستة عشر شطرا[1] من الحرير مرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص . وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر . ويركب السلطان فيلا منها . وترفع أمامه الغاشية وهى ستارة سرجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب . وعلى وسطه منطقة ذهب . وبعضهم يرصعها بالجوهر . ويمشى بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة . وعلى رأس كل واحد منهم أقروف[2] ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وفى يده مقرعة نصابها ذهب . ويركب قاضى القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوى ،

---

(١) يراد به المظلة بلسانهم . وشطر معرب (چتر) بالفارسية .

(٢) لم نجد هذا اللفظ فيما بين أيدينا من كتب اللغة . والمراد به قلنسوة طويلة . كما سبق التنبيه على ذلك فى الحواشى .

وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخُوَارَزْمي ، وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخُراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة ، كل واحد منهم على فيل. وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين . ويركب المؤذنون أيضا على الفيلة وهم يكبّرون .

ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب ، والعساكر تنتظره ، كل أمير بِفَوْجِه على حدة ، ومعه طبوله وأعلامه . فيقدم السلطان ، وأمامه من ذكرناه من المشاة ، وأمامهم القضاة والمؤذّنون يذكرون الله تعالى . وخلف السلطان مراتبه : وهي الأعلام والطبول والأبواق (والأنقار) (والصرنايات). وخلفهم جميع أهل دُخْلته[1] . ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره. ثم يليه ابن أخ السلطان بَهْرام خان بمراتبه وعساكره . ثم يليه ابن عمه (الملك فيروز) بمراتبه وعساكره . ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك مجير بن (ذى الرجا) بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك الكبير قَبُولة بمراتبه وعساكره . وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال . أخبرني صاحب ديوانه ثِقَة الملك علاء الدين عليّ المصريّ ، المعروف بابن الشَّرابِشيّ ، أن نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكا[2] في السنة . ثم يليه الملك نُكْبِيَة بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك بُغْرة بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك مُخْلِص بمراتبه وعساكره. ثم يليه الملك قطب المُلْك بمراتبه وعساكره. وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب . ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتبهم . وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مُدَّرِعا هو وفرسه. وأكثرهم مماليك السلطان . فإذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه ، وأمر بدخول القضاة

(١) بطانته (٢) تقدم الكلام على مقداره في ص ٦

وكبار الأمراء وكبار الأعِزة . ثم نزل السلطان . و يصلى الإمام ويخطب . فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزَة ، بعـد أن يجعل على ثيابه فوطـة حرير توقِّيا من الدم . ثم يركب الفيل و يعود إلى قصره .

ذكر جلوس يوم العيد ، وذكر السرير الأعظم والمِبْخَرة العظمى

و يفرش القصر يوم العيد و يزين بأبدع الزينة ، وتضرب البارِكة[1] على (المشور) كله ، وهى شبه خَيْمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة . وتحفّ بها القباب من كل ناحية . و يصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شِبْه الأزهار . ويجعل منهـا ثلاثة صفوف (بالمشور) . ويجعل بين كل شجرتين كرسى ذهب عليه مرتبة مغطاة. وينصب السرير الأعظم فى صدر (المشور) ، وهو من الذهب الخالص ، كله مرصع القوائم بالجواهر . وطوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل . وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب . وتجعل فوقه المرتبة . و يرفع (الشطر) المرصع بالجواهر على رأس السلطان . وعند ما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله . ثم يتقدم الناس للسلام. فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ ، و إخوة السلطان وأقاربه وأصهاره ، ثم الأعزة ، ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ المماليك ، ثم كبار الأجناد ، يسلم واحد ، إثر واحد ، من غير تزاحم ولا تدافع .

ومن عاداتهم فى يوم العيـد أن كل من بيده قرية مُنْعَم بهـا عليه يأتى

(١) هذه التسمية لا نعرفها فى العربية .

بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه ، فيلقيها فى طَست ذهب هنالك . فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان مَنْ شاء . فإذا فرغ الناس من السلام ، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم . وتنصب فى ذلك اليوم المِبْخَرة العظمى ، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفى داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخّرون يوقدون العود القَمَارى[1] والقاقُلِّى[2] والعنبر الأشهب والجاوى ، حتى يعم دخانها (المشور) كله. ويكون بأيدى الفتيان براميل[3] الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر ، يصبونه على الناس صبا . وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا فى العيدين خاصة . ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك . وتنصب (باركة) بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان فى داخلها ، ويقف على الباب الأول منها عماد المُلْك سَرْتيز ، وعلى الباب الثانى الملك نُكْبِيَة ، وعلى الباب الثالث يوسف بُغْرة ، ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية ، وعن اليسار كذلك . ويقف الناس على مراتبهم . وشِحْنة[4] الباركة (المَلِك طَغَا) ، وبيده عصا ذهب ، وبيد نائبه عصا فضة ، يرتبان الناس ويسويان الصفوف . ويقف الوزير والكتّاب خلفه ، ويقف الحجاب والنقباء . ثم يأتى أهل الطرب . فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المَسْبِيّات فى تلك السنة ، فيغنين ويرقصن . ويهبهن السلطان للأمراء والأعزّة . ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن . ويهبهن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك . ويكون جلوس السلطان لذلك

---

(١) نسبة الى قَمَار بلد بالهند — ويقول ياقوت إن صحة الاسم قامرون لاقمار .

(٢) القاقلة : ثمر نبات هندى من العطر ، كما فى القاموس . انظر ص ٢٤١

(٣) قال فى شرح القاموس : البِرْميل بالكسر وعاء من خشب يتخذ للخمر ، جمعه براميل .

(٤) المراد به هنا القائم على حراسة الباركة .

بعد العصر . ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب . ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن، ويهبن لأمراء المماليك . وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم . وفى اليوم الرابع يعتق العبيد . وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى . وفى اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى . وفى اليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها .

ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره

وإذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة، ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر (شطرا)، منها مزركش[1] ومنها مرصع، وحملت أمامه الغاشية وهى الستارة المرصعة بالجوهر النفيس . وتصنع قِباب الخشب مقسومة على طبقات، وتكسى بثياب الحرير، ويكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات، عليهن أجمل لباس وأحسن حلية . ومنهن رواقص . ويجعل فى وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود، مملوء بماء الجُلَّاب محلولا بالماء، يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدىّ أو غريب . وكل من يشرب منه يعطى التَّانَبُول والفَوْفَل . ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير، يطؤه مركب السلطان . وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير . ويمشى أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف . وتكون الأفواج والعساكر خلفه . ورأيته فى بعض قَدَماته على الحضرة، وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرَّعَّادات الصغار على الفيلة، ترمى بالدنانير والدراهم على الناس، فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى يصل إلى قصره .

(١) المزركش الحرير المنسوج بالذهب، لأنه مركب من (زر) أى ذهب، ومن (كش) ومعناها ذو . ولم نعثر عليها فى المعجمات المتداولة .

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صنفين : الطعام الخاص والطعام العام . فأما الخاص فهو طعام السلطان الذى يأكل منه . وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين . ويحضر لذلك الأمراء الخواص و (أمير حاجب) ابن عم السلطان ، وعماد الملك سَرْتيز ، و (أمير مجلس). ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعزة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معه . وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين فأخذ إحدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ، وأعطاه إياها ، فيأخذها المعطَى ويجعلها على كفه اليسرى ، ويخدُم بيده اليمنى إلى الأرض . وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس ، فيخدم كما يصنع الحاضر ، ويأكله مع من حضره . وقد حضرت مرات هذا الطعام الخاص ، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا .

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ ، وأمامه النقباء يصيحون : باسم الله ، ونقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ، ونائبه معه بيده عمود فضة . فإذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من (بالمشور) أصواتهم ، قاموا قياما جميعا . ولا يبقى أحد قاعد إلا السلطان وحده . فإذا وضع الطعام بالأرض اصطفت النقباء صفا ، ووقف أميرهم أمامهم ، وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه ، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ، ويخدم جميع من (بالمشور) من كبير وصغير . وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف إن كان

ماشيا ، ولزم موقفه إن كان واقفا . ولا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام . ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ، ويخدم و يخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية . وحينئذ يجلسون . و يكتب كتاب الباب معرِّفين بحضور الطعام ، و إن كان السلطان قد علم بحضوره . و يحمل المكتوب صبيّ من أبناء الملوك موكّل بذلك ، فيأتى به إلى السلطان . فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب النـاس و إطعامهم .

وطعامهم الرُّقاق والشِواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاج والسمك . وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم . وعادتهم أن يكون فى صدْرِ سِماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ، ثم أقارب السلطان ، ثم الأمراء الكبار ، ثم سائر الناس . ولا يقعد أحد إلا فى موضع معين له ، فلا يكون بينهم تزاحم البتة . فإذا جلسوا أتى (الشُّرْبدارِيّة) ، وهم السقاة و بأيديهم أوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج ، مملوءة بالنبات المحلول بالماء ، فيشربون ذلك قبل الطعام . فإذا شربوا قال الحجاب : باسم الله . ثم يشرعون فى الأكل ، ويجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوى عليه السماط ، يأكل منه وحده . ولا يأكل أحد مع أحد فى صحفة واحدة . فإذا فرغوا من الأكل أتُوا بالفُقّاع فى أكواز القَصْدِير . فإذا أخذوه ، قال الحجاب : باسم الله . ثم يؤتى بأطباق التَّانبُول والفَوْفَل فيعطى كل إنسان غَرْفة من الفوفل المهشوم ، وخمس عشرة ورقة من التَانبُول ، مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر . فإذا أخذ النـاس التانبول قال الحجاب : باسم الله ، فيقومون جميعا . ويخدم الأمير المعين للإطعام ، ويخدمون لخدمته ، ثم ينصرفون . وطعامهم مرتان فى اليوم ، إحداهما قبل الظهر ، والأخرى بعد العصر .

ذكر بعض أخباره فى الجود والكرم

وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته . ويعلم الله تعالى صدق ما أقول. وكفى به شهيدا، مع أن الذى أحكيه مستفيض متواتر، والبلاد التى تقرب من أرض الهند كاليمن وخُراسان وفارس ، مملوءة بأخباره ، يعلمونها حقيقة، ولا سيما جوده على الغرباء ، فإنه يفضّلهم على أهل الهند ، ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ، ويُسْبغ عليهم الإنعام ، ويولّيهم الخطط الرفيعة ، ويُولِيهم المواهب العظيمة . ومن إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة ، ومنع من أن يُدْعَوا الغرباء . وقال : إن الإنسان إذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغيرت حاله . وسأذكر بعضا مما لا يحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه ، إن شاء الله تعالى .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبى العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة [1] على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة . فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه ، مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه بالغ فى إكرامه وأعطاه عطاء جَزْلا . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ، ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة . وفيما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها ، كل ذلك من الذهب الخالص . وقال له : إذا نزلت من البحر فأنعِل أفراسك بها . فتوجه إلى كِنْبَاية لِيركب البحر منها إلى بلاد اليمن ، فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين وأخذه

---

(١) يظهر أنه يريد أمر الولاية عليها — وليس هذا من معانى كلمة التقدمة .

مال ابن الكَوْلَمِيّ. فأخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ. وفر بنفسه مع ابن الكولمى إلى السلطان. فلما رآه السلطان قال له: اجمع خاطرك[١] فهأنا سائر إلى المخالفين، وأعطيك أضعاف ما أخذوه. وبلغنى بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وَفَى له بما وعده، وأخلف له جميع ما ضاع منه، وأنه وصل بذلك إلى ديار مصر.

ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان، وأقام تحت إحسانه مدّة عام، ثم أحب الرجوع إلى وطنه فأذِن له فى ذلك. ولم يكن سمع كلامه ووعظه. فلما خرج السلطان يقصد بلاد المَعْبَر، أحب سماعه قبل انصرافه، فأمر أن يهيأ له منبر من الصَّنْدَل الأبيض، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب، وأُلصق بأعلاه حجر ياقوتٍ عظيم، وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء، مذهبة مرصعة بالجوهر، وعمامة مثلها. ونصب له المنبر بداخل السَّرَّاجة[٢]. وقعد السلطان على سريره، والخواص عن يمينه ويساره. وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم. فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكّر. فلما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل. وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه، وكنت فى جملتهم، إلى سراجة ضربت له مُقابِلة سراجة السلطان، جميعها

---

(١) يظهر أنه يريد: هوّن الأمر على نفسك.

(٢) شىء يشبه الفسطاط فيما يظهر. ولكن السراجة بهذا المعنى غير عربية فيما نعلم.

من الحرير الملون، وصيوانها(١) من الحرير، وخباؤها أيضا كذلك . فجلس وجلسنا معه . وكان بجانب من السراجة أوانى الذهب التى أعطاه السلطان إياها : وذلك تَنُّور كبير بحيث يسع فى جوفه الرجل القاعد، وقِدْران اثنتان، وصِحاف لا أذكر عددها، وجملة أكواز، ورَكْوَة(٢) ، ومائدة لها أربع أرجل، ومَحْمِل للكتب. كل ذلك من ذهب خالص . ورفع عماد الدين السِمْنانى(٣) وتَدَين من أوتاد السراجة ، أحدهما نحاس والآخر مُقَصْدَر، يوهم بذلك أنهما من ذهب وفضة . ولم يكونا إلا كما ذكرنا . وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ، ومِئين من العبيد ، سرح بعضهم وحمل بعضهم .

ذكر عطائه لعبد العزيز الأَرْدُوِيلى

وكان عبد العزيز هذا فقيها مُحَدِّثا ، قرأ بدمشق على تقى الدين بن تَيْمِية، وبرهان الدين بن البَرْكَح، وجمال الدين المِزِّى، وشمس الدين الذهبى وغيرهم . ثم قَدِم على السلطان فأحسن إليه وأكرمه . واتفق يوما أنه سرد عليه أحاديث فى فضل العباس وابنه رضى الله عنهما ، وشيئا من مآثر الخلفاء أولادِهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه لبنى العباس ، وقَبَّل قدمى الفقيه ، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها أَلْفا تنكة(٤) ، فصبها عليه بيده وقال : هى لك مع الصينية . وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

(١) لم نجد هذه الكلمة فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

(٢) وعاء الماء .

(٣) نسبة إلى سِمْنان ، بلدة بين الرى ودامغان ا ه ياقوت .

(٤) راجع قيمة التنكة فى ص ٤١

ذكر عطائه لشمس الدين الأنْدُكانى[1]

وكان الفقيه شمس الدين الاندكانى حكيما شاعرا مطبوعا . فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسيّ ، عدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا ، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم . وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم ، وهو عشر عطاء السلطان .

ذكر عطائه لعَضُدِ الدين الشَوَنْكَارى

وكان عضد الدين فقيها إماما فاضلا كبير القدر ، عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده . فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره ، فبعث إليه إلى بلده شَوَنْكَارة عشرة آلاف دينار دراهم . ولم يره قط ولا وفد عليه .

ذكر عطائه للقاضى مجد الدين

ولما بلغه أيضا خبر القاضى العالم الصالح ذى الكرامة الشهيرة، مجد الدين قاضى شِيراز ، الذى سطرنا أخباره فى السِفْر الأول ، وسيمر بعض خبره بعد هذا أيضا ، بعث إليه إلى مدينة شِيراز ، مع الشيخ زاده الدِمشقى ، عشرة آلاف دينار دراهم .

---

(١) (نسبة إلى أندُكان) من قرى فرغانه ا هـ ياقوت .

ذكر عطائه لبرهان الدين الصَاغَرْجى (١)

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة كثير الإيثار ، باذلا لما يملكه ، حتى إنه كثيرا ما يأخذ الديون ، ويؤثر على الناس(٢) . فبلغ خبره السلطان فبعث إليه أربعين ألف دينار ، وطلب منه أن يصل إلى حضرته فقبل الدنانير ، وقضى دينه منها ، وتوجه إلى بلاد الخَطّا(٣) وأبى أن يصل إليه . وقال : لا أمضى إلى سلطان يقف العلماء بين يديه .

ذكر عطائه لحاجى كاوْن وحكايته

وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق . وكان أخوه موسى ملكا ببعض بلاد العراق . فوفد حاجى كاون على السلطان ، فأكرم مثواه ، وأعطاه العطاء الجـَزْل. ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجة جِهان بهديته ، وكان منها ثلاث صينيات ، إحداها مملوءة يواقيت ، والأخرى مملوءة زُمُرُّدا ، والاخرى مملوءة جواهر . وكان حاجى كاون حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا . ثم إنه أعطاه أيضا مالا عريضا . ومضى يريد العراق ، فوجد أخاه قد توفى ، وولى مكانه سليمان خان . فطلب إرث أخيه وادعى الملك . وبايعه العساكر وقصد بلاد فارس ، ونزل بمدينة شَوَنْكارة التى بها الإمام عَضُد الدين الذى تقدم ذكره آنفا . فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج إليه ساعة ثم خرجوا . فقال لهم : ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا؟ فاعتذروا له فلم يقبل منهم. وقال لأهل سلاحه : جردوا السيوف . فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة . فسمع من يجاور

---

(١) نسبة الى صاغَرْج بالغين المعجمة المفتوحة والراء الساكنة والجيم ، قرية كبيرة من قرى الصُغْد . ياقوت .

(٢) يريد أنه يتحمل عن الناس ديونهم — وقوله (ويؤثر على الناس) غير مفهوم .

(٣) موضع فى شمال الصين .

هذه المدينة من الأمراء بما فعله ، فغضبوا لذلك وكتبوا إلى شمس الدين السِمْنانى ، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار ، فأعلموه بما جرى على أهل شَوَنْكارة ، وطلبوا منه الإعانه على قتاله ، فتجرد فى عساكره ، واجتمع أهل البلاد طالبين ثأر من قتله حاجى كاون من المشايخ . وضربوا على عسكره ليلا فهزموه . وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به . فاختفى فى بيت الطهارة . فعثروا عليه وقطعوا رأسه ، وبعثوا به إلى سليمان خان ، وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيا منه .

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره

وكان الأمير غِياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى البغدادىّ ، قد وفد على السلطان علاء الدين طَرْمَشيرين ملك ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قُثَم ابنِ العباس رضى الله عنهما . واستوطنها أعواما . ثم لما سمع بمحبة السلطان فى بنى العباس وقيامه بدعوتهم ، أحب القدوم عليه ، وبعث له برسولين ، أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبى الشَّرَفى الحَرْباوىّ ، والثانى محمد الهَمَدَانىّ (١) الصوفى ، فتقدما على السلطان. وكان ناصر الدين التِرْمِذىّ الذى تقدم ذكره قد لقِىَ غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبة . فشهد هو عند السلطان بذلك . فلما وصل رسولاه إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ، ليتزود بها إليه ، وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ، ويسأله القدوم عليه . فلما وصله الكتاب رحل إليه . فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه ، بعث السلطان من يستقبله على العادة .

---

(١) قد يكون بسكون الميم نسبة إلى هَمْدان ، قبيلة باليمن ، وقد يكون بفتح الميم نسبة إلى هَمَدان التى هى هَمَذَان ، لأن إعجام ذالها تعريب ، كما فى شرح الشفاء للخفاجى .

ثم لما وصل الى سَرْسَتى ، بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغَزْنَوى ، وجماعة من الفقهاء . ثم بعث الأمراء لاستقباله . فلما نزل بمسعود أباد خارج الحضرة ، خرج السلطان بنفسه لاستقباله . فلما التقيا ترجّل غياث الدين ، فترجل له السلطان ، وخدم فخدم له السلطان ، وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب ، فأخذ السلطان أحد الأثواب وجعله على كتفه ، وخدم كما يفعل الناس معه . ثم قُدِّمت الخيل ، فأخذ السلطان أحدها بيده وقدّمه له ، وحلف أن يركب وأمسك بركابه حتى ركب . ثم ركب السلطان وسايره (والشطر) يظلهما معا . وأخذ التَّانبُول بيده وأعطاه إياه. وهذا أعظم ما أكرمه به، فإنه لا يفعله مع أحد. وقال له : لو لا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك . فقال له غياث الدين : وأنا أيضا على تلك البَيْعة . وقال له غياث الدين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : من أحيا أرضا مَوَاتا فهى له . وأنت أحييتنا . فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبرّه . ولما وصلا إلى (السرّاجة) المعدة لنزول السلطان ، أنزله فيها وضُرِب للسلطان غيرها . وبات تلك الليلة بخارج الحضرة . فلما كان بالغد دخل إلى دار الملك ، وأنزله بالمدينة المعروفة بِسيرى ، وبدار الخلافة أيضا فى القصر الذى بناه علاء الدين الخَلْجى وابنه قطب الدين. وأمر السلطان جميع الأمراء أن يمضوا معه إليه. وأعدّ له فيه جميع ما يحتاج إليه من أوانى الذهب والفضة ، حتى كان من جملتها مُغْتَسل يغتسل فيه من ذهب . وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه (١) على العادة . وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجوارى . وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلثمائة دينار. وبعث له زيادة عليها عددا من الموائد بالطعام الخاص . وأعطاه جميع مدينة سِيرِى إقطاعا ، وجميع ما احتوت

(١) سبق تفسير هذا .

عليه من الدور ، وما يتصل بها من بساتين المخزن [1] وأرضه . وأعطاه مائة قرية . وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة إلى دِهْلى . وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون علفها من المخزن. وأمره ألا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا فى موضع خاص ، لا يدخله أحد راكبا سوى السلطان . وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدُموا له ، كما يخدمون للسلطان . وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره . وإن كان على الكرسى قام قائما ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه . ويجلس مع السلطان على بساط واحد . وإذا قام قام السلطان لقيامه ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه . وإذا انصرف إلى خارج المجلس جُعِل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف . يفعل هذا مرتين فى اليوم .

حكاية من تعظيمه إياه

وفى أثناء مُقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بَنْجالَة ، فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا إلى استقباله ، ثم خرج بنفسه إلى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا ، وصنعت القِباب بالمدينة كما تصنع للسلطان إذا قدم . وخرج ابن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والأعيان . فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير : امض إلى دار المخدوم زاده . وبذلك يدعوه . ومعنى ذلك : ابن المخدوم . فسار الوزير إليه ، وأهدى له ألفى تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة . وحضر الأمير قَبُولة وغيره من كبار الأمراء . وحضرت أنا كذلك .

حكاية نحوها

وفد على السلطان ملك غَزْنَة المسمى بِبَهْرام ، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة . فأمر السلطان بإنزاله ببعض دور مدينة سيرى التى لابن الخليفة ،

(1) يريد به بيت مال الدولة كما تقدم .

وأمر أن يبنى له بها دار . فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ، ومضى إلى دار السلطان فجلس على البساط الذى عادته الجلوس عليه ، وبعث إلى الوزير فقال له : سلم على خَوَنْد عَالَم ، وقل له : إن جميع ما أعطانيه هو بمنزلى لم أتصرف فى شىء منه ، بل زاد عندى ونما ، وأنا لا أقيم معكم . وقام وانصرف . فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا ، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غَزْنَة فى مدينة سِيرِى . فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك . فركب من حينه فى عشرة من ناسه ، وأتى منزل ابن الخليفة ، فاستأذن ونزل عن فرسه خارج القصر ، حيث ينزل الناس ، فتلقاه واعتذر له ، فقبِل عذره. وقال له السلطان : والله ما أعلم أنك راض عنى حتى تضع قدمك على عنقى . فقال له : هذا ما لا أفعله ولو قُتلت . فقال له السلطان : وحق رأسى لا بد لك من ذلك . ثم وضع رأسه فى الأرض ، وأخذ الملك الكبير قَبُولة رِجل ابن الخليفة بيده ، فوضعها على عنق السلطان . ثم قام وقال : الآن علمت أنك راض عنى ، وطاب قلبى . وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك .

ولقد حضرته يوم عيد ، وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خِلَع من عند السلطان ، وقد جُعل مكان عُقَد الحرير التى تعلق بها حباتُ جوهر على قدر البندق الكبير . وقام الملك الكبير ببابه حتى نزل من قصره فكساه إياها . وقد أعطاه ما لا يحصره العد ولا يحيط به الحد . وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى . وله فى البخل أخبار عجيبة . يعجب منها سامعها . وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم . ولنذكر بعض أخباره فى ذلك .

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت بيني و بينه مودّة . وكنت كثير التردد إلى منزله . وعنده تركت ولدا لى سميته أحمد ، لما سافرت . ولا أدرى ما فعل الله بهما . فقلت له يوما : لِم تأكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام ؟ فقال لى : لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامى . فكان يأكل وحده ، ويعطى صاحبه محمد بن أبى الشَّرَفى من الطعام ليعطى منه مَنْ أحب ، ويتصرف فى باقيه . وكنت أتردد إليه فأرى دِهليز قصره الذى يسكن به مظلما لا سراج به . ورأيته مرارا يجمع الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه ، وقد ملأ منها مخازن ، فكلمته فى ذلك . فقال لى : يُحْتاج إليها . وكان يُخَدِّم أصحابه ومماليكه وفتيانه فى خدمة البستان وبنائه . ويقول : لا أرضى أن يأكلوا طعامى وهم لا يخدُمون . وكان علىّ مرة دين فطولبتُ به ، فقال لى فى بعض الأيام : والله لقد هممت أن أؤدىَ عنك دينك ، فلم تسمح نفسى بذلك ولا ساعدتنى عليه .

حكاية

حدثنى مرة قال : خرجت عن بغـداد وأنا رابع أربعة ، أحدهم محمد ابن أبى الشَّرَفى صاحبى ، ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا ، فنزلنا على عين ماء ببعض القرى ، فوجد أحدنا فى العين درهما ، فقلنا : وما نصنع بدرهم ؟ فاتفقنا على أن نشترى به خبزا ، فبعثنا أحدنا لشرائه ، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده . وإنما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط ، فاشترى منه

الخبز والتبن . فطرحنا التبن إذ لا دابة تأكله . وقسمنا الخبز لقمة لقمة . وقد انتهى حالى اليوم إلى ما تراه . فقلت له : ينبغى لك أن تحمد الله على ما أولاك ، وتُؤْثر الفقراء والمساكين بالتصدق . فقال : لا أستطيع ذلك . ولم أره قط يجود بشىء ، ولا يفعل معروفا . ونعوذ بالله من الشُح .

حكاية

كنت يوما ببغداد بعد عودتى من بلاد الهند، وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية ، التى بناها جدّه أمير المؤمنين المستنصر رضى الله عنه . فرأيت شابا ضعيف الحال، يشتد خلف رجل خارج من المدرسة. فقال لى الطلبة : هذا الشاب الذى تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذى ببلاد الهند . فدعوته فقلت له : إنى قدمت من بلاد الهند ، وإنى أعرفك خبر أبيك فقال : قد جاءنى خبره فى هذه الأيام . ومضى يشتد خلف الرجل . فسألت عن الرجل ، فقيل لى : هو الناظر فى الحُبْس[1] وهذا الشاب هو إمام ببعض المساجد ، وله على ذلك أجرة درهم واحد فى اليوم . وهو يطلب أجرته من الرجل . فطال عجبى منه . والله لو بعث إليه جوهرة من الجواهر التى فى الخلَع الواصلة إليه من السلطان ، لأغناه بها . ونعوذ بالله من مثل هذه الحال .

---

(١) الحبس بوزن القُفْل ما وقُف . مختار .

ذكر ما أعطاه السلطان الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مُهَنَّا أمير عرب الشام

ولما قدم هذا الأمير على السلطان أكرم مثواه ، وأنزله بقصر السلطان جلال الدين فى داخل مدينة دِهْلى ، ويعرف بكُشْك ، لعل معناه القصر الأحمر. وهو قصر عظيم فيه (مشور) كبير جدا ، ودِهليز هائل ، على بابه قبة تشرف على هذا (المشور) ، وعلى (المشور) الثانى الذى يدخل منه إلى القصر . وكان السلطان جلال الدين يقعد بها ، وتلعب الكرة بين يديه فى هذا (المشور) . وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به ، فرأيته مملوءا أثاثا وفرشا وبُسُطا وغيرها ، وذلك كله متمزق لا مُنْتَفَع فيه . فإن عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه ، لا يتعرضون له . ويبنى المتولّى بعده قصرا لنفسه . ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلاه . فكانت لى فيه عِبرة نشأت عنها عَبْرة. وكان معى الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربى ، الغَرْناطى الأصل ، البِجَائى[1] المولد ، مستوطن بلاد الهند ، قدمها مع أبيه وله بها أولاد .

وبهذا القصر كانت وليمة عُرْسه[2] ، كما نذكره . وكان السلطان شديد المحبة للعرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم . فلما وصله هذا الأمير أجزل له العطاء ، وأحسن إليه إحسانا عظيما ، وأعطاه مرة وقد قدِمتْ عليه هدية

---

(١) نسبة إلى بجاية ، مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب . ياقوت .

(٢) أى عرس الأمير سيف الدين .

(أعظم ملك) البايزيدى من بلاد مانِكْبُور ؛ أحد عشر فرسا من عِتاق الخيل . وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة ، عليها الجُمُـم المذهبة . ثم زوجه بعد ذلك بأخته فَيْرُوز خَوَنْدَة .

ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان

ولما أمر السلطان بترويج أخته للأمير غدا ؛ عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله ، المعروف بشَوْنَوِيس . وعيننى لملازمة الأمير غدا فى تلك الأيام . فأتى الملك فتح الله (بالصيوانات) فظلل بها (المشورين) بالقصر الأحمر المذكور . وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جدا . وفرش ذلك بالفُرُش الحسان . وأتى شمس الدين التَبْريزى أمير المطربين ، ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص . وكلهن مملوكات السلطان. وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحُلْوَانيين[1] والشُرْبدارية والتَّانَبُول داران[2]. وذبحت الأنعام والطيور. وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما. ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلا ونهارا . فلما كان قبل ليلة الزِفاف بليلتين، جاءت الخواتين من دار السلطان ليلا إلى هذا القصر ، فزَيَّنَّه وفرشنه بأحسن الفرش . واستحضِر الأمير سيف الدين ، وكان عربيا غريبا لا قرابة له ، فحَفَفْنَ به ؛ وأجلسنه على مرتبة معينة له . وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته ، وأخرى مقام خالته ، حتى يكون كأنه بين أهله .

(١) نسبة إلى الحُلوان ؛ من مصادر (حَلَا) .

(٢) من يعدون التانبول — بلغة الهند .

ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحِنَّاء فى يديه ورجليه . وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن. وانصرفن إلى قصر الزفاف . وأقام هو مع خواص أصحابه. وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته، وجماعة يكونون من جهة الزوجة . وعادتهم أن تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جَلْوَتُها على زوجها. ويأتى الزوج بجماعته، فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة ، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم . ولما كان بعد المغرب أُتِى إليه بخِلْعة حرير زرقاء ، مزركشة مرصعة ، قد غلبت الجواهر عليها : فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر ، وبشاشيّة[1] مثل ذلك . ولم أر قط خِلعة أجمل من هذه الخلعة . وقد رأيت ماخلعه السلطان على سائر أصهاره ، مثل ملك الملوك عماد الدين السِمْنانى ، وابن ملك العلماء ، وابن شيخ الإسلام ، وابن صدر جِهان البخارىّ ، فلم يكن فيها مثل هذه .

ثم ركب الأمير سيف الدين فى أصحابه وعبيده وفى يد كل واحد منهم عصا قد أعدّها ، وصنعوا شبه إكليل من الياسَمين والنِّسرين ، وله رَفْرَف يغطى وجه المتكلل به وصدره ، وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه ، فأبى ذلك . وكان من عرب البادية لاعهد له بأمور الملك والحضر . فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه. وأتى باب الصرف[2] ، ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة ، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية ، وصرعوا كل من عارضهم فغلبوهم . ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله . ودخل إلى (المشور) ، وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجوهر ، و(المشور) ملآن بالنساء والمطربات ، وقد أحضرن أنواع الآلات المطربة ، وكلهن واقفات على قدم إجلالا له وتعظيما . فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل وخَدَم عند أول درجة منه . وقامت العروس قائمة حتى صعِد فأعطته التَّانَبُول بيدها ، فأخذه وجلس

(١) سبق شرحها فى الحواشى . (٢) لعلهم يريدون به باب الانصراف .

تحت الدرجة التي وقفت بها : ونثرت دنانير الذهب على رءوس الحاضرين من أصحابه . ولقطتها النساء ، والمغنيات يغنين حينئذ ، والأطـبال والأبواق (والأنقار) تضرب فى خارج الباب .

ثم قام الأمـير وأخذ بيد زوجته ونزل وهى تتبعه ، فركب فرسه يطأ به الفُرُش والبُسُط ، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه . وجعلت العروس فى مِحفَّة ، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره ، والخواتين بين يديها راكبات ، وغيرهن من النساء ماشيات . و إذا مروا بدار أمير أو كبير، خرج إليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته ، حتى أوصلوها إلى قصره . ولمـا كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم. وأعطى السلطان كل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما ، وبِدْرة دراهم من ألف دينار إلى مائتى دينار . وأعطى الملكُ فتح الله الخواتين ثياب الحرير المنوَّعة والبِدَر ، وكذلك أهل الطرب . وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطى أحد أهل الطرب شيئا ، و إنما يعطيهم صاحب العُرْس . وأُطعِم الناس جميعا ذلك اليوم . وانقضى العرس . وأمر السلطان أن يُعطى الأميرُ غدا بلاد المالُوَة والجُزُرَات وكِنْبايَة ونَهْرُوالة . وجُعل فتح الله نائبا عنه عليها . وعظمه تعظيما شـــديدا . وكان عربيا جافيا فلم يقدِر قَدْر ذلك . وغلب عليه جفاء البادية . فأداه ذلك إلى النكبة، بعد عشرين ليلة من زفافه .

ذكر سجن الأمير غدا

ولمـا كان بعد عشرين يوما من زفافه ، اتفق أنه وصل إلى دار السلطان ، فأراد الدخول ، فمنعه أمير (البرد داريّة) ، وهم الخواص من البوابين ، فلم يسمع منه ، وأراد الاقتحام ، فأمسك البواب بضفيرته و ردّه ، فضربه الأمير بعصا كانت هنالك حتى أدماه . وكان هذا المضروب من كبار الأمراء ،

يعرف أبوه بقاضي غَزْنة ، وهو من ذرية السلطان محمود بن سُبُكْتُكين . والسلطان يخاطبه بالأب ، ويخاطب ابنه هذا بالأخ . فدخل على السلطان والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الأمير غَدَا . ففكر السلطان هُنَيهة . ثم قال له : القاضي يفصل بينكما. وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه ، ولابد من الموت عليها ، وإنما أحتملها لغربته . وكان القاضي كمال الدين (بالمشور) . فأمر السلطان الملك تَتَر أن يقف معهما عند القاضي. وكان تترحاجا مجاورا ، يحسن العربية . فحضر معهما ، وقال للأمير : أنت ضربته ؟ أو قل: لا . لقصد أن يعلمه(١) الحجة . وكان سيف الدين جاهلا مغترا ، فقال : نعم أنا ضربته . وأتى والد المضروب فرام الإصلاح بينهما ، فلم يقبل سيف الدين . فأمر القاضي بسجنه تلك الليلة . فو الله مابعثت له زوجته فراشا ينام عليه ولا سألت عنه ، خوفا من السلطان .

وأردت زيارته بالسجن ، فلقيني بعض الأمراء ، وفهم عني أني أريد زيارته ، فقال لي أوَ نسيت ؟ وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام ، وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك على ماذكره ، فرجعت ولم أزره . وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه ، فأظهر السلطان إهماله ، وأضرب عما كان أمر له بولايته ، وأراد نفيه . وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث ابن ملك الملوك . وكانت أخت السلطان تشكوه لأخيها إلى أن ماتت ، فذكرت جواريها أنها ماتت بسبب قهره لها . وكان في نسبه مَغْمَز . فكتب السلطان بخطه : يُجْلَى اللقيط ، يَعْنيه . ثم كتب : ويُجْلَى (موش خوار) ، ومعناه : آكل الفيران ، يعني بذلك الأمير غدا ، لأن عرب البادية يأكلون اليَرْبوع وهو شبه الفأر ، وأمر بإخراجهما . فجاءه النقباء ليخرجوه. فأراد دخول داره ووَداع أهله . فترادف النقباء في

(١) الضمير في يعلم راجع إلى تتر . أي أن تتر يقصد أن يعلم الأمير غدا الدفاع عن نفسه .

طلبه ، فخرج باكيا . وتوجهت حين ذلك إلى دار السلطان ، فبتّ بها . فسألنى عن مبيتى بعض الأمراء . فقلت له ، جئت لأتكلم فى الأمير سيف الدين، حتى يُرَدّ ولا ينفى ، فقال : لا يكون ذلك . فقلت له : والله لأبيتنّ بدار السلطان ولو بلغ مبيتى مائة ليـلة حتى يُرَدّ . فبلغ ذلك السلطان فأمر برده، وأمره أن يكون فى خدمة الأمير ملك قَبُولة اللاهُورِى . فأقام أربعة أعوام فى خدمته، يركب لركوبه ويسـافر لسفره ، حتى تأدب وتهذب . ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أولا . وأقطعه البلاد ، وقـدّمه على العساكر ، ورفع قدره .

ذكر ترويج السلطان بنتى وزيره من ابنى خُدَاوَنْدزاده قِوام الدين الذى قدم معنا عليه

ولمـا قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاء جَزْلا ، وأحسن إليه إحسانا عظيما ، وبالغ فى إكرامه . ثم زوج ولديه بنتى الوزير خَواجه جِهان . وكان الوزير إذ ذاك غائبا . فأتى السلطان إلى داره ليـلا ، وحضر عقد الزواج ، كأنه نائب عن الوزير ، ووقف حتى قرأ قاضى القضاة الصّداق ، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود . وأخذ السلطان بيده الأثواب والبِدَر ، فجعلها بين يدى القاضى وولدى خُدَاوَنْدزاده . وقام الأمراء وأَبَوْا أن يجعـل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه . فأمرهم بالجلوس ، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه وانصرف .

حكاية فى تواضع السلطان وإنصافه

ادّعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ، ودعاه إلى القاضى . فمضى على قدميه ولا سلاح معه ، إلى مجلس القاضى ، فسلَّم وخَدَم . وكان قد أمر القاضى قبل ذلك أنه إذا جاءه إلى مجلسه لا يقوم له ولا يتحرك. فصعد إلى المجلس ووقف بين يدى القاضى. فحكم عليه أن يرضى خصمه عن دم اخيه فأرضاه .

حكاية مثلها

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أنّ له قِبَلَه حقا ماليا ، فتخاصما فى ذلك عند القاضى ، فتوجه الحكم على السلطان بإعطاء المال فأعطاه .

حكاية مثلها

وادعى عليه صبىّ من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجِب ، ورفعه إلى القاضى. فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال إن قبل ذلك، وإلا أمكنه من القِصاص. فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه، واستحضر الصبي وأعطاه عصا، وقال له : وحق رأسى لَتَضْرِبَنِّى كما ضربتك ، فأخذ الصبى العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت (الكلا)[1] قد طارت عن رأسه .

(١) سبق أنها ضرب من القلانس .

ذكر اشتداده فى إقامة الصلاة

وكان السلطان شديدا فى إقامة الصلاة ، آمرا بملازمتها فى الجماعات ، يعاقِب على تركها أشد العقاب. ولقد قتل فى يوم واحد تسعة رجال على تركها ، وكان أحدهم مُغَنِّيا . وكان يبعث الرجال الموكَّلين بذلك إلى الأسواق ؛ فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب ، حتى انتهى إلى عقاب الستائريين[1] الذين يمسكون دواب الخدام على باب (المشور) ، إذا ضيعوا الصلاة . وأمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام . فكانوا يُسألون عن ذلك ، فمن لم يحسنه عوقب . وصار الناس يتدارسون ذلك (بالمشور) والأسواق ويكتبونه .

ذكر اشتداده فى إقامة أحكام الشرع

وكان شديدا فى إقامة الشرع . ومما فعل فى ذلك أن أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده (بالمشور) مع قاضى القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك ، مفروشة بالبُسُط ، وللقاضى بها مرتبة تَحُفّ بها المَخَادّ ، كمرتبة السلطان . ويقعد أخو السلطان عن يمينه . فمن كان عليه حق من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه ، يحضره رجال أخى السلطان عند القاضى لينصف منه .

(١) لا تعرف هذه التسمية فى العربية .

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين

ولما كان فى سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده، وألا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة. وصار يجلس بنفسه للنظر فى المظالم فى كل يوم اثنين وخميس، برَحَبَة أمام (المشور). ولا يقف بين يديه فى ذلك اليوم إلا (أمير حاجب) و (خاص حاجب) وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير. ولا يُمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه. وعين أربعة من كبار الأمراء يجلسون فى الأبواب الأربعة من (المشور)، لأخذ القِصَص من المشتكين. والرابع منهم ابن عمه (الملك فيروز). فإن أخذ صاحب الباب الرُّقْع من الشاكى فحسن، وإلا أخذه الثانى أو الثالث أو الرابع، وإن لم يأخذوه منه مضى به إلى صدر الجهان قاضى المماليك. فإن أخذه منه وإلا شكا إلى السلطان. فإن صح عنده أنه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه أدّبه. وكل ما يجتمع من القصص فى سائر الأيام يُطَالَع به السلطان بعد العِشاء الآخرة.

ذكر إطعامه فى الغلاء

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند، واشتد الغلاء حتى بلغ منّ[1] القمح ستة دنانير، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دِهْلى نفقة ستة أشهر من المخزن، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل إنسان

(١) المَنّ رطلان.

فى اليوم ، صغير أو كبير حر أو عبد . وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأَزِمّة[1] بأهل الحارات ، ويحضِرون الناس . ويُعْطى كُلُّ واحد عَوْلَةَ[2] ستة أشهر يقتات بها .

ذكر فتكات هذا السلطان وما نُقِمَ من أفعاله

وكان على ماقدّمنا من تواضعه ، وإنصافه ورِفْقِه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة ، كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتول إلا فى النادر. وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك . ولقد جئت يوما فنفر بى الفرس ، ونظرت إلى قطعة بيضاء فى الأرض ، فقلت ماهذه ؟ فقال بعض أصحابى : هى صدر رجل قطع ثلاث قطع . وكان يعاقِب على الصغيرة والكبيرة . ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف[3] . وفى كل يوم يرد على (المشور) من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مِئُون. فمن كان للقتل قتل ، أو للعذاب عذب ، أو للضرب ضرب . وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من فى سجنه من الناس إلى (المشور) ، ما عدا يوم الجمعة ، فإنهم لا يخرجون فيه . وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون . أعاذنا الله من البلاء .

ذكر قتله لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان ، وأمه بنت السلطان علاء الدين . وكان من أجمل من رأيت فى الدنيا . فاتهمه بالقيام عليه . وسأله عن ذلك فأقر

(١) جمع زمام — والمراد به إحصاء الناس .

(٢) اسم مرة من قولهم : عال عِيَاله عَوْلا ، كفاهم .

(٣) فى هذا القول منافاة لما سبق .

خوفا من العذاب، فإنه من أنكر مايدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب. فيرى النـاس أن القتل أهون عليهم من العذاب . فأمر به فضرِبت عنقه فى وسط السوق . وبقى مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم .

ذكر قتله لثلاثمـائة وخمسين رجلا فى ساعة واحدة

وكان مرة عَيَّن حِصَّة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بُغْرة إلى قتال الكفار، ببعض الجبال المتصلة بِحَوْز دِهْلِى . فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر، وتخلف قوم منهم . فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك، فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وُجِد من أولئك المتخلفين . فَفُعِل ذلك ، وقبض على ثلاثمـائة وخمسين منهم . فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا .

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراسانى الذى تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده ، على ما قصصنا ذلك ، من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء . وكان يواصل[1] أربعة عشر يوما . وكان السلطانان قطب الدين وتُغْلُق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به . فلما وَلِىَ السلطان محمد أراد أن يُخَدِّم الشيخ فى بعض خدمته ، فإن عادته أن يُخَدِّم الفقهاء والمشـايخ والصلحاء ، محتجا أن الصدر الأول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم

---

(١) يصومها متتابعة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الحواشى .

والصلاح . فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة . وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام ، فأظهر الإباء والامتناع ، فغضب السلطان من ذلك . وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السِّمْنانى أن يَنْتِف لحيته . فأبى ضياء الدين ذلك . وقال لا أفعل هذا . فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت . ونفى ضياء الدين إلى بلاد التِلِنْك . ثم ولاه بعد مدة قضاء وَرَنْكَل ، فمات بها . ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد ، فأقام بها سبعة أعوام ، ثم أرسل إليه فأكرمه وعظمه ، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ، ولم يكن أحد فى دار السلطان فوقه .

ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكِنْك ، وبنى هنالك القصر المعروف بِسَرْك دُوَار (معناه شبه الجنة) وأمر الناس بالبناء هنالك ، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له فى الإقامة بالحضرة ، فأذن له إلى أرض مَوَات على مسافة ستة أميال من دهلى ، فحفر بها كهفا كبيرا صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام . وجلب الماء من نهر (جُون) ، وعمر تلك الأرض ، وجمع مالا كثيرا من مُسْتَغَلِّها ، لأنها كانت سنين قاحطة . وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان . وكان عبيده يَخْدُمون تلك الأرض نهارا ويدخلون الغار ليلا ، ويسدُّونه على أنفسهم وأنعامهم خوف سُرَّاق الكفار ، لأنهم فى جبل منيع هنالك .

ولما عاد السلطان إلى حضرته ، استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها . فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه . وعاد إلى غاره . ثم أرسل إليه بعد أيام فامتنع من إتيانه ، فبعث إليه مُخْلِص الملك النَّذْر بارى ، وكان من كبراء الملوك ، فتلطف له بالقول ، وحذّره بطش السطان . فقال له : لا أخدم ظالما أبدا . فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك . فأمر أن يؤتى به ، فأتى به ، فقال له : أنت القائل : إنى ظالم؟ فقال : نعم أنت ظالم .

ومن ظلمك كذا وكذا ، وعدّد أمورا ، منها تخريبه لمدينة دِهْلِي وإخراجه أهلها . فأخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال : يثبت هذا أنى ظالم، وتقطع عنق بهذا السيف . فقال له شهاب الدين : ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ؟ ولكن أنت تعرف ظلم نفسك . وأمر بتسليمه للملك نُكْبِيَة رأس[1] الدويدارية ، فقيده بأربعة قيود ، وغَلَّ يديه . وأقام كذلك أربعة عشر يوما مُواصِلا ، لا يأكل ولا يشرب . وفى كل يوم منها يؤتى به إلى (المشور). ويجمع الفقهاء والمشايخ، ويقولون له : ارجع عن قولك، فيقول: لا أرجع عنه ، وأريد أن أكون فى زمرة الشهداء . فلما كان اليوم الرابع عشر، بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك ، فأبى أن يأكل . وقال : قد رفع رزقى من الأرض . ارجع بطعامك إليه . وفى اليوم بعده أُتِىَ به إلى دارالقاضى صدر الجهان، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة، فوعظوه، وطلبوا منه أن يرجع عن قوله ، فأبى ذلك . فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

ذكر قتله للفقيه المدرس عفيف الدين الكاسانى[2] وفقيهين معه

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار فى خارج دار الملك، وأن يزرع هنالك زرع . وأعطى الناس البَذْر وما يلزم الزراعة من النفقة. وكلفهم زرع ذلك للمخزن. فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين، فقال: هذا الزرع لايحصل المراد منه. فَوُشِىَ به إلى السلطان فسجنه. وقال له : لأى شىء تدخل نفسك فى أمور الملك ؟ ثم إنه سَرَّحه بعد مدة فذهب إلى داره . ولقيه فى طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء ، فقالا له : الحمد لله على خلاصك . فقال

(١) الناموس (السكرتير) .

(٢) نسبة إلى كاسان ، بلد بما وراء النهر . قاموس .

الفقيه : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان . فأمر بهم فأُحْضِر ثلاثتهم بين يديه . فقال : اذهبوا بهذا ، يعنى عفيف الدين ، فاضربوا عنقه حمائل[1] ، وهو أن يقطع الرأس مع الذراع و بعض الصدر . واضربوا عنق الآخرين . فقالا له : أما هو فيستحق العقاب بقوله ، وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا ؟ فقال لهما : إنكما سمعتما كلامه فلم تنكراه ، فكأنما وافقتما عليه ، فقتلوا جميعا ، رحمهم الله .

ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا فى خدمته

وأمر السلطان هذين الفقيهين السِنْديين أن يمضيا مع أمير عَيَّنه ، إلى بعض البلاد ، وقال لهما : إنما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ، و يكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به . فقالا له : إنما نكون كالشاهدين عليه ، ونبين له وجه الحق ليتبعه . فقال لهما : إنما قصدكما أن تأكلا أموالى وتضيعاها ، وتنسبا ذلك إلى هذا التركى الذى لا معرفة له . فقالا له : حاش لله ياخَوَنْدَ عالَمَ ، ماقصدنا هذا . فقال لهما : لم تقصدا غير هذا . اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النهاوَنْدى ، وهو الموكل بالعذاب . فَذُهِب بهما إليه . فقال لهما : السلطان يريد قتلكما ، فأقرا بما تقصدان ولا تعذبا أنفسكما . فقالا : والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا . فقال لزبانيته : ذوقوهما بعض شيء ، يعنى من العذاب . فَبُطِحا على أقفائهما ، و جُعِل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة . ثم قلعت بعد هنيهة ، فذهبت بلحم صدريهما ، فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان ، وأنهما مجرمان مستحقان للقتل ، فلا حق لهما ،

(١) تعبير اصطلاحى لهم .

ولا دعوى فى دمائهما دنيـا ولا أخرى . وكتبا خطهما بذلك ، واعترفا به عنـد القاضى . فسجل على العقد . وكتب فيـه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار . ولو قالا أُكْرِهنا لعذبا أشد العذاب . فرأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم . فقتلا ، رحمهما الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده المسمى بهُود ، حفيد الشيخ الصـالح الولى ركن الدين ابن بهاء الدين بن أبى زكرياء المُلْتانى ، وجدّه الشيخ ركن الدين ، معظما عند السلطان . وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيها بالسلطان ، وقتل يوم وقيعة كَشْلُوخان ، وسنذكره . ولـا قتل عماد الدين أعطى السلطان أخاه ركن الدين مائة قرية ليأكل منهـا ويطعم الصادر والوارد بزاويته . فتوفى الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود . ونازعه فى ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين ، وقال : أنا أحق بميراث عمى . فقدما على السلطان وهو بدولة آباد ، و بينها و بين مُلْتان ثمانون يوما . فأعطى السلطان هودا الشُّيوخة على ما أوصى له الشيخ . وكان كهلا . وكان ابن أخى الشيخ فتى . وأكرمه السلطان وأمر بتضييفه فى كل منزل يحله ، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان ، وتصنع له فيه دعوة . فلما وصل الأمر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه . وكنت فيمن خرج إليه فتلقيناه ، وهو راكب دولة[1] يحملها الرجال ، وخيله مَجْنُوبة[2] . فسلمنا عليه . وأنكرت أنا ما كان من فعله فى ركوبه الدولة . وقلت : إنما

---

(١) يظهر أنها شىء كالمحفة — ولم نجد هذا المعنى لهـا فى كتب اللغة .

(٢) فسرنا معنى هذه الكلمة فى موضع آخر من الحواشى .

كان ينبغى له أن يركب الفرس و يساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ . فبلغه كلامى فركب الفرس . واعتذر بأن فعله أولا كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس . ودخل الحضرة ، وصُنِعت له بهـا دعوة أنفق فيها من مال السلطان كثير . وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة . ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة . ثم أعطيت الدراهم، فأخذ كلٌّ على قدر استحقاقه . فأُعطِى قاضى القضاة خمسمائة دينار ، وأُعطِيتُ أنا مائتين وخمسين دينارا . وهذه عادة لهم فى الدعوة السلطانية .

ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشِيرازى ، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ، و يصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك. واستقر بزاويته وأقام بها أعواما. ثم إن عِماد المُلْك أمير بلاد السند، كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وأقاربه يشتغلون بجمع الأموال و إنفاقها فى الشهوات ، ولا يطعمون أحدا بالزاوية . فَنَفَذ الأمر بمطالبتهم بالأموال ، فطالبهم عماد الملك بهـا ، وسجن بعضهم وضرب بعضا . وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام ، حتى استخلص ما كان عندهم . ووُجِد لهم كثير من الأموال والذخائر، فمن جملتها نعلان مرصعتان بالجوهر والياقوت ، بيعتا بسبعة آلاف دينار . قيل إنهما كانتا لبنت الشيخ هود . وقيل لسُرِّيّة له . فلمـا اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبِض عليـه . وكتب عمـاد الملك بذلك إلى السلطان ، فأمره أن يبعثه ويبعث الذى قبض عليـه . فلمـا وصلا إليه سرَّح الذى قبض عليـه . وقال للشيخ هود : أين أردت أن تفر ؟ فاعتذر بعذر . فقال له السلطان : إنمـا أردت أن تذهب إلى الأتراك فتقول : أنا ابن الشيخ بهـاء الدين زكريا ، وقد فعل السلطان معى كذا ، وتأتى بهم لقتالنا . اضربوا عنقه ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمس الدين بن تاج العارفين ساكنا بمدينة كُول، منقطعا للعبادة، كبير القدر. ودخل السلطان مدينة كُول، فأرسل إليه فلم يأته، فذهب السلطان إليه، ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره. واتفق بعد ذلك أن أميرا من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات، وبايعه الناس. فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين فأثنى عليه، وقال إنه يصلح للملك. فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ، فقيده وقيد أولاده وقيد قاضي كُول ومحتسبها، لأنه ذكر أنهما كانا حاضرين للمجلس الذى أثنى فيه الشيخ على الأمير المخالف، وأمر بهم فسُجنوا جميعا، بعد أن سَمَل عيني القاضي وعيني المحتسب. ومات الشيخ بالسجن. وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس، ثم يُرَدَّان إلى السجن. وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعُصاتهم ويصحبونهم. فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن، وقال لهم: لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون. فقالوا له: وما فعلنا؟ فاغتاظ من ذلك، وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا. ثم استحضر القاضي، فقال: أخبرني بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قُتِلوا، ويفعل مِثل أفعالهم، فأملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد. فلما عرض ما أملاه على السلطان، قال: هذا يحب أن يَخْرَب البلد، اضربوا عنقه. فضربت عنقه، رحمه الله تعالى.

ذكر قتله للشيخ الحَيْدرىّ

وكان الشيخ على الحيدرىّ ساكنا بمدينة كِنْبايَة ، من ساحل الهند . وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة . وإذا قدِموا بدءوا بالسلام عليه . وكان يكاشَف(١) بأحوالهم . وربما نذر أحدهم النذر وندِم عليه ، فإذا أتى الشيخَ للسلام عليه ، أعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به . واتفق له ذلك مرات واشتهر به(٢) . فلما خالف القاضى جلال الأفغانىّ وقبيلته بتلك الجهات ، بلغ السلطانَ أن الشيخ الحيدرى دعا للقاضى جلالِ الدين وأعطاه (شاشيَّته) من رأسه ، وذكر أيضا أنه بايعه . فلما خرج السلطان إليهم بنفسه وانهزم القاضى جلال ، خلَّف السلطان شَرَفَ المُلك (أمير بَخْت) ، أحد الوافدين معنا عليه ، بكِنْباية ، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف ، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم . فأُحْضِر الشيخ على الحيدرىّ بين يديه ، وثبت أنه أعطى القائم شاشيته ودعا له . فحكموا بقتله . فلما ضربه السّياف لم يفعل شيئا . وعجب الناس لذلك ، وظنوا أنه يُعْفَى عنه بسبب ذلك . فأمر سيّافا آخر بضرب عنقه فضربها . رحمه الله تعالى .

ذكر قتله لطُوغان وأخيه

وكان طُوغان الفَرْغانى وأخوه من كبار أهل مدينة فَرْغانة . فوفدا على السلطان فأحسن إليهما وأعطاهما عطاء جزيلا . وأقاما عنده مدة . فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما وحاولا الفرار . فوشى بهما أحد

---

(١) يريد أنه يكشف له عن أحوالهم كشف غيب . ولكن الله تعالى لا يطلع من عباده على بعض المغيَّبات إلا من اختصه بذلك من رسله وأنبيائه الكرام .

(٢) مبالغة من القُصّاص .

أصحابهما إلى السلطان ، فأمر بتوسيطهما فوُسِّطا . وأعطى الذى وشى بهما جميع مالهما . وكذلك عادتهم بتلك البلاد ، فإذا وشى أحد بأحد وثبت ماوشى به فقتِل ، أُعْطِى ماله .

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابن ملك التجار شابا صغيرا لانبات بعارِضيه . فلما وقع خلاف عينِ المُلْك وقيامه وقتاله للسلطان ، كما سنذكره ، هُزِم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه ، وكان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب المُلْك ، فأمر بهما فعلّقا من أيديهما فى خشب . وأُمِر أبناء الملوك فرَمَوْهما بالنُّشاب حتى ماتا . ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التَبْرِيزِىّ لقاضى القضاة كمال الدين : ذلك الشاب لم يجب عليه القتل . فبلغ ذلك السلطان . نقال : هلا قلت هذا قبل موته . وأمر به فضرِب مائتى مِقرعة أو نحوها ، وسجن وأُعطِى أمير السيافين جميع ماله . فرأيته فى ثانى ذلك اليوم وقد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه ، فظننت أنه هو . وأقام بالسجن شهورا . ثم سرّحه ورده إلى ما كان عليه . ثم غضب عليه ثانية ونفاه إلى خُراسان . فاستقر بِهَراة ، وكتب إليه يستعطفه فوقّع له على ظهر كتابه ما معناه : إن كنت تُبْت فارجع ، فرجع إليه .

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات

وكان قد ولّى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خِزانة الجواهر فى السفر ، فاتفق أن جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة ، وذهبوا بشىء منها ، فأمر بضرب الخطيب حتى مات . رحمه الله تعالى .

ذكر تخريبه لدهلى ونفى أهلها

ومن أعظم ما كان يُنْقم من السلطان إجلاؤه لأهل دِهْلى عنها . وسبب[1] ذلك أنهم كانوا يكتبون بَطَائِق فيها شتمه وسبه . ويختمون عليها ويكتبون عليها : وحق رأس خَوَنْد عَالَم ما يقرؤها غيره . ويرمونها (بالمشور) ليلا ، فإذا فضّها وجد فيها شتمه وسبه . فعزم على تخريب دِهْلى . واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ، ودفع لهم ثمنها ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد . فأبوا ذلك. فنادى مناديه ألا يبقى بها أحد بعد ثلاث. فانتقل معظمهم ، واختفى بعضهم فى الدور. فأمر بالبحث عمن بقى بها. ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وأمتعتهم ، وبقيت المدينة خاوية على عروشها . فحدثنى من أثق به قال : صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره ، فنظر إلى دِهْلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج . فقال : الآن طاب قلبى وتَهَدَّن[2] خاطرى . ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلى ليعمروها ، فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها . وهى من أعظم مدن الدنيا . وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة . وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا السلطان ومما نُقِم منه أيضا[3]. فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث فى أيامه.

(١) هذا السبب غير كاف . بل لابد أنه كانت هناك أسباب أخرى عظيمة حملته على ما فعل .

(٢) ارتاحت نفسى وهدأت .

(٣) آثرنا إثبات حكايات القتل وما ارتكبه هذا السلطان من ضروب القسوة ، لنعرض على القارئ صورة صادقة لهذا العهد فى تلك البلاد .

ذكر ما افتتح به أمره أوّل ولايته من منه على بهادُور بُورة

ولما ولِىَ السلطان الملك بعد أبيه ، وبايعه الناس ، أحضر السلطان غياث الدين بهادُور بُورة ، الذى كان أسره السلطان تُغْلُق ، فمنّ عليه وفك قيوده ، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفِيلة ، وصرفه إلى مملكته ، وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان ، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ، وتكتب أسماؤهما معا فى السِّكّة[1] ، ويخطب لهما ، وعلى أن يَصْرِف غياث الدين ابنه محمدا المعروف بِبَرْبَاط ، ليكون رهينة عند السلطان . فانصرف غياث الدين إلى مملكته والتزم ما شُرِط عليه ، إلا أنه لم يبعث ابنه . وادّعى أنه امتنع . وأساء الأدب فى كلامه . فبعث السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم خان وأميرهم دُلْجِى التترى ، فقاتلوا غياث الدين فقتلوه ، وسلخوا جلده وحُشِى بالتبن ، وطِيف به على البلاد .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تُغْلُق ابن أخت يسمى بهاء الدين (كُشْتَ اسْب) ، فجعله أميرا ببعض النواحى . فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه . وكان شجاعا بطلا . فبعث السلطان إليه العساكر فيهم الأمراء الكبار . فالتقى الفرسان واشتد القتال ، وصبر كلا العسكرين. ثم كانت الكَرّة لعسكر السلطان ، ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك الكفار ، يعرف (بالراىْ[2] كَنْبِيلة) . والراى عندهم كمثل ما هو بلسان

(١) المراد النقود — وأصل السكة قالب الحديد الذى تضرب عليه الدراهم .

(٢) الراى هو الراجا ، وهو الملك . والكلمتان هنديتان .

الروم عبارة عن السلطان، وكنبيلة اسم الإقليم الذى هو به . وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة . وهو من أكابر سلاطين الكفار . فلما هرب إليه بهاء الدين أتْبعته عساكر السلطان ، وحصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكافر ، ونفِد ما عنده من الزرع، وخاف أن يؤخذ باليد ، فقال لبهاء الدين : إن الحال قد بلغت ما تراه . وأنا عازم على إهلاك نفسى وعيالى ومن تبعنى ، فاذهب أنت إلى السلطان فلان ، لسلطان من الكفار سماه له ، فأقم عنده فإنه سيمنعك . وبعث معه من أوصله إليه . وأمر (رَاىْ كَنْبِيلة) بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته . وقال لنسائه وبناته : إنى أريد قتل نفسى، فمن أرادت موافقتى فلتفعل . فكانت المرأة منهن تغتسل وتدّهن بالصندل ، وتقبل الأرض بين يديه ، وترمى بنفسها فى النار ، حتى هلكن جميعا . وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ، ومن أراد من سائر النساء .

ثم اغتسل الراى وادّهن بالصندل ولبس السلاح ما عدا الدِرْع . وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه . وخرجوا إلى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا. ودُخلت المدينة، فأسر أهلها وأسر من أولاد (رَاىْ كَنْبِيلة) أحد عشر ولدا ، فأتى بهم إلى السلطان فأسلموا جميعا . وجعلهم السلطان أمراء، وعظمهم لأصالتهم ولفعل أبيهم . فرأيت عنده منهم نصرا وبَخْتِيار والمُهْردار ، وهو صاحب الخاتَم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه ، وكنيته أبو مسلم . وكانت بينى و بينه صحبة ومودة .

ولما قتل (راى كنبيلة) ، توجهت عساكر السلطان إلى بلد الكفار الذى لجأ إليه بهاء الدين ، وأحاطوا به ، فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راى (كنبيلة)، فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر السلطان ، فقيدوه وغلوه وأتوا به إليه . فلما أُتى به إليه ، أمر بقتله .

وأمر بجلده فحشى بالتبن ، وقُرِن بجلد بها دُور بُورة ، وَطِيفَ بهما على البلاد. فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كَشْلُوخان ، صاحب السلطان تُغْلُق ومعينه على أخذ الملك ، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ، ويخرج لاستقباله إذا وَفَد من بلاده ، أمر كَشْلُوخان بدفن الجلدين. فبلغ ذلك السلطان فشقّ عليه فعله ، وأراد الفتك به .

ذكر ثورة كَشْلُوخان وقتله

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله فى دفن الجلدين أرسل إليه ، وعلم كشلوخان أنه يريد عقابه ، فامتنع وخالف وأعطى الأموال ، وجمع العساكر ، وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خُراسان ، فأتاه منهم العدد الجم ، حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أَرْبى عليه كثرة . وخرج السلطان بنفسه لقتاله . فكان اللقاء على مسيرة يومين من مُلْتان بصحراء أَبُو هَر . وأخذ السلطانُ بالحزم عند لقائه ، فجعل تحت (الشطر) عوضا عنه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين المُلْتانى . وهو[1] حدثنى هذا ، وكان[2] شبيها به . فلما حَمِيَ القتال انفرد السلطان فى أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكر كَشْلُوخان (الشطر) ، معتقدين أن السلطان تحته. فقتلوا عماد الدين. وشاع فى العسكر أن السلطان قتل ، فاشتغلت عساكر كَشْلُوخان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصده السلطان بمن معه فقتله وحزّ رأسه . وعلم بذلك جيشه ففروا. ودخل السلطان مدينة مُلْتان وقبض على قاضيها كريم الدين ، وأمر بسلخه فسلخ ، وأمر برأس كَشْلُوخان فعلق على بابه . وقد رأيته معلقا لما وصلت إلى مُلْتان . وأعطى السلطان الشيخ ركن الدين أخا عماد الدين ، وابنه صدر الدين مائة قرية ، إنعاما عليهما ليأكلا منها ، ويطعما بزاويتهما

(١) أى الشيخ ركن الدين (٢) أى الشيخ عماد الدين .

المنسوبة لجدهما بهاء الدين زكريا . وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بُور ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، وكان أهلها قد خالفوا . فأخبرنى بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير إياها . قال: وأحضر بين يديه القاضى بها والخطيب ، فأمر بسلخ جلودهما . فقالا له : اقتلنا بغير ذلك، فقال لهما : بم استوجبتما القتل ؟ فقالا : بمخالفتنا أمر السلطان . فقال لهما : فكيف أخالف أنا أمره، وقد أمرنى أن أقتلكما بهذه القتلة ؟ ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند، وعاد السلطان إلى حضرته .

ذكر هزيمة جيش السلطان بجبل قراجيل [1]

وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر ، وبينه وبين دِهْلى مسيرة عشر . وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار . وكان السلطان بعث الملك نُكْبِية رأس (الدُّويدارية) إلى حرب هذا الجبل، ومعه مائة ألف فارس، ورجّالة سواهم كثير . فملك مدينة جِدْية وهى فى أسفل الجبل. وملك ما يليها. وسبى وخرّب وأحرق . وفر الكفار إلى أعلى الجبل، وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم . وللجبل طريق واحد ، وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل . فلا يجوزه إلا فارس منفرد خلفه آخر . فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق . وتملكوا مدينة وَرَنْكَل التى بأعلى الجبل واحتووا على ما فيها . وكتبوا إلى السلطان بالفتح، فبعث إليهم قاضيا وخطيبا . وأمرهم بالإقامة . فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا . وماتت الخيل وانحلّت القِسِيّ . فكتب الأمراء إلى السلطان ، واستأذنوه فى الخروج عن

---

(١) من سلسلة جبال همالايا .

الجبل، والنزول إلى أسفله، حتى ينصرم فصل نزول المطر فيعودوا. فأذن لهم فى ذلك. فأخذ الأمير نُكْبِيَة الأموال التى استولى عليها من الخزائن والمعادن، وفرقها على الناس ليرفعوها و يوصلوها إلى أسفل الجبل. فعند ما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوِى، وأخذوا عليهم المَضِيق، وصاروا يقطعون الأشجار العادية(١) قِطَعا و يطرحونها من أعلى الجبل، فلا تمر بأحد إلا أهلكته. فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم. وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح. ولم يفْلِت من العسكر إلا ثلاثة من الأمراء: كبيرهم نُكْبِية، و بدر الدين المَلِك دولة شاه، وثالث لهما لا أذكره. وهذه الوقيعة أثرت فى جيش الهند أثرا كبيرا، وأضعفته ضعفا بيّنا. وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه، لأن لهم البلاد فى أسفل الجبل، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه.

ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المَعْبَر، وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمّر على بلاد المَعْبَر، و بينها و بين دِهْلى مسيرة ستة أشهر، الشريف جلال الدين أحسن شاه. فخالف وادّعى الملك لنفسه، وقتل نوّاب السلطان وعُمّاله، وضرب الدنانير والدراهم باسمه. وكان يكتب فى إحدى صفحتى الدينار: سلالة طه و يس، أبو الفقراء والمساكين، جلال الدنيا والدين. وفى الصحفة الأخرى: الواثق بتأييد الرحمن، أحسن شاه السلطان. وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله. فنزل بموضع يقال له (كُشْك زِر)، ومعناه

---

(١) الكبيرة القديمة، كما تقدم

قصر الذهب . وأقام به ثمانية أيام لقضاء حاجات الناس . وفى تلك الأيام أُتى بابن أخت الوزير خواجه جِهان ، وأربعة من الأمراء أو ثلاثة ، وهم مقيدون مغلولون .

وكان السلطان قد بعث وزيره هذا فى مقدّمته ، فوصل إلى مدينة ظِهار ، وهى على مسيرة أربع وعشرين من دِهْلى ، وأقام بها أياما . وكان ابن أخته شجاعا بطلا . فاتفق مع الأمراء الذين أُتى بهم على قتل خاله ، والهرب بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر . وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة . فوشى بهم أحد من أدخلوه فى أمرهم إلى الوزير ، وكان يسمى الملك نُصْرة الحاجب ، وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لُبْسهم الدروع تحت ثيابهم . فبحث الوزير عنهم فوجدهم كذلك . فبعث بهم إلى السلطان ، وكنت بين يديه حين وصولهم . فرأيت أحدهم وكان طُوَالا أَلْحَى ، وهو يُرْعد ويتلو سورة يس . فأمر بهم فطرحوا للفيلة المعلّمة قَتْلَ الناس ، وأمر بابن أخت الوزير فرد إلى خاله ليقتله فقتله . وسنذكر ذلك .

وتلك الفيلة التى تقتل الناس تكسى أنيابها حدائد مسنونة ، شِبْهَ سكك الحرث ، ولها أطراف كالسكاكين . ويركب الفيال على الفيل . فإذا رُمى بالرجل بين يديه لفّ عليه خرطومه ورمى به إلى الهواء . ثم يتلقّفه بنابيه ، ويطرحه بعد ذلك بين يديه ، ويجعل يده على صدره ، ويفعل به ما يأمره الفيال ، على حسب ما أمره السلطان . فإن أمره بتقطيعه قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد . وإن أمر بتركه تركه مطروحا فسلخ . وكذلك فُعِل بهؤلاء .

ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرنى بالإقامة بالحضرة كما سنذكره ، ومضى فى سفره إلى أن بلغ دولة آباد . فثار الأمير هَلاَجُون ببلاده وخرج . وكان الوزير خواجة جِهان قد بقى أيضا بالحضرة ، لحشد الحُشود وجمع العساكر .

ذكر ثورة هَلاَجُون

ولما بلغ السلطان دَوْلة آباد و بعد عن بلاده ، ثار الأمير هَلاَجُون بمدينة لاهُور وادّعى الملك . وساعده الأمير قُلْجُنْد على ذلك وصيره وزيرا له . واتصل ذلك بالوزير خواجه جِهان وهو بدهلى فحشد الناس وجمع العساكر، وجمع الخُرَاسانيين، وكل من كان مقيما من الخدام بدهلى. وأخذ أصحابه وأخذ فى الجملة أصحابى ، لأنى كنت بها مقيما . وأعانه السلطان بأميرين كبيرين : أحدهما قِيران ملك صَفْدار ، ومعناه مرتب العساكر ، والثانى الملك تَمُور الشُرْبدار ، وهو الساقى . وخرج هَلاَجُون بعساكره . فكان اللقاء على ضِفَّة أحد الأودية الكبار . فانهزم هلاجون وهرب ، وغرِق كثير من عساكره فى النهر . ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها ، وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل . وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير ، وهو المعروف بأَجْدَر ملك ، وكان ظالما قاسى القلب . ويسميه السلطان أسد الأسواق . وكان ربما عضّ أرباب الجنايات بأسنانه شَرَها وعُدْوانا . وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة إلى حصن كالِيُور ، فسجنّ به . ورأيت بعضهن هنالك فى السجن.

ذكر وقوع الوباء فى عسكر السلطان

ولما وصل السلطان إلى بلاد التِلِنْك، وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبر، نزل مدينة بَدْرَكُوت، وهى قاعدة بلاد التِلِنْك، و بينها و بين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر، ووقع الو باء إذ ذاك فى عسكره فهلك معظمهم. ومات العبيد والمماليك وكبار الأمراء، مثل الملك دَوَلَة شاه الذى كان السلطان يخاطبه بالعم، ومثل الأمير عبد الله الهَرَوىّ. وقد تقدمت حكايته فى السِفْر الأول. وهو الذى أمره السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال، فر بط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها. ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد إلى دولة آباد. وخالفت البلاد وانتقضت الأطراف، وكاد الملك يخرج عن يده، لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته.

ذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هُوشَنْج

ولما عاد السلطان إلى دولة آباد مرض فى طريقه فأرجف الناس بموته. وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة. وكان الملك هُوشَنْج ابن الملك كمال الدين كُرْك بدولة آباد. وكان بينه و بين السلطان عهد ألا يبايع غيره أبدا، لا فى حياته ولا بعد موته. فلما أُرجِف بموت السلطان هرب إلى سلطان كافر يسمى بُرْبَرَة، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكُوكَنْ تَانَة. فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة، فأجدّ السير إلى دولة آباد، واقتفى أَثَر هوشَنْج، وحصره بالخيل، وأرسل إلى الكافر أن يسلمه إليه. فأبى وقال: لا أسلم دخيلى. وخاف هوشنج على نفسه، فراسل السلطان وعاهده

على أن يرحل السلطان إلى دولة آباد ويبقى هنالك قُطْلُوخان معلم السلطان، ليستوثق منه هُوشَنْج وينزل إليه على الأمان. فرحل السلطان ونزل هوشنج إلى قُطْلوخان، وعاهده ألا يقتله السلطان ولا يحط منزلته. وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان، فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه. وكان قُطْلوخان صاحب عهد يستنيم الناس إليه. ومنزلته عند السلطان عليّة، وتعظيمه له شديد. ومتى دخل عليه قام له إجلالا، فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه، حتى يكون هو الذى يدعوه، لئلا يتعبه بالقيام له. وهو محب للصدقات كثير الإيثار، مُولَع بالإحسان للفقراء والمساكين.

ذكر ما همّ به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار، وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان، واليا على بلاد حَانْسِى وَسَرْسَتى، لما تحرك السلطان إلى بلاد المعبر، وأبوه هو القائم ببلاد المعبر، الشريف أحسن شاه. فلما أرجف بموت السلطان طمع إبراهيم فى السلطنة. وكان شجاعا كريما حسن الصورة. وكنت متزوجا بأخته حُورْنَسَب. وكانت صالحة تتهجد بالليل، ولها أوراد من ذكر الله عز وجل. وكانت تقرأ لكنها لا تكتب. فلما همّ إبراهيم بالثورة، اجتاز به أمير من أمراء السند، ومعه الأموال يحملها إلى دِهْلى. فقال له إبراهيم: إن الطريق مخوف وفيه القَطْع، فأقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن. وكان قصده أن يتحقق موت السلطان، فيستولى على تلك الأموال. فلما تحقق حياته سرّح ذلك الأمير، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك. ولما وصل السلطان إلى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف سنة، وصل الشريف

إبراهيم إليه ، فوشى به بعض غلمانه ، وأعلم السلطان بما كان هَمَّ به . فأراد السلطان أن يعجل بقتله ، ثم تأنّى لمحبته له . فاتفق أن أُتى يوما إلى السلطان بغزال مذبوح ، فنظر إلى ذِبْحته فقال : ليس بجيّد الذكاة ، اطرحوه . فرآه إبراهيم فقال : إن ذكاته جيدة وأنا آكله . فأخبر السلطان بقوله ، فأنكر ذلك ، وجعله ذريعة إلى أخذه . فأمر به فقُيِّد وغُلّ . ثم قرره على ما رُمى به من أنه أراد أخذ الأموال التي مَرَّ بها ضياء الملك . وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه ، وأنه لا تنفعه معذرة ، وخاف أن يعذب . فرأى الموت خيرا له ، فأقر بذلك . فأمر به فوُسِّط وترك هنالك . وعادتهم أنه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا ، فإذا كان بعد الثلاث اخذه طائفة من الكفار موكّلون بذلك ، فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به ، وهم يسكنون حول الخندق ، لئلا يأتى أهل المقتول فيعرفوه . وربما أعطى بعضهم هؤلاء الكفار ما لا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه . وكذلك فُعل بالشريف إبراهيم ، رحمه الله تعالى .

ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التِلِنْك

ولما عاد السلطان من التِلِنْك وشاع خبر موته ، وكان ترك تاج المُلْك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك ، وهو من قدماء خواصه ، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ، ودعا لنفسه وبايعه الناس بحضرة بَدَرْكُوت . فبلغ خبره السلطان ، فبعث معلمه قُطْلُو خان فى عساكر عظيمة لحصره بعد قتال شديد ، هلك فيه أمم من الناس . واشتد الحصار على أهل بدركوت وهى منيعة . وأخذ قُطْلُو خان فى نقبها . فخرج إليه نُصْرَة خان على الأمان فى نفسه فأمنه . وبعث به إلى السلطان . وأمّن أهل المدينة والعسكر .

ذكر انتقال السلطان إلى نهر الكِنْك[1] وقيام عين المُلْك

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره إلى نهر الكنك، الذى تحج إليه الهنود، على مسيرة عشر من دِهْلى. وأمر الناس بالبناء، وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الأرض، فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذى الناس، حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الأرض. فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب. ووصلت أنا فى تلك الأيام إلى مَحَلّة السلطان. وكانت البلاد التى بغربىّ النهر حيث السلطان شديدةَ القحط، والبلاد التى بشرقيّه خِصْبة، وأميرها عين المُلْك بن ماهر، ومنها مدينة عِوَض[2] ومدينة ظَفَر آباد ومدينة اللَّكْنُو وغيرها. وكان الأمير عين الملك كل يوم يُحْضِر خمسين ألف مَنّ[3] منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب. فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المُخْصِبة لترعى هنالك. وأوصى عين الملك بحفظها. وكان لعين الملك أربعة إخوة: وهم شهرالله ونصرالله وفضل الله، ولا أذكر اسم الآخر. فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن يأخذوا فِيلة السلطان ودوابّه، ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان. وهرب إليهم عين الملك بالليل وكاد الأمر يتم لهم. ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه جميع حاله. ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكنّ عيونا له على أمرائه، ونسوة يسميهن الكناسات، يدخلن الدور بلا استئذان، ويخبرهن الجوارى بما عندهن، فتخبر الكناسات بذلك المخبرين، فيخبرون ذلك

---

(١) نهر الكنج

(٢) قال ياقوت: اسم بلد بعيد عنا فى أواسط بلاد الهند، تأتيه التجار بعد مشقة.

(٣) المن رطلان. كما سبق فى الحواشى.

السلطان . وكان للسطان مملوك يعرف بابن ملك شاه ، هو عين على عين الملك هـذا ، فأخبر السلطان بفراره وجوازه النهر ، فَسُقِط فى يده ، وظن أنها القاضية عليه : لأن الخيل والفيلة والزرع ، كل ذلك عند عين الملك ، وعساكر السلطان مفترقة . فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتى لقتاله . وشاور أرباب الدولة فى ذلك . وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم ، لأنه هندى وأهل الهند مُبْغِضون للغرباء ، فكرهوا ما ظهر به ، وقالوا : ياخَوَنْد عَالَمَ ، إن فعلت ذلك بلغه الخبر ، فاشتد أمره ورتَّب العساكر ، وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن . والأولى معاجلته قبل استحكام قوته . وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مُطَهَّر الأَوْهَرى . ووافقه جميعهم . فعمل السلطان بإشارتهم . وكتب تلك الليلة إلى من قرب منه من الأمراء والعساكر ، فأتوا من حينهم ، وأدار فى ذلك حيلة حسنة : فكان إذا قدم على محلته مثلا مائة فارس ، بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم إلى المحلة ، كأن جميعهم مدد له . وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قِنَّوج وراء ظهره ، ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها . وبينها وبين الموضع الذى كان به ثلاثة أيام .

فرحل أول مرحلة وقد عبَّأ جيشه للحرب ، وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم ، كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى جانبه ، ومعه خِباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود إلى مجلسه . والمحلَّة الكبرى على بعد منهم . ولم يدخل السلطان فى تلك الأيام الثلاثة خِباء ولا استظل بظل . وكنت فى يوم منها بخبائى ، فصاح بى فتى من فتيانى اسمه سُنْبل واستعجلنى . وكان معى الجوارى فخرجت إليه . فقال : إن السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أو جاريته . فشفع عنده الأمراء ، فأمر ألا تبقى الساعة بالمحلة امرأة ، وأن يُحْمَلن إلى حصن هنا لك على ثلاثة أميال . فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع

السلطان . و بتنا تلك الليلة على تعبئة. فلما كان فى اليوم الثانى رتب السلطان عسكره أفواجا ، وجعل مع كل فَوْج الفيــلة المدرعة وعليها الأبراج وفوقها المقاتِلة . وتدرّع العسكر وتهيئوا للحرب ، و باتوا تلك الليــلة على أُهبة . ولمــا كان اليوم الثالث شاع أنّ عين الملك الثائر أجاز النهر ، نخــاف السـلطان ذلك ، وتوقع أنه لم يفعله إلا بعـد مراسلة الأمراء الباقين مع السلطان . فأمر فى الحين بِقَسْم الخيل العِتاق على خواصه ، وبعث لى حظا منها . وكان لى صاحب يسمى (أمير أميران) الكَرْمانى من الشجعان . فأعطيته فرسا منها أشهب اللون . فلما حركه جَمَحَ به ، فلم يستطيع إمساكه ورماه عن ظهره ، فمات رحمه الله تعالى . وَجَدَّ السلطان ذلك اليوم فى مسيره فوصل بعد العصر إلى مدينة قِنَوْج . وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها . وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفســه . ووقف علينا ونحن فى المقدمة مع ابن عمه (الملك فيروز)، ومعنا الأمير غَدَا بن مُهَنَّا ، والسيد ناصر الدين مطهَّر ، وأمراء خُرَاسان . فأضافنا إلى خواصه وقال : أنتم أَعِزَّة علىّ ، وما ينبغى أن تفارقونى . وكان فى عاقبة ذلك الخير : فإن القائم ضرب فى آخر الليل على المقدّمة ، وفيها الوزير خواجة جِهان ، فقامت ضجة فى الناس كبيرة . فحينئذ أمر السلطان ألا يبرح أحد مكانه ، ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف. فاستلّ العسكر سيوفهم ونهضوا إلى أصحابهم . وحَمِيَ القتال . وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه : دِهْلى وغَزْنة . فإذا لقِىَ أحدهم فارسا قال له : دهلى. فإن أجابه بغزنة علم أنه من أصحابه ، و إلا قاتله . وكان القائم إنما قصد أن يضرب على موضع السلطان ، فأخطأ به الدليل ، فقصد موضع الوزير . فضرب عنق الدليل. وكان فى عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيون وهم أعداء الهنود ، فصَدَقُوا القتال . وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر . وكان الملك إبراهيم المعروف بالبَنْجِى التترى قد أقطعه السلطان بلاد سَنْدِيلة ، وهى قريبة

من بلاد عين المُلْك ، فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه . وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فِيلة السلطان وخيله ، فوافقاه أيضا ، وجعل داود حاجبه . وكان داود هذا لما ضربوا على مَحَلّة الوزير ، يَجْهَر بِسَبِّ السلطان ، ويَشْتِمه أقبح شتم ، والسلطان يسمع ذلك و يعرف كلامه . فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التترى : ماذا ترى يا ملك إبراهيم ؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النَّجْدة منهم ، فهل لك أن ننجو بأنفسنا ؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم : إذا أراد عين الملك أن يفر فإنى سأقبض على دَبُّوقَتِه(١) . فإذا فعلت ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقط إلى الأرض فنقبض عليه ونأتى به السلطان ، ليكون ذلك كفَّارة لذنبى فى مخالفته ، وسببا لخلاصى .

فلما أراد عين الملك الفرار قال له إبراهيم : إلى أين يا سلطان علاء الدين ؟ وكان يسمى بذلك ، وأمسك بدبوقته وضرب أصحابه فرسه ، فسقط إلى الأرض ، ورمى إبراهيم بنفسه عليه ، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم ، وقال : لا أتركه حتى أوصله إلى الوزير أو أموت دون ذلك . فتركوه فأوصله إلى الوزير . وكنت أنظر عند الصبح إلى الفيلة والأعلام يؤتى بها إلى السلطان . ثم جاءنى بعض العراقيين فقال : قد قُبِض على عين الملك وأُتِى به إلى الوزير . فلم أصدقه . فلم يمر إلا يسير حتى جاءنى الملك تَمُور الشُرْبدار ، فأخذ بيدى وقال : أبشر فقد قُبِض على عين الملك وهو عند الوزير . فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه إلى محلة عين الملك على نهر الكِنْك ، فنهبت العساكر ما فيها . واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرِقوا ، وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم . ونهبت الأموال والخيل والأمتعة . ونزل السلطان على المجاز . وجاء الوزير بعين الملك وقد أُركب على ثور ، وهو عُرْيان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل ، وباقيه فى عنقه . فوقف على باب (السرَّاجة) .

---

(١) الشعر المضفور ، مولدة . قاموس .

وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك فجعلوا يسبونه و يبصُقون فى وجهه، و يصفَعون أصحابه . و بعث إليه السلطانُ الملكَ الكبير، فقال له : ما هذا الذى فعلت ؟ فلم يجد جوابا . فأمر به السلطان أن يكسى ثوبا من ثياب الزمَّالة[1] وقيد بأربعة كُبُول[2]، وغُلَّت يداه إلى عنقه وسُلِّم إلى الوزير ليحفظه . وجاز إخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عِوَض ، فأخذوا أهلهم واولادهم وما قدروا عليه من المال ، وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك : اخلُصى بنفسك و بنيك معنا . فقالت : أفلا أكون كنساء الكفار اللائى يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ؟ فأنا أيضا أموت لموت زوجى وأعيش لعيشه . فتركوها . و بلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها ، وادركته لها رِقّة . وأُدرِك الفتى سُهَيل نصر الله من أولئك الأخوة فقتل وأُتِى السلطان برأسه . وأُتِى بأم عين الملك وأخته وامرأته ، فسلمن إلى الوزير وجعلن فى خِباء بقرب خباء عين الملك . فكان يدخل إليهن ويجلس معهن و يعود إلى محْبِسه .

ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة، أمر السلطان بِسَراح لفيف الناس الذين مع عين الملك ، من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به . وأُتِى بالملك إبراهيم البَنْجِى الذى ذكرناه، فقال ملك العسكر: ياخَوَنْد عالَم، اقتل هذا فإنه من المخالفين . فقال الوزير : إنه قد فدى نفسه بالقائم . فعفا عنه السلطان وسرّحه إلى بلاده. ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب، وأُوتِى باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم، وأُتِى بالفيلة فطرحوا بين أيديها. فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على انيابها ، وترمى بعضهم إلى الهواء وتتلقّفه، والأبواق (والأنقار) والطبول تضرب عند ذلك، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ، ويُطْرح منهم عليه . ثم أعيد إلى محبسه .

---

(١) لم نعثر على معنى ملائم لهذه الكلمة فى كتب اللغة . و يراد بها هنا سائقو دواب الحمل .

(٢) جمع كَبْل وهو القيد .

وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب . وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة . وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا أمتعتهم . و بعث إلىّ بفيل منها أجزت عليه رَحْلى. وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بَهْرَايِج ، وهى مدينة حسنة فى عُدْوة نهر السَرُو ، وهو واد كبير شديد الانحدار . وأجازه السلطان لزيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالارعُود ، الذى فتح أكثر تلك البلاد. وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة . وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا ، حتى غَرِق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس ، لم ينج منهم إلا عربىّ من أصحاب الأمير غَدَا . وكنّا ركبنا نحن فى مركب صغير فسلّمنا الله تعالى . وكان العربى الذى سلِم من الغرق يسمى بسالم ، وذلك اتفاق عجيب . وكان أراد أن يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر ، فركب فى المركب الذى غرق . فلما خرج ظن الناس أنه كان معنا ، فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس ، وتوهموا أنا غرقنا . ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا . وزرنا قبر الصالح المذكور ، وهو فى قبة لم نجد سبيلا إلى دخولها لكثرة الزحام . وفى تلك الوِجْهة دخلنا غَيْضَة قصب ، فخرج علينا منها الكَرْكَدَّن ، فقتل وأتى برأسه . وهو دون الفيل . ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وقد ذكرناه .

ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علىّ شاه كَر

ولما ظَفِر السلطان بعين المُلْك كما ذكرنا ، عاد إلى حضرته بعد مَغِيب عامين ونصف ، وعفا عن عين الملك ، وعفا أيضا عن نُصْرة خان القائم ببلاد التِلِنْك ، وجعلهما معا على عمل واحد ، وهو النظر على بساتين السلطان. وكساهما وأركبهما ، وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم فى كل يوم . وحدث

بعد ذلك أن أحد أصحاب قُطْلُوخان، وهو على شاه كر (ومعنى كر الأطرش) خالف على السلطان . وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة . فغلب على بَدْرَكُوت ، وجعلها مدينة ملكه ، وخرجت العساكر إليه . وأمر السلطان معلمه أن يخرج إلى قتاله . فخرج فى عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ، ونقبت أبراجها، واشتدت به الحال، فطلب الأمان. فأَمَّنه قُطْلُوخان، وبعث به إلى السلطان مقيدا. فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غَزْنَة، من طرف خُراسان ، فأقام بها مدة ، ثم اشتاق إلى وطنه فأراد العودة إليه ، لما قضاه الله من حينِه ، فقبض عليه ببلاد السند وأتى به السلطان ، فقال له : إنما جئت لتثير الفساد ثانية ، وأمر به فضربت عنقه .

ذكر فرار أمير بَخْت وأخذه

وكان السلطان قد وَجِد على أمير بخت الملقب بشرف الملك ، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان ، فحطّ مرتبه من أربعين ألفا إلى ألف واحد . وبعثه فى خدمة الوزير إلى دهلى . واتفق أن مات أمير عبد الله الهَرَوِىّ فى الوباء فى التِلِنْك ، وكان ماله عند أصحابه بدهلى ، فاتفقوا مع أمير بخت على الهرب . فلما خرج الوزير من دهلى إلى لقاء السلطان ، هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا إلى أرض السند ، فى سبعة أيام، وهو مسيرة أربعين يوما . وكان معهم الخيل مجنوبة[1] ، وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عوما، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم فى (معدية[2]) قَصَب يصنعونها . وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير لذلك . فلما وصلوا إلى النهر

(١) جَنَب الفرس والأسير قاده إلى جَنْبه . لسان .

(٢) يريد المعبر الذى يجاز به النهر . وليست عربية . وقد وردت كثيرا فى هذا الكتاب .

خافوا عبوره بالعوم . فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة ؤجة ، فقالا له : إن ها هنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر . وقد بعثوا إليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز . فأنكر الأمير أن يعطى التجار مثل ذلك السرج ، وأمر بالقبض على الرجلين ، ففر أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه وهم نيام ، لما لحقهم من الإعياء ومواصلة السهر ، فأخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا . وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه ، فاعترف بقضية شَرَف المُلْك . فأمر جلال الدين نائبه فركب فى العسكر وقصدوا نحوهم ، فوجدوهم قد ركبوا ، فاقتفوا أثرهم فأدركوهم ، فرموا العسكر بالنُّشاب . ورمى طاهر بن شرف الملك نائبَ الأمير جلال الدين بسهم فأثبته فى ذراعه . وغَلَبَ عليهم ، فأَتَى بهم إلى جلال الدين فقيدهم وغلّ أيديهم ، وكتب إلى الوزير فى شأنهم ، فأمره الوزير ان يبعثهم إلى الحضرة . فبعثهم إليها وسجنوا بها . فمات طاهر فى السجن . فأمر السلطان أن يضرب شرف الملك مائة مِقْرعة فى كل يوم . فبقى على ذلك مدّة . ثم عفا عنه . وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نَجْلة إلى بلاد جَنْديرى . فانتهت حاله إلى أن كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه . وأقام على ذلك مدّة . ثم وفد ذلك الأمير على السلطان وهو معه ، فجعله السلطان شاشنكيره (جاشنكير) ، وهو الذى يقطع اللحم بين يدى السلطان ، ويمشى مع الطعام . ثم إنه بعد ذلك نوه به ورفع مِقداره . وانتهت حاله إلى أن مرض فزارده السلطان ، وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك . وقد قدمنا هذه الحكاية فى السِفر الأول . وبعد ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديرى التى كان بها يركب البقر فى خدمة الأمير نظام الدين . فسبحان مقلِّب القلوب ومحوّل الأحوال .

ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض مُلْتان من بلاد السند ، وقتل الأمير بها ، وكان يسمى (بِهْ زاد) . وادّعى السلطنة لنفسه . وتجهز السلطان لقتاله فعلم أنه لا يقاومه . فهرب ولحق بقومه الأفغان ، وهم ساكنون بجبال منيعة لا يُقْدَر عليها . فاغتاظ السلطان مما فعله ، وكتب إلى عماله أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده . فكان ذلك سببا لخلاف القاضى جلال .

ذكر خلاف القاضى جلال

وكان القاضى جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كِنْبَاية ومدينة بَلُوذَرَة . فلما كتب السلطان إلى عماله بالقبض على الأفغانيين ، كتب إلى (الملك مُقْبِل) نائب الوزير ببلاد الجُزَرَات ونَهْرَوَالة ، أن يحتال فى القبض على القاضى جلال ومن معه . وكانت بلاد بَلُوذَرَة إقطاعا لملك الحكماء . وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تُغْلُق ، ولها بنت من تغلق ، هى التى تزوجها الأمير غَدَا . وملك الحكماء إذ ذاك فى صحبة مقبل ، لأن بلاده تحت نظره . فلما وصلوا إلى بلاد الجُزَرَات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتى بالقاضى جلال وأصحابه . فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده ، حذَّرهم فى خُفْية لأنهم كانوا من أهل بلاده . وقال : إن مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح . فركبوا فى نحو ثلاثمائة مدرّع وأتوه ، وقالوا : لا ندخل إلا جملة . فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون ، وخافهم فأمرهم بالرجوع ، وأظهر تأمينهم .

فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كِنْباية ، ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس . ونهبوا مال ابن الكَوْلَمِيّ التاجر، وهو الذى عمر المدرسة الحسنة بالإسكندرية. وسنذكره إثر هذا . وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة . وجاء الملك عزيز الخَمّار والملك جِهان لقتالهم فى سبعة آلاف من الفرسان ، فهزموهم أيضا . وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم . وادّعى القاضى جلال السلطنة وبايعه أصحابه . وبعث السلطان إليه العساكر فهزمها . وكان بدولة آباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضا .

ذكر خلاف ابن الملك مَلّ

وكان ابن الملك مَلّ ساكنا بدولة آباد فى جماعة من الأفغان . فكتب السلطان إلى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قُطْلُوخان، أن يقبض عليهم. وبعث إليه بأحمال كثيرة من القيود والسلاسل . وبعث بِخِلَع الشتاء . وعادة ملك الهند أن يبعث لكل امير على مدينة ولوجوه عسكره خِلْعتين فى السنة ، خلعة الشتاء وخلعة الصيف . وإذا جاءت الخلع يخرج الأمير والعسكر للقائها ، فإذا وصلوا إلى الآتى بها نزلوا عن دوابهم ، وأخذ كل واحد خِلْعة وحملها على كتفه ، وَخَدَم لجهة السلطان . وكتب السلطان لنظام الدين : إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك . وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان فأخبرهم بما يراد بهم . فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه . فركب وركب الأفغان معه حتى إذا لَقُوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه ، حملوا عليه وعلى أصحابه ، فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ، ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن ، وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن الملك مَلّ ، وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كِنْبَاية

ولما بلغ السلطان ما فعله الأفغان بكنباية ودولة آباد ، خرج بنفسه وعزم على أن يبدأ بكنباية ثم يعود إلى دولة آباد ، وبعث (أعظم ملك) البايزيدىّ صهره ، فى أربعة آلاف مُقَدَّمة، فاستقبلته عساكر القاضى جلال ، فهزموه وحصروه ببُلُوذْرة وقاتلوه بها . وكان فى عسكر القاضى جلال شيخ يسمى جَلُول، وهو أحد الشجعان . فلا يزال يفتِك بالعساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته . واتفق يوما أنه دفع فرسه فكبا به فى حفرة فسقط عنه وقتل . ووجدوا عليه دِرعين فبعثوا برأسه إلى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بُلُوذْرَة ، وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد . ثم وصل السلطان بعساكره ، فلم يكن للقاضى جلال من ثبات ، ففر فى أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فَنُهِب ذلك كله . ودُخِلت المدينة، وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها . وترك بها صِهره شرف الملك أمير بَخْت الذى قدّمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وَمِحْنَه ، وما جرى عليه من الذل ثم من العز . وأمره بالبحث عمن كان فى طاعة جلال الدين . وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم، فأدى ذلك إلى قتل الشيخ على الحَيْدَرِى على ما قدمناه . ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين ابن الملك مَلّ بدولة آباد ودخل فى جملته . فأتى السلطان بنفسه إليهم ، واجتمعوا فى نحو أربعين ألفا من الأفغان والترك والهنود والعبيد ، وتحالفوا على الا يفروا ، وان يقاتلوا السلطان . وأتى السلطان لقتالهم، ولم يرفع (الشطر) [1] الذى هو علامة عليه. فلما استَحَرّ القتال رفع (الشطر) . فلما عاينوه دَهِشوا وانهزموا أقبح هزيمة، ولجأ ابن الملك مَلّ والقاضى جلال فى نحو أربعمائة من خواصهما إلى قلعة الدُّوَيْقِير، وسنذكرها .

(١) المظلة كما سبق ، غير عربية ، بل معربة عن (جتر) .

وهى من أمنع قلاع الدنيا . واستقر السلطان بمدينة دولة آباد ، والدويقير هى قلعتها . وبعث لهم أن ينزلوا على حكمه، فأبوا أن ينزلوا إلا على الأمان ، فأبى السلطان أن يؤمِّنهم ، وبعث لهم الأطعمة تهاونا بهم، وأقام هنـالك . وعلى ذلك آخر عهدى بهم .

ذكر قتال مُقْبِل وابن الكَوْلَمِيّ

وكان ذلك قبل خروج القاضى جلالٍ وخلافه . وكان تاج الدين بن الكَوْلَمِيّ من كبار التجار ، فوفد على السلطان من أرض الترك بهدايا جليـلة ، منها المـاليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب . فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثنى عشر لكا[1]. ويذكر أنه لم تكن قيمة هديتـه إلا لكا واحدا . وولاه مدينة كِنْبايَة، وكانت لنظر الملك مقبل نائب الوزير. فوصل إليها وبعث المراكب إلى بلاد المُلَيْبَار[2] وجزيرة سَيْلَان وغيرها ، وجاءته التحف والهدايا فى المراكب ، وضَخُمت حاله . ولمـا لم يبعث أموال تلك الجهـات إلى الحضرة ، بعث الملك مُقْبل إلى ابن الكَوْلَمِى أن يبعث ما عنـده من الهدايا والأموال، مع هدايا تلك الجهات على العادة ، فامتنع ابن الكَوْلَمِى من ذلك وقال : أنا أحملها بنفسى أو أبعثها مع خدامى . ولا حكم لنائب الوزير علىّ، ولا للوزير . واغتر بمـا أولاه السلطان من الكرامة والعطية . فكتب مقبل إلى الوزير بذلك، فوقّع له الوزير على ظهر كتابه : إن كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع إلينا . فلما بلغه الجواب، تجهز فى عسكره وممـاليكه ، والتقيا بظاهر كِنْبايَة ، فانهزم ابن الكولمى، وقُتل جماعة من الفريقين ، واستخفى

(١) سبق تعريف اللك فى ص ٦ (٢) الملبـار .

ابن الكَوْلَمِيّ فى دار النَاخُذَاة (١) إلياس ، أحد كبراء التجار ، ودخل مقبل المدينة ، فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمى ، وبعث له الأمان ، على أن يأخذ ماله المختص به ، ويترك مال السلطان وهديته ومَجْبَى البلد . وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه إلى السلطان . وكتب شاكيا ابن الكولمى وكتب ابن الكَوْلَمِيّ شاكيا إياه . فبعث السلطان ملك الحكماء لينصف بينهما . وبإثر ذلك كان خروج القاضى جلال الدين ، فنَهَب مالَ ابن الكولمى . وفر ابن الكولمى فى بعض مماليكه ولحق بالسلطان .

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفى مدة مَغيب السلطان عن حضرته ، إذ خرج يقصد بلاد المعْبَر ، وقع الغلاء واشتد الأمر وانتهى المنّ إلى ستين درهما . ثم زاد على ذلك . وضاقت الأحوال وعظم الخطب . ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير ، فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه . وكانت الجلود تطبخ وتباع فى الأسواق . وكان الناس إذا ذُبحت البقر أخذوا دماءها فأكلوها . وحدثنى بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى إكْرُوهة ، بين حَانْسِي وَسَرْسَتِي ، فوجدوها خالية ، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به ، فوجدوا فى بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رِجل آدمى ، وهو يشويها فى النار ويأكل منها ، والعياذ بالله . ولما اشتد الحال ، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر ، فكانت القضاة والكتّاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ، ويكتبون الناس ويعطون كلّ أحد نفقة ستة أشهر ، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب فى اليوم

(١) صاحب السفن أو وكيله ، معربة . قاموس .
وقال الشارح : المشهور عند أكثر المعرّبين إهمال دالها .

لكل واحد . وكنت فى تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذى أصنعه بِمَقْبَرة السلطان قطب الدين، على ما يذكر. فكان الناس ينتعشون بذلك. والله تعالى ينفع بالقصد فيه . وإذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان فى أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية ، فلنعد إلى ما يخصنا من ذلك ، ونذكر كيفية وصولنا أولا إلى حضرته، وتنقّل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ، ثم خروجِنا عن السلطان فى الرسالة إلى الصين ، وعودنا منها إلى بلادنا ، إن شاء الله تعالى .

ذكر وصولنا إلى دار السلطان
عند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ، ودخلنا الباب الأول ثم الثانى ثم الثالث ، ووجدنا عليه النقباء . وقد تقدم ذكرهم . فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى (مشور) عظيم متسع ، فوجدنا به الوزير خواجه جِهان ينتظرنا . فتقدم ضياء الدين خُذَاوَنْد زاده ، ثم تلاه أخوه قِوام الدين ، ثم أخوهما عماد الدين، ثم تلوتهم ، ثم تلانى أخوهم بُرْهان الدين، ثم الأمير مبارك السَّمَرْقَنْدِىّ ، ثم أَرُنْ بُغا التركّى ، ثم ملك زاده ابن أخت خُداوند زاده ، ثم بدر الدين الفَصّال . ولما دخلنا من الباب الثالث ظهرلنا (المشور) الكبير المسمى هَزَارْ أُسْطُون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وبه يجلس السلطان الجلوس العام . فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض . وخدمنا نحن بالركوع ، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض . وخدمتنا لناحية سرير السلطان . وخدم جميع من معنا . فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية : باسم الله ، وخرجنا .

ذكر وصولنا إلى دار أم السلطان وذكر فضائلها

وأم السلطان تدعى المخدومة جِهان . وهى من أفضل النساء ، كثيرة الصدقات، عمرت زوايا كثيرة، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر . وهى مكفوفة البصر . وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين ، وبنات الملوك والأمراء فى أحسن زِىّ ، وهى على سرير الذهب المرصع بالجوهر . فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين . وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع . وولدها أشد الناس بِرًّا بها . ومِن بره أنها سافرت معه مرة فقدِم السلطان قبلها بمدة ، فلما قدِمت خرج لاستقبالها، وترجَّل عن فرسه وقبَّل رجلها ، وهى فى المِحَفَّة بمرأى من الناس اجمين .

ولنعد لما قصدناه فنقول: ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف ، وهم يسمونه باب الحرم . وهنالك سُكْنى المخدومة جهان . فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب ، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله . ودخل معنا قاضى قضاة المماليك، كمال الدين بن البرهان، فخدم الوزير والقاضى عند بابها وخدمنا كخدمتهم . وكتب كاتب بابها هدايانا . ثم خرج من الفتيان جماعة ، وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلموه سرا . ثم عادوا إلى القصر، ثم رجعوا إلى الوزير، ثم عادوا إلى القصر ، ونحن وقوف . ثم أمرنا بالجلوس فى سقِيف هنالك . ثم أتوا بالطعام ، وأتو بِقِلالٍ من الذهب مثل القدور . ولها مرافع من الذهب تجلس عليها . وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب . وجعلوا الطعام سِماطين ، وعلى كل سماط صفان . ويكون فى رأس الصف كبير القوم الواردين . ولما تقدّمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم . ثم أتوا بالشَّرْبة فشربنا . وقال الحجاب : باسم الله . ثم أكلنا، وأتوا بالفُقَّاع ثم بالتَّانَبُول(١) ، ثم قال الحجاب :

(١) تقدم فى الحواشى تفسير (الشربة) و (الفقاع) و (التانبول) .

باسم الله ، لخدمنا جميعا . ثم دُعِينا إلى موضع هنالك ، نخلع علينا خِلع الحرير المذهبة . ثم أتوا بنا إلى باب القصر لخدمنا عنده ، وقال الحجاب : باسم الله . ووقف الوزير ووقفنا معه . ثم أخرج من داخل القصر تَخْت (١) ثياب غير مخيطة من حرير وكتّان وقطن . فأعطى كل واحد منا نصيبه منها . ثم أتوا بِطَيْفُور (٢) ذهب فيه الفاكهة اليابسة ، وبطيفور مثله فيه الجُلّاب ، وطيفور ثالث فيه التَّانْبُول . ومن عادتهم أن الذى يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ، ثم يخدم بيده الأخرى إلى الأرض . فأخذ الوزير الطيفور بيده ليعلمنى كيف أفعل ، إيناسا منه وتواضعا ومَبَرَّة . جزاه الله خيرا . ففعلت كفعله . ثم انصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلى . وبُعِث لنا الضيافة .

ذكر الضيافة

ولما وصلت إلى الدار التى أُعِدّت لنزولى ، وجدت فيها ما يُحْتاج إليه من فرش وبُسُط وحُصُر وأوان وسرير الرقاد . وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل . يحمل السرير منها الرجل الواحد . ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر يحمله غلامه على رأسه . وهو أربع قوائم مخروطة ، يعرض عليها أربعة أعواد . وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن . فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به ، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير (بمُضَرَّبتين (٣)) ومِخَدّتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير . وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللُّحُف وجوها تغشّيها من كتّان أو قطن بيضا ، فمتى توسخت

(١) التخت وعاء تصان فيه الثياب . قاموس .

(٢) الطيفور : طائر صغير كما فى القاموس . ويراد به هنا وعاء على صورة هذا الطائر ، كما يظهر .

(٣) يقصد بالمضربة الحَشِيّة .

غسلوا الوجوه وبقى ما فى داخلها مصونا . وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى ، والآخر الجزار، ويسمونه القصّاب، فقالوا لنا : خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحم ، لأوزان لا أذكرها الآن . وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق . وهذا الذى ذكرناه ضيافة أم السلطان . وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان، وسنذكرها .

ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان ، وسلمنا على الوزير ، فأعطانى بِدْرَتين كل بدرة من ألف دينار دراهم . وأعطانى خلعة من المِرْعِزّ[1] . وكتب جميع أصحابى وخدامى وغلمانى فَجُعِلوا أربعة أصناف : فالصنف الأول منها أعطى كل واحد منهم مائتى دينار ، والصنف الثانى أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا ، والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار ، والصنف الرابع أعطى كل واحد خمسة وسبعين دينارا . وكانوا نحو أربعين . وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيّفا . وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان ، وهى ألف رطل هندية من الدقيق ، ثلثها من الدَّرْمَك[2] ، وثلثاها من الخشكار[3] ، وألف رطل من اللحم ، ومن السكر والسمن والفَوْفَل أرطال كثيرة لا أذكر عددها . وألف من ورق التَّنْبُول . والرطل الهندى عشرون رطلا من أرطال المغرب ، وخمسة وعشرون من أرطال مصر . وكانت ضيافة خُدَاوَنْد زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ، ومثلها من اللحم ، مع ما يناسبها مما ذكرناه .

---

(١) المرعز : الزغب الذى تحت شعر العنز ، كما فى كتب اللغة .

(٢) الدرمك : دقيق الحُوَّارَى ، وهو الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق .

(٣) كلمة فارسية معناها ماخشن من الطحين ، ويسمى بالعربية القُصْرَى كبشرى .

ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك

ولما كان بعد شهر ونصف من مَقْدَمنا ، توفيت بنت لى سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير ، فأمر أن تدفن فى زاوية بناها فى خارج (دِرْوَازة بَالَم) ، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القُونَوِى . فدفناها بها . وكتب بخبرها إلى السلطان ، فأتاه الجواب فى عَشِىّ اليوم الثانى . وكان بين مُتَصَيَّد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام . وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ، ويَفْرُشون جوانب القبر بالبُسُط وثياب الحرير ، ويجعلون على القبر الأزاهير ، وهى لا تنقطع هنالك فى فصل من الفصول . ويجعلون أغصان النَّارَنْج والليمون بثمارها . وإن لم يكن فيها ثمار علّقوا منها حبات بالخيوط . ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجَوْز النَّارجِيل . ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرءون القرآن . فإذا ختموه أتوا بماء الجُلّاب[١] فسقوه الناس . ثم يصب عليهم ماء الورد صبا . ويعطون التَّانْبُول وينصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت ، خرجت عند الصبح على العادة وأعددت ما تيسر من ذلك كله ، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك ، وأمر بسرّاجة فضربت على القبر ، وجاء الحاجب شمس الدين الفُوشَنْجى[٢] ، الذى تلقانا بالسند ، والقاضى نظام الدين الكَرَوَانى[٣] ، وجملة من كبار أهل المدينة . ولم آت إلا والقوم قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم ، وهم يقرءون القرآن . فقعدت مع أصحابى بمقربة من القبر . فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان . ثم قام القاضى فقرأ رثاء فى البنت المتوفاة وثناء على السلطان . وعند ذكر اسمه

---

(١) الجُلّاب ماء الورد معرب . قاموس .

(٢) نسبة إلى فُوشَنْج وهى بُوشَنْج . انظر ص ١٣

(٣) لعله نسبة إلى كَروان ، قرية بطُوس . ياقوت .

قام الناس جميعا قياما نخدموا ثم جلسوا . ودعا القاضى دعاء حسنا ، ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوه على الناس ، ثم داروا عليهم بأقداح شَرْبة النبات . ثم فرقوا عليهم التَّانَبُول . ثم أتى بإحدى عشرة خلعة لى ولأصحابى . ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان ، نخدمنا للسرير على العادة . وانصرفت إلى منزلى . فما وصلت حتى جاء الطعام من دار المخدومة جِهان ، ما ملأ الدار ودُور أصحابى . وأكلوا جميعا وأكل المساكين . وفضلت الأقراص والحلواء والنبات ، فأقامت بقاياها أياما . وكان ذلك كله بأمر السلطان . وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان (بالدولة) وهى المِحَفّة التى تُحْمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضا ، وهى شبه السرير ، سطحها من ضفائر الحرير أو القطن ، وعليها عود معوج من القصب الهندى ، يحملها ثمانية رجال فى نَوْبتين ، يستريح أربعة ويحمل أربعة . وهذه (الدول) بالهند كالحمير بديار مصر ، عليها يُحْمل أكثر الناس ، فمن كان له عبيد حملوه ، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه . وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون فى الأسواق ، وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكراء. وتكون(دول) النساء مغشاة بغشاء حرير. وكذلك كانت هذه (الدولة)التى أتى الفتيان بها من دار أم السلطان، فحملوا فيها جاريتى التى هى أم البنت المتوفاة . وبعثت أنا معها هدية جارية تركية . فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت فى اليوم الثانى ، وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا [1] من الذهب مرصعا أيضا ، وقميص كتّان مزركشا بالذهب ، وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب . ولما جاءت بذلك كله أعطيته أصحابى والتجار الذين لهم علىّ الدين ، محافظة على نفسى وصونا لعرضى ، لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى .

---

(١) نوع من القلائد ، غير عربية فى هذا المعنى ، فيما نعلم .

ذكر إحسان السلطان والوزير إلىّ في أيام غَيْبة السلطان عن الحضرة

وفى أثناء مُقامى أمر السلطان أن يعيّن لى من القُرى ما يكون فائده خمسة آلاف دينار فى السنة. فعينها لى الوزير وأهل الديوان ، وخرجت إليها . وهذه القرى على مسافة ستة عشر (كُرُوها) وهو الميل ، بِصَدَّى يعرف بصدى هِنْدُبَت ، والصدى عندهم مجموع مائة قرية . وأحْواز المدينة مقسومة أصداء ، كل صدى له (جَوْطَرِىّ) ، وهو شيخ من كفار تلك البلاد ، ومتصرف، وهو الذى يضم مجابيها . وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبْى من الكفار ، فبعث الوزير إلىّ عشر جوار منه .

والكفار ببلاد الهند فى بَرٍّ متصل و بلاد متصلة مع المسلمين . والمسلمون غالبون عليهم . و إنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ، ولهم غَيْضات من القصب . وقصبهم غير مجوّف ، و يعظم و يلتف بعضه على بعض ، ولا تؤثر فيه النار . وله قوة عظيمة . فيسكنون تلك الغياض وهى لهم مثل السور . وبداخلها تكون مواشيهم و زروعهم ، ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر ، فلا يُقْدَر عليهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، و يقطعون ذلك القَصَب بآلات معدّة لذلك .

ذكر العيد الذى شهدته أيام غَيْبة السلطان

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة . فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل ، وقد مهد له على ظهره شبه السرير . وركزت أربعة أعلام فى أركانه الأربعة . ولبس الخطيب ثياب السواد . وركب المؤذنون على الفيلة يُكَبِّرون أمامه، وركب فقهاء المدينة وقضاتها . وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى . ونصب على المصلًّ (صيوان) قطن ، وفرش ببسط . واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى . ثم صلى بهم الخطيب وخطب ، وانصرف الناس إلى منازلهم ، وانصرفنا إلى دار السلطان. وجعل الطعام، فحضره الملوك والأمراء والأعزة وهم الغرباء ، وأكلوا وانصرفوا .

ذكر قدوم السلطان ولقائنا له

ولما كان فى رابع شوّال نزل السلطان بقصر يسمى تِلْبَت ، على مسافة سبعة أميال من الحضرة . فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ، ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الُخراسانية والسيوف المصرية ، والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك . فوصلنا إلى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين ، فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ، ويخلع عليهم ثياب الكتّان المزركشة بالذهب . ولما وصلت النوبة إلىّ ، دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسى ، فظننته أحد الحجاب ، حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهَرَوِىّ، وكنت عرفته أيام غَيْبةِ السلطان . فخدم الحاجب فخدمت . واستقبلنى (أميرحاجب) ، وهو ابن عم

السلطان المسمى بِفَيْرُوز ، وخدمت ثانية لخدمته . ثم قال لى ملك الندماء : باسم الله ، مولانا بدر الدين ، وكانوا يدعوننى بأرض الهند بدر الدين . وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا . فَقَرُبت من السلطان ، حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك يدى ، وجعل يخاطبنى بأحسن خطاب ، و يقول لى باللسان الفارسى : حلّت البركة ، قدومك مبارك ، (اجمع خاطرك[1]) ، أعمل معك من المراحم ، وأعطيك من الإنعام ما يسمع به أهـل بلادك فيأتون إليك . ثم سألنى عن بلادى ، فقلت له : بلاد المغرب . فقـال لى : بلاد عبد المؤمن ؟ فقلت له : نعم . وكان كلما قال لى كلاما جيدا قبلت يده ، حتى قبلتها سبع مرات . وخلع علّى وانصرفت . واجتمع الواردون ، فمدّ لهم سماط ، ووقف على رءوسهم قاضى القضاة صـدْر الجهان ناصر الدين الخُـوَارَزْمِىّ ، وكان من كبار الفقهاء ، وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغَزْنَوِىّ ، وعماد المُلْك ، والملك جلال الدين الكِيجِىّ ؛ و جماعة من الحجاب والأمراء . وحضر لذلك خُدَاوَنْدزاده غِياث الدين ، ابن عم خداوند زاده قِوام الدين قاضى تِرْمِذ الذى قَدم معنا . وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ ، وتردّد إليه مرارا من بلاده .

والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك اليوم هم خُداوند زاده قِوام الدين ، و إخوته ضياء الدين وعمـاد الدين و برهان الدين ، وابن أختـه أمير بَخْت ابن السيد تاج الدين ، وكان جده وجيه الدين وزير خُراسان ، وكان خاله علاء الدين أمير هِنْد ووزيرا أيضا ، والأمير هبة الله ابن الفلكى التَّبْرِيزى ، وكان أبوه نائب الوزير بالعراق ، وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتَبريز ، وملك كَرَاىْ من أولاد بَهْرام جور صاحب كِسْرى ، وهو من أهـل جبل

(١) تعبير غريب . و يظهر أنه يريد : كن مطمئنا إلى الإقامة بيننا .

بَذَخْشان الذى منه يجلب الياقوت البَلَخْش واللازَوَرْد ، والأمير مبارك شاه السَمَرْقَنْدى ، وأُرُن بُغَا البُخارى ، وملك زاده التِرْمِذى ، وشهاب الدين الكَازَرُونى (١) التاجر الذى قَدِم من تَبْرِيز بالهدية إلى السلطان ، فَسُلِب فى طريقه .

ذكر دخول السلطان حضرته وما أمر لنا به من المراكب

وفى الغد من يوم خروجنا إلى السلطان ، أُعْطِى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان ، عليه سرج ولجام مُحَلَّيان . وركب السلطان لدخول حضرته ، وركبنا فى مقدمته مع صدر الجِهان ، وزينت الفيلة أمام السلطان ، وجعلت عليها الأعلام ، ورفع عليها ستة عشر (شطرا) ، منها مزركشة ومنها مرصعة ، ورفع فوق رأس السلطان (شطر) منها . وحملت أمامه الغاشية وهى ستارة مرصعة ، وجعل على بعض الفيلة رعَّادات (٢) صغار . فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة ، رمى فى تلك الرعادات بالدنانير والدراهيم مختلطة ، والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك . ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا إلى القصر . وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام . وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير ، وفيها المغنيات ، على ما ذكرنا ذلك .

---

(١) نسبة الى كازَرُون ، مدينة بفارس بين البحرين وشيراز . ياقوت .

(٢) سبق تفسيرها فى الحواشى .

ذكر دخولنا عليه
وما أنعم به من الإحسان والولاية

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان، أتينا باب (المشور) فجلسنا فى سقائف الباب الثالث . ولم يكن قد أذن لنا بالدخول ، وخرج الحاجب شمس الدين الفُوشَنْجى ، فأمر الكتّاب أن يكتبوا أسماءنا ، وأذن لهم فى دخولنا ودخول بعض أصحابنا . وعين للدخول معى ثمانية ، فدخلنا ودخلوا معنا . ثم جاءوا بالبِدَر والقَبّان وهو الميزان . وقعد قاضى القضاة والكتّاب، ودعوا من بالباب من الأعزة وهم الغرباء، فعينوا لكل إنسان نصيبه من تلك البدر . فكان لى منها خمسة آلاف دينار . وكان مبلغ المال مائة ألف دينار ، تصدقت به أم السلطان لمّا قدم ابنها . وانصرفنا ذلك اليوم . وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ، ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام . ولقد قال لنا فى بعض الأيام : أنتم شرفتمونا بقدومكم ، فما نقدر على مكافأتكم ، فالكبير منكم فى مقام والدى ، والكهل فى مقام أخى ، والصغير فى مقام ولدى ، وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها . فشكرناه ودعونا له . ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات ، فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل : إحداهما قرية جَوْزة والثانية قرية مَلِك بُور . وفى بعض الأيام بعث لنا خُداوَنْدزاده غياثَ الدين وقُطْبَ المُلْك صاحبَ السند ، فقالا لنا إن خَوَنْدَ عَالَم يقول لكم : من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك . فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم . وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين

الذى تقــدم ذكره فقال : أما الوزارة فميراثى وأما الكتابة فشغلى ، وغير ذلك لا أعرفه . وتكلم هبة الله ابن الفلكى، فقال مثل ذلك . وقال لى خُدَاوَنْدزاده بالعربى: ما تقول أنت ياسيدى ؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربى إلا بالتسويد ، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب . فقلت له : أما الوزارة والكتابة فليستا شغلى ، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل آبائى ، وأما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب . فلمـا بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامى . وكان (بِهَزار أُسْطون)يأكل الطعام ، فبعث إلينا فأكلنا بين يديه وهو يأكل.ثم انصرفنا إلى خارج هَزَار أُسْطون ، فقعد أصحابى،وانصرفت بسبب دُمَّل كان يمنعنى الجلوس.فاستدعانا السلطان ثانية، فحضر أصحابى واعتذروا له عنى . وجئت بعد صلاة العصر فصليت (بالمشور) المغرب والعشاء الآخرة . ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خُدَاوَنْدزاده ضياء الدين، وهو أكبر الإخوة المذكورين، فجعله السلطان (أمير داد) ، وهو من الأمراء الكبار . فجلس بمجلس القاضى ، فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه . وجعل مرتبه على هذه الخُطَّة [١] خمسين ألف دينار فى السنة.وعيّن له مجَاشِر[٢] فائدها ذلك المقدار ، وأمر له بخمسين ألفا عن يد، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة، تسمى صورة الشِير، ومعناه صورة السبع ، لأنه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع .وأمر له بفرس من الجنس الأول . والخيل عندهم أربعة أجناس . وسروجهم كسروج أهل مصر ، ويكسون أَعْظَمها بالفضة المذهبة . ثم دخل أمير بَخْت ، فأمره أن يجلس مع الوزير فى مُسْنَده، ويقف على محاسبات الدواوين، وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة ، وأعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك، وأُعْطِى أربعين ألفا عن يد ،

(١) المقصود بالخطة : العمل الذى يتولاه وهو القضاء .

(٢) يراد بها هنا المراعى، جمع مجشر ، وقوله (فائدها ذلك المقدار) أى مستغلها ذلك .

وأعطى فرسا مجهزا ، وخلع عليه كخلعة الذى قبله ، ولقب شرف المُلْك .ثم دخل هبة الله ابن الفلكى بجعله (رسول دار) ، ومعناه حاجب الإرسال . وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة ، وأُعْطِى مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعة وعشرين ألفا عن يد ، وأعطى فرسا مجهزا وخِلْعة ، وجعل لقبه بهاء الملك .

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا إلى السرير ، والوزير خواجه جِهان بين يديه ، والملك الكبير قَبُولة واقف بين يديه . فلما سلمت عليه قال لى الملك الكبير : اخْدُم فقد جعلك خَوَنْد عَالَم قاضى دار الملك ، دِهْلى ، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وعين لك مجاشر بمقدارها ، وأمر لك باثنى عشر ألفا نقدا ، تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله ، وأعطاك فرسا بسرجه ولجامه ، وأمر لك بخلعة مُحرابية ، وهى التى يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب . فخدمت . وأخذ بيدى فتقدم بى إلى السلطان ، فقال لى السلطان : لا تحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا . وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه . وكان السلطان يفهم العربى ولا يحسن الجواب عنه . فقلت له : يامولانا ، أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية ، وأنا لا أعرف اللسان . فقال لى : قد عينت بهاء الدين المُلْتَانىّ وكمال الدين البِجْنَوْرِىّ ينوبان عنك ويشاورانك ، وتكون أنت تسجل على العقود ، وأنت عندنا بمقام الوالد . فقلت له : بل عبدكم وخادمكم . فقال لى باللسان العربى : بل أنت سيدنا ومخدومنا ، تواضعا منه وفضلا وإيناسا . ثم قال لشرف المُلْك أمير بَخْت : إن كان الذى رُتِّب له لا يكفيه ، لأنه كثير الإنفاق ، فأنا أعطيه زاوية ، إن قدر على إقامة حال الفقراء . وقال : قل له هذا بالعربى . وكان يظن أنه يحسن العربى ، ولم يكن كذلك . وفهم السلطان ذلك ، فقال له : امشيا الليلة فارقدا فى موضع واحد ،

وفهّمه هذه الحكاية . فإذا كان الغد إن شاء الله تجيء إلىّ وتعلمنى بكلامه . فانصرفنا وذلك فى ثلث الليل ، وقد ضُربت النَّوْبة . والعادة عندهم إذا ضربت أنه لايخرج أحد. فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه . ووجدنا أبواب دهلى مسدودة ، فبتنا عند السيد أبى الحسن العِبَادىّ العِراقىّ ، بزُقَاق يعرف بِسَرَابُورْخَان . وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشترى له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان . ولما كان الغد بُعث إلينا فقبضنا الأموال والخيل والخلع . وأخذ كل واحد منا البِدْرة بالمال ، فجعلها على كاهله . ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا ، وأتينا بالأفراس فقبلنا حوافرها، بعد أن جعلت عليها الخرق . وقدناها بأنفسنا إلى باب دار السلطان ، فركبناها . وذلك كله عادة عندهم . ثم انصرفنا وأمر السلطان لأصحابى بألفى دينار وعشر خلع. ولم يعط أصحاب أحد سواى شيئا . وكان أصحابى لهم رُواء ومنظر ، فأعجبوا السلطان ، وخدموا بين يديه وشكرهم .

ذكر عطاء ثان أمر لى به ، وتوقُّفه مدة

وكنت يوما (بالمشور) بعد أيام من توليتى القضاء والإحسان إلىّ ، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك ، وإلى جانبى مولانا ناصر الدين التِرْمذى العالم الواعظ ، فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين ، فدخل إلى السلطان فخلع عليه ، وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر . ثم أتانى بعض الحجاب فقال : أعطنى شيئا فآخذ لك (خَطّ خُرْد)[1] باثنى عشر ألفا ، أمر لك بها خَوَنْد عَالَم ، فلم أصدقه ، وظننته يريد الحيلة علىّ ، وهو جادّ فى كلامه . فقال بعض الأصحاب أنا أعطيه ، فأعطاه دينارين أو ثلاثة وجاء (بِخَطّ خُرْد) ، ومعناه الخط الأصغر ، مكتوبا

---

(١) يمكن أن يفسر بعبارة (إذن الصرف) فى الاصطلاح المالى الآن .

بتعريف الحاجب ، ومعناه : أمر خَوَنْد عَالَم أن يعطى فـلان من الخزانة الموفورة كذا ، بتبليغ فلان أى بتعريفه. و يكتب المبلغ اسمه ، ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء: وهم الخان الأعظم قُطْلوخان ، معلم السلطان، والخريطة دار ، وهو صـاحب خريطة الكاغَد والأقلام ، والأمير نُكْبِيَة (الدوادار)، صاحب الدواة. فإذا كتب كل واحد منهم خطه ، يذهب بالبراءة إلى ديوان الوزارة ، فينسخها كتاب الديوان عندهم ، ثم تثبت فى ديوان الإشراف ، ثم تثبت فى ديوان النظر ، ثم تكتب (البِروَانة) ، وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ، ثم يثبتها الخازن فى ديوانه . و يكتب تلخيصا فى كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان من المـال و يعرضه عليه . فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ، ومن أراد التأجيل أجل له ، ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة. فقد أجلت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر، ثم أخذتها مع غيرها على ما يأتى. وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد أن يُحطّ منه العُشْر . فمن أمر له مثلا بمائة ألف أعطِى تسعين ألفـا ، أو بعشرة آلاف أعطى تسعة آلاف .

ذكر طلب الغرماء مالهم قِبَلى ، ومدحى للسلطان ، وأمره بخلاص دينى ، وتوقف ذلك مدة

وكنت على ما ذكرته قد استدنت من التجار مالا أنفقته فى طريق ، وما صنعت به الهدية للسلطان ، وما أنفقته فى إقامتى . فلما أرادوا السفر إلى بلادهم ألحوا على فى طلب ديونهم. فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها :

إليـك أمير المؤمنين المبجّلا * أتينا نجـدّ السير نحوك فى الفَـلا
فجئت محلا من عَلائِك زائرا * ومَغْنَاك كهف للزيارة أُهِّـلا

فلو أنّ فوق الشمس للمجد رتبة * لكنت لأعلاها إماما مؤهّلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذى * سجاياه حتما أن يقول و يفعلا
ولى حاجة من فيض جودك أرتجى * قضاها وقصدى عند مجدك سُهِّلا
أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم * فإن حياكم ذكره كان أجملا
فَعَجِّلْ لمن وافى محلك زائرا * قضا دينه إن الغريم تَعَجَّلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسىّ ، فجعلها على ركبته ، وأمسك طرفها بيده ، وطرفها الثانى بيدى. وكنت إذا أكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغَزْنَوِى : بين معناه لخَوَنْد عَالَم ، فيبينه ، و يعجب السلطان . وهم يحبون الشعر العربى . فلما بلغت قولى : فعجل لمن وافى ، البيت ، قال : مرحمة. ومعناه : ترحمت عليك . فأخذ الحجاب حينئذ بيدى ليذهبوا بى إلى موقفهم ، وأخدم على العادة . فقال السلطان : اتركوه حتى يكملها فأكملتها وخدمت . وهنأنى الناس بذلك . وأقمت مدة وكتبت رَفْعًا ، وهم يسمونه (عرض داشت) ، فدفعته إلى قطب المُلْك صاحب السند فدفعه للسلطان. فقال له : امض إلى خواجة جِهان فقل له يعطى دينه ، فمضى إليه وأعلمه فقال : نعم . وأبطأ أياما . وأمره السلطان فى خلالها بالسفر إلى دولة آباد . وفى أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد، وسافر الوزير، فلم آخذ شيئا إلا بعد مدة .

والسبب الذى توقف به العطاء أذكره مستوفى : وهو أنه لما عزم الذين كان لهم علىّ دين على السفر ، قلت لهم : إذا أنا أتيت دار السلطان (فَدَرِّهونى)[1]، على العادة فى تلك البلاد، لعلمى أن السلطان متى علم بذلك خلصهم . وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية وأعوزه خلاصه ، وقف له بباب دار السلطان . فإذا أراد الدخول قال له :

---

(١) اهجموا علىّ ، وقولوا لى : (دَرُوهَى السلطان) ، كما فى الصفحة التالية . وقد اشتق المؤلف هذا الفعل من كلمة (دَرُوهَى) ، كما هو ظاهر .

(دَرُوهَى)[١] السلطان ، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلّصنى ، فلا يمكنه أن يبرح مكانه حتى يخلصه أو يرغب إليه فى تأخيره . فاتفق يوما أن خرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك . فقلت لهم : هـذا وقتكم . فلما أردت الدخول وقفوا لى بباب القصر ، فقالوا لى : (دَروهَى) السلطان ، ما تدخل حتى تخلصنا . وكتب كتّاب الباب بذلك إلى السلطان ، فخرج (حاجب قصة) شمس الدين ، وكان من كبار الفقهاء ، فسألهم لأى شئ (درهتّموه) ؟ فقالوا : لنـا عليه الدين. فرجع إلى السلطان فأعلمه بذلك . فقال له : اسألهم كم مبلغ الدين ؟ فسألهم ، فقالو له : خمسة وخمسون ألف دينار . فعاد إليه فأعلمه . فأمره أن يعود إليهم و يقول : إن خَوَنْدَ عَالَمَ يقول لكم : المـال عندى وأنا أنصفكم منه ، فلا تطالبوه به . وأمر عمـاد الدين السِّمْنانى وخُداوَنْد زاده غياث الدين أن يقعدا (بِهَزار أُسْطُون) ،و يأتى أهل الدين بعقودهم ، وينظرا إليهـا و يتحققاها . ففعـلا ذلك . وأتى الغرماء بعقودهم ، فدخلا على السلطان وأعلمـاه بثبوت العقـود ، فضحك وقال ممازحا : أنا أعلم أنه قاض جَهَّزَ شغله فيها . ثم أمر خُداوند زاده أن يعطينى ذلك من الخزانة ، فطمع فى الرشوة على ذلك ، وامتنع أن يكتب(خَطّ خُرْد)، فبعثت إليه مائتى تنكة . فردّها ولم يأخذها. وقال لى عنه بعض خدامه : إنه طلب خمسمائة تنكة . فامتنعت من ذلك، وأعلمت عَميد الملك بن عماد الدين السِّمنانى بذلك . فأعلم به أباه وعلِمَه الوزير . وكانت بينه و بين خُداوَنْد زاده عداوة . فأعلم السلطان بذلك، وذكر له كثيرا من أفعال خُداوند زاده ، فغير خاطر السلطان عليه، فأمر بحبسه فى المدينة. وقال : لأى شيء أعطاه فلان ما أعطاه ؟ قِفُوا ذلك حتى يُعلم هل يعطى خُداوند زاده شيئا إذا منعتُه ، أو يمنعه إذا أعطيتُه . فبهذا السبب توقف عطاء دينى[٢] .

(١) يا عدوّ السلطان !

(٢) فى عبارة السلطان شيء من غموض المعنى .

ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجى معه وما صنعت فى ذلك

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير تربُّص وكنت قد أعددت مايحتاج إليه، وعملت ترتيب أهل الهند: فاشتريت (سَرَّاجة) ، وضربها هنالك مباح . ولابدّ منها لكبار الناس . وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق . واشتريت (الصيوان) وهو الذى يظلل به داخل السراجة، ويرفع على عمودين كبيرين . ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم (الكيوانية) . والعادة هنالك أن يكترى المسافر (الكيوانية) وقد ذكرناهم، ويكترى من يسوق له العُشْب لعلف الدواب، لأنهم لا يُطعِمونها التبن، ويكترى (الكهّارين)، وهم الذين يحملون أوانى المطبخ، ويكترى من يحمله فى (الدولة)، وقد ذكرناها، ويحملها فارغة، ويكترى الفراشين، وهم الذين يضربون السرّاجة ويَفْرُشونها ويرفعون الأحمال على الجمال . ويكترى (الدَّوَادويَّة)، وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل. فاكتريت أنا جميع من احتجت إليه منهم وأظهرت القوة والهمة. وخرجت يوم خروج السلطان ، وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة . فلمّا كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل ، وقصده أن يطّلع على أحوال الناس ويعرف من سارع إلى الخروج ومن أبطأ . وجلس خارج السراجة على كرسىّ ، فجئت وسلمت ، ووقفت فى موقفى بالميمنة ، فبعث إلى الملك الكبير قَبُولة ، فأمرنى بالجلوس عناية بى ، ولم يجلس فى ذلك اليوم سوَائى . ثم أتِى بالفِيل وأُلصِق به سُلَّم فركب عليه، ورفع (الشطر) فوق رأسه، وركب معه الخواص ، وجال ساعة . ثم عاد إلى السراجة . وعادته إذا ركب أن

يركب الأمراء أفواجا، كل أمير بفَوْجه وعلاماته وطبوله (وأنقاره وصُرْنا ياته). ويسمون ذلك المراتب. ولا يركب أمام السلطان إلا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار، والذين يضربون الصرنايات. ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا، وعن يساره مثل ذلك، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة. وكنت أنا من أهل مَيْمنته. ويكون بين يديه المشاءون والأدِلّاء. ويكون خلفه علاماته، وهى من الحرير المذهب، والأطبال على الجمال، وخلف ذلك مماليكه وأهل دُخْلته (١)، وخلفهم الأمراء وجميع الناس.

ولا يعلم أحد أين يكون النزول. فإذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول. ولا تضرب سرّاجة أحد حتى تضرب سراجته. ثم يأتى الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله. وفى خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار. وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمّنة والكراكىّ (٢) وغيرها من أنواع الصيد. ويحضر أبناء الملوك وفى يد كل واحد منهم سَفُّود (٣)، ويوقدون النار ويشتوون ذلك. ويؤتى (بسرّاجة) صغيرة فتضرب للسلطان، ويجلس من معه من الخواص فى خارجها، ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فيأكل معه. وكان فى بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها. فقال له السيد ناصر الدين مُطَهّر الأوْهَرى أحد ندمائه: ثَمّ فلان المغربى وهو متغير. فقال لماذا؟ فقال: بسبب الدين الذى عليه وغرماؤه يُلِحُّون فى الطلب، وكان خَوَنْدَ عَالَم قد أمر الوزير (٤) بإعطائه فسافر قبل ذلك. فإن أمر مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير، أو أمر بإنصافهم. وحضر لهذا الملك دَوْلة شاه، وكان السلطان يخاطبه بالعم، فقال: ياخَوَنْدَ عَالَم، كل يوم هو يكلمنى بالعربية

(١) بطانته، بثلثة الدال.
(٢) جمع كُرْكى، طائر.
(٣) السفود الحديدة التى يشوى بها اللحم.
(٤) أى خواجة جهان.

ولا أدرى ما يقول ؟ يا سيدى ناصر الدين ماذا ؟ فقال : يتكلم لأجل الدين الذى عليـه . فقال السلطان : إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أومار، ومعناه يا عم، إلى الخزانة فأعطه ذلك المـال . وكان خُدَاوَنْد زاده حاضرا فقال : يا خَوَنْد عَالَم ، إنه كثير الإنفاق وقد رأيتـه ببلادنا عند السلطان طَرْمَشِيرِين . وبعد هـذا الكلام استحضرنى السلطان للطعام ولا علم عندى بمـا جرى . فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين : اشكر للملك دولة شاه . وقال لى الملك دولة شاه : اشكر لخُدَاوَنْدزاده . وفى بعض تلك الأيام ونحن مع السلطان فى الصيد، ركب فى المَحَلَّة، وكان طريقه على منزلى، وأنا معه فى الميمنة، وأصحابى فى السَّاقَة . وكان لى خِباء عند (السراجة). فوقف أصحابى عندها وسلَّموا على السلطان ، فبعث عماد المُلْك والملك دولة شاه ليسألا : لمن تلك الأخبية والسراجة ؟ فقيل لهما : لفلان ، فأخبراه بذلك فتبسم . فلما كان الغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مُطَهَّر الأَوْهَرِىّ وابن قاضى مصر والملك صَبِيح إلى البلد ، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة .

ذكر الجمل الذى أهديته إلى السلطان

وكان السلطان فى تلك الأيام سألنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل ؟ فقلت له : نعم يركب المهارِى(١) فى أيام الحج ، فيسير إلى مكة من مصر فى عشرة أيام . ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد . وأخبرته أن عندى جملا منها . فلما عدت إلى الحضرة بحثت عن بعض عرب مصر، فصوّر لى صورة الكُور(٢) الذى تُرْكب المَهَارِىّ به، من القِير(٣)، وأريتها بعض النجارين ، فعمل الكور

(١) نوع جيد من الإبل . جمع مَهْرِيّة ، نسبة إلى حى من العرب .
(٢) الكور الرحل بأداته .
(٣) الزفت .

وأتقنه وكسوته (بالمِلفّ) ، وجعلت على الجمـل عباءة حسنة وجعلت له خِطَام (١) حرير. وكان عنـدى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء ، فصنع منها ما يشبه التمر وغيره . و بعثت الجمل والحلواء إلى السلطان . وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد الملك دولة شاه . و بعثت له بفرس و جملين . فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال : يا خَوَنْدَ عَالَمَ ، رأيت العجب ! قال وما ذلك؟ قال: فلان بعث جملا عليه سرج . فقال : ائتوا به . فأدخل الجمل فى داخل (السراجة) . وأُعْجِب به السلطان . وقال لرجلى : اركبه ، فركبه ومشّاه بين يديه . وأمر له بمائتى دينـار دراهم وخلعة . وعاد الرجل إلىّ فأعلمنى ، فسرنى ذلك . وأهديت إليه جملين بعد عودته إلى الحضرة .

ذكر الجملين اللذين أهديتهما إليه والحلواء، وأمره بخلاص دينى وما تعلّق بذلك

ولمـا عاد إلىّ رجلى الذى بعثته بالجمل ، فأخبرنى بمـا كان من شأنه ، صنعت كُورين اثنين ، وجعلت مُقَدّم كل واحد ومُؤَخّره مكسواً بصفائح الفضة المذهبة ، وكسوتهما (بالملف) وصنعت رَسَنا (٢) مصفّحا بصفائح الفضة ، وجعلت لهما جُلَّين (٣) من زردخانة (٤) مبطّنين بالكَمْخا (٥) ، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة ، وصنعت أحد عشر طَيْفُورا (٦) وملأتها بالحلوى ، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير. فلمّا قدم السلطان من الصيد ، وقعد ثانى يوم قدومه بموضع جلوسه العام ، غدوت عليه بالجملين ، فأمر بهما فحركا

---

(١) ما يقتاد به البعير .
(٢) الرسن : الحبل .
(٣) الجل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به .
(٤) نسيج من حرير رقيق ، غير عربية .
(٥) نسيج ذو نقوش بارزة ، بلسانهم .
(٦) سبق الكلام عليه فى الحواشى ، وكذا سبق الكلام على معنى (الملف) .

بين يديه وهَرْولا ، فطار خَلْخَال احدهما . فقال لبهاء الدين ابن الفلكى : ارفع الخلخال ، فرفعه . ثم نظر إلى الطيافير فقال : ما معك فى تلك الصِحاف ، حلواء هى ؟ فقلت له نعم . فقال للفقيه ناصر الدين التِّرمذى الواعظ : ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التى بعثها إلينا ونحن بالمعسكر . ثم أمر بتلك الطيافير أن تُرْفع لموضع جلوسه الخاص ، فرفعت . وقام إلى مجلسه واستدعانى ، وأمر بالطعام فأكلت . ثم سألنى عن نوع من الحلواء بعثت له قَبْلُ ، فقلت له : ياخَوَنْد عالَم ، تلك الحلواء أنواعها كثيرة ، ولا أدرى عن أى نوع تسألون منها ؟ فقال : ائتوا بتلك الأطباق . وهم يسمون الطيفور طبقا ، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها . فقال : عن هذا سألتك . وأخذ الصحفة التى هى فيها . فقلت له : هذه يقال لها المُقَرَّصة . ثم أخذ نوعا آخر فقال : وما اسم هذه ؟ فقلت له : هى لُقَيْمات القاضى . وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامرىّ ، وينتسب إلى آل العباس ، رضى الله تعالى عنه . وهو كثير المـال ، ويقول له السلطان : والدى . فحسدنى وأراد أن يخجلنى . فقال : ليست هذه لقيمات القاضى ، بل هى هذه . وأخذ قطعة من التى تسمى جلد الفرس . وكان بإزائه ملك الندماء ، ناصر الدين الكافى الهَرَوىّ ، وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدى السلطان ، فقال له : يا خواجة ، أنت تكذب ، والقاضى يقول الحق . فقال له السلطان : وكيف ذلك ؟ فقال ياخَوَنْد عالَم : هو القاضى وهى لقيماته ، فإنه أتى بها . فضحك السلطان ، وقال صدقت . فلمـا فرغنا من الطعام أكلنا الحلواء ثم شربنا الفُقَّاع بعد ذلك . وأخذنا التَّانبُول وانصرفنا . فلم يكن غير هنيهة حتى أتانى الخازن ، فقال : ابعث أصحابك يقبضون المـال فبعثتهم . وعدت إلى دارى بعد المغرب فوجدت

المـال بها . وهو ثلاث بِدَر، فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنْكة. وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التى هى دين علىّ ، وَصَرْف الاثنى عشر ألفا التى أمر لى بها فيما تقدم ، بعد حطّ العُشْر على عادتهم . وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لى بالإقامة بالحضرة

وفى تاسع جُمادَى الأولى، خرج السلطان يقصد بلاد المَعْبَر وقتال القائم بها. وكنت قد خلّصت أصحاب الدين وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتّب تسعة أشهر للكهّارين والفراشين والكيوانيّة والدّوادوية[1] ، وقد تقدم ذكرهم . فخرج الأمر بإقامتى فى جملة ناس ، وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له . وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلَّغ .

وأُمِر لى بستة آلاف دينار دراهم . وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف. وكذلك كلّ من أقام من الأعزة . وأما البلديون فلم يعطوا شيئا . وأمرنى السلطان أن أتولى النظر فى مقبرة السلطان قطب الدين الذى تقدم ذكره . وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لأنه كان خادما له . ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبلها ويجعلها فوق رأسه . وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متّكأ . وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يَخْدُم أيام حياته . وكان يعظم زوجتــه ويدعوها بالأخت ، وجعلها مع حرمه ، وزوّجها بعد ذلك لابن قاضى مصر ، واعتنى به من أجلها . وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة .

ولمـا خرج السلطان أرسل إلينا للوداع، فقام ابن قاضى مصر فقال : أنا

(١) سبق شرح معنى هذه الكلمات .

لا أودع ولا أفارق خَوَنْدَ عَالَمَ . فكان له فى ذلك الخير . فقال له السلطان : امض فتجهز للسفر . وقدمت بعـده للوداع . وكنت أحب الإقامة ولم تكن عاقبتها محمودة . فقال : مالك من حاجة ؟ فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل ، فقال لى : تكلم بلسانك . فقلت له : إنّ خَوَنْد عَالَمَ أمر لى بالقضاء وما قعدت لذلك بعـد . وليس مرادى من القضاء إلا حرمته . فأمرنى بالقعود للقضاء وقعود النائبين معى . ثم قال لى: إيه . فقلت : وروضـة السلطان قطب الدين ماذا أفعل فيها ، فإنى رتبت فيها أربعمائة وستين شخصا ؟ ومحصـول أوقافها لا يفى بمرتباتهم وطعامنا . فقال للوزير : پَنْجَاهْ هَزَار ، ومعناه خمسون ألفا . ثم قال : أعطه مائة ألف منّ من القمح والأرز ينفقها فى هـذه السنة ، حتى تأتى غلة الروضة . والمنّ عشرون رطلا مغربية ؟ ثم قال لى : وماذا أيضا ؟ فقلت : إن أصحابى سُجِنوا بسبب القرى التى أعطيتمونى ، فإنى عوضتها بغيرها ، فطلب أهل الديوان ما وصلنى منها ، أو الاستظهار بأمر خَوَنْدَ عَالَمَ أن يرفع عنى ذلك . فقال : كم وصلك منها ؟ فقلت خمسة آلاف دينار . فقال : هى إنعام عليك . فقلت له : ودارى التى أمرتم لى بها مفتقرة إلى البناء . فقال للوزير: عمروها. ثم قال لى : هل بقى لك كلام؟ فقلت لا . فقال لى: أوصيك ألا تأخذ الدينْ، لئلا تُطْلب ، فلا تجد من يبلغنى خبرك . أنفق على قـدر ما أعطيتك . قال الله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَاما). فأردت أن أقبل قدمه ، فمنعنى وأمسك رأسى بيده فقبلتها . وانصرفت وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة دارى ، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار ، أُعطيت منها من الديوان ستمائة دينار ، وزدت عليها الباقى . وبنيت بإزائها مسجدا ، واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين . وكان السلطان

قد أمر أن تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع ، بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قَازَان ملك العراق . وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها ، وجعلها بيدى ، على أن يكون لى العشر من فائدها على العادة .

ذكر مافعلته فى ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبا كترتيبهم بِقَيْد الحياة ، ويؤتى بالفِيَلة والخيل فتربط عند باب التربة وهى مزينة . فرتبت أنا فى هذه التربة بحسب ذلك . ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين ، وهم يسمونهم الخَتْميين . ورتبت من الطلبة ثمانين ، ومن المعيدين ، ويسمونهم المكررين ، ثمانية . ورتبت لها مدرسا ، ورتبت من الصوفية ثمانين . ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان ، والمدّاحين [1] وكتّاب الغَيْبَة [2] والمُعَرِّفين [3] . وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب . ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية ، وهم الفراشون والطباخون والسقاءون ، والشربدارية ، الذين يسقون الشَّرْبة [4] والتَّانبُول دارية ، الذين يعطون التانبول ، والسِلَحْدارية [5] والنِّيزدارية [6] والشَّطْرداريّة [7] والطَشْتداريّة [8] والحجاب والنقباء . فكان جميعهم أربعمائة وستين . وكان السلطان أمر أن

(١) من يلقون خطبا مدحية .

(٢) الذين يحصون الغائبين .

(٣) الذين يعرفون الناس : فيقولون : هذا فلان ، وهذا فلان .

(٤) يراد بها الشراب الحلو .

(٥) حاملو الأسلحة كالسيوف .

(٦) حاملو الرماح .

(٧) حاملو المظلات .

(٨) حاملو الطسوت .

يكون الطعام بها كل يوم اثنى عشر منًّا من الدقيق . ومثلها من اللحم . فرأيت أن ذلك قليل ، والزرع الذى أمر به كثير . فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منًّا من الدقيق ومثلها من اللحم ، مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات (١) والسمن والتَّانبُول . وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد. وكان الغلاء شديدا ، فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره. وسافر الملك صَبيح إلى السلطان بدولة آباد ، فسأله عن حال الناس ، فقال له : لوكان بدهلى اثنان مثل فلان لما شكوا الجُهد. فأعجب ذلك السلطان، وبعث إلىّ بخلعة من ثيابه. وكنت أصنع فى المواسم وهى: العيدان ، والمولد الكريم ، ويوم عاشوراء، وليلة النصف من شعبان ، ويوم وفاة السلطان قطب الدين، مائة منٍّ من الدقيق ومثلها لحما . فيأكل منها الفقراء والمساكين . وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه . ولنذكر عادتهم فى ذلك .

ذكر عادتهم فى إطعام الناس فى الولائم

وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السِرَا ، أنه إذ فُرِغ من أكل الطعام فى الوليمة جُعِل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المَهْد ، له أربع قوائم، منسوج سطحه من الخوص، وجعل عليه الرُقاق ورأس شاة مشوىّ ، وأربعة أقراص معجونةٍ بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية، ومغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر ، وطبق صغير مصنوع من الجلد فيه الحلواء والسموسك(٢) . ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد . ومن كان دون من ذكرناه جُعِل أمامه نصف رأس شاة، ومقدار النصف مما ذكرناه.

---

(١) يريد به (سكر النبات) ويعمل من عصير العنب .

(٢) شىء مصنوع من اللحم والأفاويه .

ومن كان دون هؤلاء أيضا جُعِل أمامه مثل الربع مِن ذلك . ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه. وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا، حضرة السلطان أُوزْبَك ، فامتنعت أن يرفع رجالى ذلك ، إذ لم يكن لى به عهد . وكذلك يبعثون أيضا لدار كبراء الناس من طعام الولائم .

ذكر خروجى إلى هَزَار أَمْرُوها

وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف منّ ، ونفَّذ لى الباقى فى هَزَار أَمْرُوها . وكان والى الخَرَاج بها عزيزا الخمار ، وأميرها شمس الدين البَذَخْشَانىّ . فبعثت رجالى فأخذوا بعض الإحالة ، وشكوا تعسّف عزيز الخمار . فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك . وبين دهلى وهذه العِمالة ثلاثة أيام . وكان ذلك أوان نزول المطر . فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى ، واستصحبت معى أخوين من المغنين المحسنين ، يغنيان لى فى الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بِجْنَوْر ، فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنين، فاستصحبتهم فكانوا يغنون لى نَوْبة، والآخران نَوْبة. ثم وصلنا إلى أَمْرُوها ، وهى بلدة صغيرة حسنة، فخرج عمالها للقائى. وجاء قاضيها الشريف أمير على ، وشيخ زاويتها ، وأضافانى معا ضيافة حسنة . وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أَفْغَان بُور على نهر السَرْو . وبيننا وبينه النهر ولا (معدية) فيه . فأخذنا الأثقال فى (معدية) صنعناها من الخشب والنبات . وجُزْنا فى اليوم الثانى . وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة من أصحابه وضرب لنا (سَرّاجة) . ثم جاء أخوه الوالى وكان معروفا بالظلم . وكانت القرى التى فى عمالته ألفا وخمسمائة قرية . ومَجْباها ستون (لكا) فى السنة . له فيها نصف العشر . ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد فى أيام نزول المطر .

ولا تسق منـه دابة . ولقد اقمنا عليه ثلاثا فما غَرَفَ منـه أحد غرفة ، ولا كدنا نقرب منه ، لأنه ينزل من جبال قَرَاجِيل التى بها معادن الذهب، ويمر على الَخشاش[1] المسمومة ، فمن شرب منه مات . وهذا الجبل متصل مَسِيرة ثلاثة أشهر . ويُنْزَل مِنـه إلى بلاد تُبَّت حيث غِزلان المِسك . وقد ذكرنا ما اتفق لجيش المسلمين بهذا الجبل. وبهـذا الموضع جاء إلىّ جماعة من الفقراء الَحيْدَرِيّة وعملوا السَّماع[2] وأوقدوا النيران، فدخلوها ولم تضرهم، وقد ذكرنا ذلك . وكانت قد نشأت بين أمير هـذه البلاد شمس الدين البَذَخْشَانِى وبين واليها عزيز الخمار منازعة . وجاء شمس الدين لقتاله ، فامتنع منه بداره . وبلغت شِكاية أحدهما الوزير بدهلى ؛ فبعث إلىّ الوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بِأَمْرُوها، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان ، وإلى شهاب الدين الرومىّ ، أن ننظر فى قضيتهما ، فمن كان على الباطل بعثناه إلى الحضرة . فاجتمعوا جميعا بمنزلى ، وادعى عزيز على شمس الدين دَعَاوَى : منها أن خادما له يعرف بالرِضَا المُلْتَانى نزل بدار خازن عزيز ، فشرب بها الخمر ، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن . فاستفهمت الرضا عن ذلك ، فقال لى : ماشربت الخمر منذ خروجى من مُلْتان، وذلك ثمانية أعوام . فقلت له : أو شَرِبْتَها بملتان ؟ قال نعم . فأمرت بجلده ثمانين، وسجنته بسبب الدعوى لِلَوْثٍ[3] ظهر عليه . وانصرفت عن أمروها، فكانت غيبتى نحو شهرين . وكنت فى كل يوم أذبح لأصحابى بقرة . وتركت أصحابى ليأتوا

---

(١) الخشاش بفتح الخاء وكسرها الحشرات .

(٢) لعله المعروف الآن (بالذكْر) .

(٣) اللوث هنا الشر .

بالزرع المُـنَفَّذِ على عزيز، وحَمْلُه عليه[1]. فوَزَّعَ على أهل القرى التى تحت نظره، ثلاثين ألف مَنٍّ يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة. وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر. وعليه يرفعون أثقالهم فى الأسفار. وركوب الحمير عندهم عيب كبير. وحميرهم صغار الأجرام، وإذا أرادوا تشهير أحد بعد ضربه أركبوه الحمار.

ذكر مَكْرُمة لبعض الأصحاب

وكان السيد ناصر الدين الأَوْهَرى قد ترك عندى لما سافر ألفا وستين تنْكة، فتصرفت فيها. فلما عدت إلى دهْلى وجدته قد أحال فى ذلك المال خُدَاوَنْدَ زَاده قِوام الدين، وكان قد قدِم نائبا عن الوزير. فاستقبحت أن أقول له: تصرفت فى المال، فأعطيته نحو ثلثه، وأقمت بدارى أياما، وشاع أنى مرضت. فأتى ناصر الدين الخُـوَارَزْمى صدر الجِهان لزيارتى، فلما رآنى قال: ما أرى بك مرضا. فقلت له: إنى مريض القلب. فقال لى: عرفنى ذلك. فقلت له: ابعث إلىّ نائبك شيخ الإسلام أعرفه. فبعثه إلىّ فأعلمته. فعاد إليه فأعلمه. فبعث إلىّ بألف دينار دراهم، وكان له عندى قبل ذلك ألف ثان. ثم طُلِب منى بقية المال، فقلت فى نفسى: ما يخلصنى منه إلا صدر الجهان، لأنه كثير المال. فبعثت إليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار، وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار، وبتُرْكش[2] فضة، وبسيفين غمداهما مُغَشَّيان بالفضة. وقلت له: انظر قيمة الجميع وابعث إلىّ ذلك.

---

(١) أى و يكون حمل هذا الزرع مفروضا عليه والضمير فى (وزّع) يرجع إلى عزيز.

(٢) سبق شرحه فى الحواشى، وأن المراد منه جعبة السهام، غير عربى.

فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار ، فبعث إلىّ ألفا واقتطع الألفين . فتغير خاطرى ، ومرضت بالحمى . وقلت فى نفسى إن شكوته إلى الوزير افتضحت . فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين ، وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد ابن ملك الملوك عماد الدين السِمْنانى ، وهو فتِيّ السنّ ، فرد على ذلك ، وبعث إلى مائتى تنكة وأغزر . وتَخَلَّصْتُ من ذلك المال . فشتان بين فعل محمد و محمد .

ذكر خروجى إلى مَحَلَّة[1] السلطان

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المَعْبَر وصل إلى التِلِنْك ، ووقع الوباء بعسكره ، فعاد إلى دولة آباد ، ثم وصل إلى نهر الـكِنْك فنزل عليه . وأمر الناس بالبناء . وخرجت فى تلك الأيام إلى مَحَلّته . واتفق ما سردناه من مخالفة عين المُلْك . ولازمت السلطان فى تلك الأيام ، وأعطانى من عِتاق الخيل ، لمّا قسمها على خواصه ، وجعلنى فيهم . وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه . وجُزْت معه نهر الكِنْك ونهر السَّرُو لزيارة قبر الصالح البطل سالار عُود (مسعود) . وقد استوفيت ذلك كله . وعدت معه إلى حضرة دهلى لما عاد إليها .

ذكر ماهمّ به السلطان من عقابى وما تداركنى من لطف الله تعالى

وكان سبب ذلك أنى ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام ، بالغار الذى احتفره خارج دهلى . وكان قصدى رؤية ذلك الغار . فلما

(١) يراد بها المعسكر ، وقد وردت هذه الكلمة كثيرا بهذا المعنى فى الكتاب .

أخذه السلطان سأل أولاده عمن كان يزوره ، فذكروا أناسا أنا من جملتهم . فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتي (بالمشور) . وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد فقلما يتخلص . فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة . فألهمني الله تعالى تلاوة قوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة . وبت (بالمشور) وواصلت[١] إلى خمسة أيام ، في كل يوم منها أختم القرآن، وأفطر على الماء خاصة . ثم أفطرت بعد خمس، وواصلت أربعا . وتخلصت بعد قتل الشيخ . والحمد لله تعالى.

ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ، ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع ، فريد الدهر ووحيد العصر ، كمال الدين عبد الله الغاري . وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة ، قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه . وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ . ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين . وكان الشيخ يواصل عشرة أيام، وربما واصل عشرين. فكنت أحب أن أواصل ، فكان ينهاني ، ويأمرني بالرفق بنفسي في العبادة ، ويقول لي: إن المُنْبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. وظهر لي من نفسي تكاسل بسبب شيء بقي معي . فخرجت عن جميع ما عندي ، من قليل وكثير . وأعطيت فقيرا ثياب ظَهْري[٢] ولبست ثيابه . ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر ، والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند .

(١) صمتها متتابعة .

(٢) يقصد الثياب التي كان يلبسها بالفعل .

ذكر بعث السلطان إلىّ ، وإبائى الرجوع إلى الخدمة ، واجتهادى فى العبادة

ولما بلغ السلطان خبر خروجى عن الدنيا استدعانى ، وهو يومئذ بِسِيوَستان ، فدخلت عليه فى زِىّ الفقراء ، فكلمنى أحسن كلام وألطفه ، وأراد منى الرجوع إلى الخدمة فأبيت ، وطلبت منه الإذن فى السفر إلى الحجاز ، فأذِن لى فيه ، وانصرفت عنه . ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بَشِير . وذلك فى أواخر جُمادَى الثانية سنة اثنتين وأربعين . فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان . وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام . وأفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام . وكنت أقرأ القرآن كل يوم ، وأتهجد بما شاء الله . وكنت إذا أكلت الطعام آذانى ، فإذا طرحته وجدت الراحة . وأقمت كذلك أربعين يوما ، ثم بعث إلىّ ثانية .

ذكر ما أمرنى به من التوجه إلى الصين فى الرسالة

ولما كَمَلَ لى أربعون يوما ، بعث إلىّ السلطان خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة . فلبست ثيابه وقصدته . وكانت لى جبة قطن زرقاء مبطنة ، لبستها أيام اعتكافى . فلما جرّدتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسى ، وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورا فى باطنى . ولم تزل عندى

إلى أن سلبنى الكفار فى البحر . ولما وصلت إلى السلطان زاد فى إكرامى على ما كنت أعهده ، وقال لى : إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين، فإنى أعلم حبك للأسفار والجولان. فجهزنى بما أحتاج إليه ، وعين للسفر معى من يُذْكر بعد .

ذكر سبب إرساله بالهدّية إلى الصين وذكر من بُعث معى وذكر الهدّية

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية ، وخمسمائة ثوب من (الكَمْخَا) ، منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التى تصنع بمدينة الَخنْسا ، وخمسة أَمْنان من المِسْك ، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر ، وخمسة من (التراكش) مزركشة ، وخمسة سيوف . وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام الذى بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره . ويعرف الموضع الذى هو به بِسَمْهَل ، وإليه يَحُج أهل الصين . وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه . فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان ، كتب إليه أنَّ هذا المطلب لا يجوز فى ملة الإسلام إسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية ، فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءها . والسلام على من اتبع الهدى .

وكافأه عن هديته بخير منها : وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ، ومائة مملوك ، ومائة جارية من كفار الهند ، مغنيات ورواقص ، ومائة ثوب بَيْرَمِّيــة ، وهى من القطن ، ولا نظير لها فى الحسن . قيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شِقَّة من ثياب الحرير التى يكون حريرها مصبوغا بخمســة ألوان ، وأربعة ومائة ثوب من الثياب

المعروفة بالصلاحيّة ، وخمسمائة ثوب من المِرْعِزّ ، مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ، ومائة شِقّة من الكتّان الرومى ، ومائة فَضْلَة من (المِلَفّ) ، وسَرّاجة ، وست من القباب ، وأربع حَسَك(١) من ذهب ، وست حَسَك من فضة مُنَيَّلة(٢) ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها ، وستة طُسُوت من الفضة ، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة ، وعشر شَوَاشٍ(٣) من لباسه ، إحداها مرصّعة بالجوهر ، وعشرة (تراكش) مزركشة ، أحدها مرصّع بالجوهر ، وعشرة من السيوف ، أحدها مرصع الغِمْدِ بالجوهر ، وقُفّاز مرصّع بالجوهر ، وخمسة عشر من الفتيان(٤) .

وعين السلطان للسفر معى بهذه الهديّة الأمير ظهير الدين الزَّنْجَانِى(٥) ، وهو من فضلاء أهل العلم ، والفتى كافورا (الشُّربدار) ، وإليه سُلِّمت الهدية . وبعث معنا الأمير محمدا الهَرَوِىّ فى ألف فارس ، ليوصلنا إلى الموضع الذى نركب منه البحر . وتوجه فى صحبتنا رُسُل ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا ، يسمى كبيرهم تُرْسى ، وخدّامهم نحو مائة رجل . وانفصلنا فى جمع كبير ومَحَلّة عظيمة . وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده . وكان سفرنا فى السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين ، وهو اليوم الذى اختاروه للسفر ، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثانى عشر أو السابع عشر أو الثانى والعشرين أو السابع والعشرين . فكان نزولنا

(١) يراد بها (الشمعدانات) ولم نجد له أصلا عربيا .

(٢) يريد مطلية بالزرقة التى أصلها من النِيلَج وهو مستخرج من النّيل وهو العِظْلِم .

(٣) جمع شاشية ، ثياب رفيعة ، والكلمة غير عربية . ومنه يطلق المصريون كلمة (الشاش) على النسيج الرفيع المعروف (٤) كل مايراه القارئ غريبا من الكلمات — من أول هذا الفصل إلى هنا — قد سبق شرحه فى الحواشى .

(٥) نسبة إلى زَنْجان ، بلد بأذَرْبِيجان . قاموس .

فى أول مرحلة بمنزل تِلْبَت ، على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دِهْلى . ورحلنا منه إلى منزل (أُو) . ورحلنا منه إلى منزل هِيلُو . ورحلنا منه إلى مدينة بَيَانَة ، مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ، ومسجدها الجامع من أبدع المساجد ، وحيطانه وسقفه حجارة . والأمير بها مُظَفَّر ابن الداية ، وأمه هى داية للسلطان . وكان بها قبله الملك مجير بن أبى الرجاء أحد كبار الملوك ، وقد تقدم ذكره . وهو ينتسب فى قريش . وفيه تجبُّر وله ظلم كثير ، قتل من أهل هذه المدينة جملة ، ومثَّل بكثير منهم . ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا فى أُسْطُوان [1] منزله ، وهو مقطوع اليدين والرجلين . وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فشكا الناس الملك مجيرا ، فأمر السلطان بالقبض عليه وجعلت فى عنقه الجامعة[2] . وكان يقعد بالديوان بين يدى الوزير ، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم . فأمره السلطان بإرضائهم فأرضاهم بالأموال ، ثم قتله بعد ذلك .

ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام العالم عز الدين الزُّبَيْرى ، من ذرية الزُّبير بن العوام رضى الله عنه ، أحد كبار الفقهاء الصلحاء ، لقيته بكَالْيُور عند الملك عز الدين البَنْتَانى المعروف بأعظم ملك . ثم رحلنا من بَيَانَة فوصلنا إلى مدينة كُول ، مدينة حسنة ذات بساتين، وأكثر أشجارها (الْعَنْبا) [3] ، ونزلنا بخارجها فى بسيط أَفْيح . ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين . وهو مكفوف البصر مُعَمَّر . وبعد ذلك سجنه السلطان ومات فى سجنه . وقد ذكرنا حديثه .

---

(١) دهليز — وليست كلمة (أسطوان) عربية بهذا المعنى .

(٢) الغُل ، وهو هنا سلسلة من حديد .

(٣) سبق أنها (المنجو) .

ذكر غزوة شهدناها بكُول

ولما بلغنا مدينة كول بَلَغَنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجِلالى وأحاطوا بها . وهى على مسافة سبعة من كُول . فقصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف . ولم يعلم الكفار بنا حتى صَدَقْنا الحملة عليهم ، وهم فى نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل . فقتلناهم عن آخرهم ، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم . واسْتُشْهِد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا ، وخمسة وخمسون راجلا . واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده ، فكتبنا إلى السلطان بخبره ، وأقمنا فى انتظار الجواب . وكان الكفار فى أثناء ذلك ينزلون من جبل هنا لك منيع ، فيغيرون على نواحى بلدة الجِلالى . وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم .

ذكر مِحْنَتِى بالأسر ، وخلاصى منه ، وخلاصى من شدّة بعده ، على يد ولى من أولياء الله تعالى

وفى بعض تلك الأيام ركبت فى جماعة من أصحابى ودخلنا بستانا نَقِيل فيه ، وذلك فصل القيظ . فسمعنا الصياح فركبنا ، ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجِلالى . فأَتْبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا فى طلبهم ، وانفردت فى خمسة من أصحابنا . فخرج علينا جُملة من الفُرْسان والرجال من غَيْضَة هنالك ، ففررنا منهم لكثرتهم ، وأَتْبعنى نحو عشرة منهم ، ثم انقطعوا عنى إلا ثلاثة منهم ، ولا طريق بين يدى . وتلك الأرض كثيرة الحجارة ،

فنشبت يد فرسى بين الحجارة ، فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه .
والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيفان ، أحدهما معلق بالسرج ويسمى الرِكابى ، والاخر فى (التركش) . فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حِليَتُه ذهبا . فنزلت فأخذته وتقلدته ، وركبت وهم فى إثرى . ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه ، فكان آخر عهدى بهم .

ثم خرجت إلى واد فى وسط شَعْراء[١] ملتفة فى وسطها طريق. فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه . فبينا أنا فى ذلك خرج علىّ نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القِسِىّ ، فأحدقوا بى . وخفت أن يرمونى رِمْية رجل واحد إذفررت منهم ، وكنت غير متدرِّع ، فألقيت بنفسى إلى الأرض واستأسرت[٢] ، وهم لا يقتلون من فعل ذلك . فأخذونى وسلبونى جميع ما علىّ غير جُبَّة وقميص وسراويل ، ودخلوا بى إلى تلك الغابة فانتهوا بى إلى موضع جلوسهم منها ، على حوض ماء بين تلك الأشجار ، وأتونى بخبز مَاش وهو الجُلُبَّان ، فأكلت منه وشربت من الماء . وكان معهم مُسْلِمان كلَّمانى بالفارسية وسألانى عن شأنى ، فأخبرتهما ببعضه ، وكتمتهما أنى من جهة السلطان . فقالا لى : لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم . ولكن هذا مقدَّمهم ، وأشاروا إلى رجل منهم . فكلمته بترجمة المسلميْن[٣] ، وتلطفت له ، فوكل بى ثلاثة منهم ، أحدهم شيخ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيث . وكلمنى أولئك الثلاثة ، ففهمت منهم أنهم أُمِروا بقتلى . واحتملونى عَشِىّ النهار إلى كهف . وسلّط الله على الأسود منهم حُمّى مُرْعِدة ، فوضع رجليه علىّ ، ونام الشيخ وابنه . فلما أصبحنا تكلموا فيما بينهم ، وأشاروا إلىّ بالنزول معهم إلى الحوض . وفهمت أنهم يريدون قتلى ، فكلمت الشيخ وتلطفت

---

(١) أرض كثيرة الشجر والنبات (٢) طلبت أن يأسرونى .
(٣) أى أن المسلمين كانا يترجمان كلامى له .

له فرقٌ لى ، وقطعت كُمَّىْ قميصى وأعطيته إياهما لكى لا يأخذه أصحابه فىَّ إن فررت . ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم ، فأشاروا إلىَّ بالنزول معهم ، فنزلنا ووجدنا قوما آخرين ، فأشاروا عليهم أن يذهبوا فى صحبتهم فأبوا . وجلس ثلاثتهم أمامى وأنا مواجه لهم ، ووضعوا حبل قِنَّب كان معهم بالأرض وأنا أنظر اليهم ، وأقول فى نفسى : بهذا الحبل يَرْبِطوننى عند القتل . وأقمت كذلك ساعة . ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذونى فتكلموا معهم ، وفهمت أنهم قالوا لهم : لأى شيء ما قتلتموه ؟ فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه .

وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لى : أتريد أن أُسَرِّحك ؟ فقلت نعم . فقال اذهب . فأخذت الجبة التى كانت علىَّ فأعطيته إياها . وأعطانى مُنَيَّرة (١) بالية عنده وأرانى الطريق . فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركونى ، فدخلت غَيْضَة قصب واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس . ثم خرجت وسلكت الطريق التى أرانيها الشاب . فأفضت بى إلى ماء ، فشربت منه وسرت إلى ثلث الليل ، فوصلت إلى جبل فنمت تحته . فلما أصبحت سلكت الطريق ، فوصلت ضُحًا إلى جبل من الصخر عال ، فيه شجر أم غَيلان (٢) والسِدر ، فكنت أجنى النَّبْق فآكله ، حتى أثَّر الشوك فى ذراعى آثارا هى باقية به حتى الآن . ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدَرعة قطنا ، وبها أشجار الخِرْوع . وهنا لك بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة ، لها دَرَج يُنْزَل عليها إلى وِرْد الماء . و بعضها يكون فى وسطه وجوانبه القِبَاب من الحجر والسقائف والمجالس . و يتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها فى الطرقات التى لا ماء بها . وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد .

---

(١) مخططة .

(٢) من أشجار الطلح وهى أشجار عظام .

ولما وصلت إلى البئر شربت منها ووجدت عليها شيئا من عساليج [1] الخَرْدَل ، قد سقطت ممن غسلها . فأكلت منها وادخرت باقيها ، ونمت تحت شجرة خرْوع . فبينما أنا كذلك إذ ورد البئر نحو أربعين فارسا مدرّعين ، فدخل بعضهم المزرعة ثم ذهبوا . وطمس الله أبصارهم دونى . ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح ونزلوا إلى البئر . وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التى كنت تحتها ، فلم يشعر بى . ودخلت إذ ذاك فى مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهارى . وأقاموا على البئر يغسلون ثيابهم ويلعبون . فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قد مرّوا أو ناموا ، فخرجت حينئذ واتّبعت أثر الخيل والليل مقمر ، وسرت حتى انتهيت إلى بئر أخرى عليها قبة . فنزلت إليها وشربت من مائها وأكلت من عساليج الخردل التى كانت عندى . ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعُشْب مما يجمعه الطير . فنمت بها وكنت أحِسُّ حركة حيوان فى ذلك العشب ، أظنه حية ، فلا أُبَالِيها لما بى من الجَهْد . فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تُفْضِى إلى قرية خَرِبة ، وسلكت سواها فكانت كمثلها ، وأقمت كذلك أياما . وفى بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وفى داخلها شبه بيت ، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنِّجيل وغيره . فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلنى إلى العمارة . ثم إنى وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ، ووجدت ثورا عليه بَرْدعة ومِنْجل ، فإذا تلك الطريق تُفْضِى إلى قرى الكفار ، فاتّبعت طريقا أخرى ، فأفضت بى إلى قرية خربة ، ورأيت بها اسودين عريانين نخِفْتُهما ، وأقمت تحت أشجار هنالك . فلما كان الليل دخلت القرية ، ووجدت دارا فى بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع . وفى أسفلها نَقْب يسع الرجل ، فدخلتها ووجدت

(١) جمع عُسْلوج ، وهو ما لان واخضرّ من الأغصان .

داخلها مفروشا بالتبن ، وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت . وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل ، وأظنه كان يخاف ، فاجتمعنا خائفين . وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يومَ أُسرت وهو يوم السبت .

وفى السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة ، وفيها حوض ماء ومنابت خُضر ، فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطونى ، فوجدت حول بئر بها أوراق فُجْل فأكلتها . وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة(١) ، فدعانى طليعتهم فلم أجبه . وقعدت على الأرض ، فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربنى به ، فلم ألتفت إليه لعظيم ما بى من الجُهْد . ففتشنى فلم يجد عندى شيئا ، فأخذ القميص الذى كنت أعطيت الشيخ الموكل بى كُمَّيه .

ولما كان فى اليوم الثامن ، اشتد بى العطش وعدمت الماء ، ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا . وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر ، فيشربوا منه جميع السنة ، فاتّبعت طريقا ، فأفضت بى إلى بئر غير مطوية ، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض ، وليس فيه آنية يستقى بها ، فربطت خرقة كانت على رأسى فى الحبل ، وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يُرْوِنى ، فربطت خُفِّى ، واستقيت به فلم يُرْونى ، فاستقيت به ثانيا ، فانقطع الحبل ووقع الخف فى البئر . فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت . ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلى بحبل البئر ، وبِخرَق وجدتها هنالك . فبينا أنا أرْبِطها وأفكر فى حالى ، إذ لاح لى شخص فنظرت إليه ، فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز ، وعلى كاهله جِراب ، فقال لى : سلام عليكم . فقلت له : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقال لى بالفارسية : جيكس ، ومعناه : من أنت ؟ فقلت له : أنا تائه . فقال لى : وأنا كذلك . ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى .

---

(١) طليعة الجيش من يبعث ليطلع طلع العدو . للواحد والجمع .

فأردت أن أشرب فقال لى : اصبر . ثم فتح جِرَابه ، فأخرج منه غَرْفة حِمَّص أسود مقلوّ مع قليل أرز ، فأكلت منه وشربت ، وتوضأ وصلى ركعتين ، وتوضأت أنا وصليت . وسألنى عن اسمى فقلت : محمد ، وسألته عن اسمه فقال لى : القلب الفارح . فتفاءلت بذلك وسررت به . ثم قال لى : باسم الله ترافقنى؟ فقلت نعم . فمشيت معه قليلا ، ثم وجدت فُتُورا فى أعضائى ، ولم أستطع النهوض . فقعدت ، فقال : ما شأنك ؟ فقلت له : كنت قادرا على المشى قبل أن ألقاك ، فلما لقيتك عجزت . فقال : سبحان الله ! اركب فوق عنقى . فقلت له : إنك ضعيف ولا تستطيع ذلك . فقال : يقوينى الله ، لا بدَّ لك من ذلك . فركبت على عنقه ، وقال لى : أكثر من قراءة : حسبنا الله ونعم الوكيل. فأكثرت من ذلك وغلبتنى عينى . فلم أُفِق إلا لسقوطى على الأرض ، فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا ، وإذا أنا فى قرية عامرة ، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود. وحاكمها من المسلمين . فأعلموه بى ، فجاء إلىّ فقلت له : ما اسم هذه القرية ؟ فقال لى : تاج بُورة. وبينها وبين مدينة كُول حيث أصحابنا فرسخان .

وحملنى ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمنى طعاما سُخْنا . واغتسلت . وقال لى : عندى ثوب وعمامة أودعهما عندى رجل عربىّ مصرىّ ، من أهل المحلة التى بكُول . فقلت له : هاتهما ألبسهما ، إلى أن أصل إلى المحلة ، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابى ، وكنت قد وهبتهما لذلك العربىّ لما قَدِمْنا كُول . فطال تعجبى من ذلك. وأفكرت فى الرجل الذى حملنى على عنقه . فتذكرت ما أخبرنى به ولى الله تعالى أبو عبد الله المرشدى ، على ما ذكرناه فى السفر الأول ، إذ قال لى : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخى ، ويخلصك من شدّة تقع فيها . وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه ، فقال : القلب الفارح. فعلمت أنه هو الذى أخبرنى بلقائه ، وأنه من الأولياء. ولم يحصل لى من صحبته إلا المقدار الذى ذكر. (١)

(١) حكاية هذا الولى من الغرائب التى يحار فيها العقل . والعهدة فيها على ابن بطوطة .

وأتيت تلك الليلة إلى أصحابى بكُول معلما لهم بسلامتى، فجاءوا إلىّ بفرس وثياب واستبشروا بى، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم. وقد بعث بفتى يسمى بسُنْبل الجامدار، عوضا عن كافور المستَشْهَد، وأمرنا أن نتمادى فى سفرنا. ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمرى، وتشاءموا بهذه السفرة، لِمَا جرى فيها علىّ وعلى كافور، وهم يريدون أن يرجعوا.

فلما رأيت تأكيد السلطان فى السفر، أكدت عليهم، وقَوِىَ عزمى. فقالوا: ألا ترى ما اتفق فى بداية هذه السفرة؟ والسلطان يَعْذِرك، فلنرجع إليه، أو لِنُقِمْ حتى يصل جوابه. فقلت لهم: لايمكن المُقام، وحيثما كنا أدركنا الجواب. فرحلنا من كُول ونزلنا بُرْج بُورة، وبه زاوية حسنة، وفيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العُرْيان، لأنه لا يلبس إلا ثوبا من سرته إلى أسفل. وباقى جسده مكشوف. وهو تلميذ الصالح الولىّ محمد العريان، القاطن بقرافة مصر، نفع الله به.

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى، قائما على قدم التجرد، يلبس (تنورة) وهو ثوب يستر من سرته إلى أسفل. ويذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بالزاوية من طعام و إدام وماء، وفرق ذلك على المساكين، ورمى بِفَتيلة السراج، وأصبح على غير معلوم. وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا، فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته فيأخذ منهم مقدار مايكفى الفقراء. ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره، وملك دِمَشْق ماعدا قلعتها، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قَشْحَب، والملك الناصر إذ ذاك حديث السن، لم يَعْهَد الوقائع، وكان الشيخ العريان

فى صحبته، (١) نزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر، لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين. فثبت الملك الناصر، وهُزِم التتر هزيمة شَنْعاء، قتِل منهم فيها كثير وغَرِق كثير، بمـا أرسل عليهم من المياه. ولم يعـد التتر إلى قصد بلاد الإسـلام بعدها. وأخبرنى الشيخ محمد العريان تلميـذ هـذا الشيخ، أنه حضر هـذه الوقيعـة وهو حديث السن (٢).

ورحلنا من برج بُورة ونزلنا على المـاء المعروف (بآب سياه). ثم رحلنا إلى مدينة قِنَّوج، مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة، رخيصة الأسعار، كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دِهْلى، وعليها سور عظيم. وقد تقدم ذكرها. وكان بها الشيخ معين الدين البَاخَرْزى، وقدأضافنا بها. وأميرها فَيْرُوز البَذَخْشَانى، من ذرية بَهْرام جُور صـاحب كِسرى. ويسكن بهـا جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق، يعرفون بأولاد شَرَف جِهان، وكان جدهم قاضى القضـاة بدولة آباد. وهو من المحسنين المتصدقين. وانتهت الرياسة ببلاد الهند إليه.

حكاية له

يذكر أنه عُزِل مرة عن القضاء وكان له أعداء، فادعى أحدهم عنـد القاضى الذى وَلِىَ بعده، أن له عشرة آلاف دينار قِبَله، ولم تكن له بينة. وكان قصده أن يحلّفه، فبعث القاضى له. فقال لرسوله: بم ادعى علىّ؟ فقال بعشرة آلاف دينار، فبعث إلى مجلس القاضى عشرة آلاف، وسُلّمت للمدعى. وبلغ خبره السلطان علاء الدين، وصح عنده بطلان تلك الدعوى، فأعاده إلى القضاء، وأعطاه عشرة آلاف.

---

(١) جواب لما.

(٢) هذه الحكاية من اختراع القُصّاص كما يظهر.

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، ووصلنا فيها جواب السلطان فى شأنى ، بأنه إن لم يظهر لفلان أثر ، يتوجه وجيه المُلْك قاضى دولة آباد عوضا عنه. ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هَنَوْل ، ثم بمنزل (وزير بوُر) ، ثم بمنزل البَجَالِصة. ثم وصلنا إلى مدينة مَوْرِى ، وهى صغيرة ، ولها أسواق حسنة . ولقيت بها الشيخ الصالح المعمّر قُطْبَ الدين ، المسمى بِحَيْدَر القَرْغانى ، وكان سال مرض ، فدعالى وزوّدنى رغيفَ شعير . وأخبرنى أن عمره يُنيف على مائة وخمسين . وذكر لى أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ، ويكثر الاعتكاف. وربما أقام فى خلوته أربعين يوما ، يقتات فيها بأربعين تمرة ، فى كل يوم واحدة. وقد رأيت بدهلى الشيخ المسمى برجب البُرْقعى ، دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يوما ، ثم خرج ، وفَضَل معه منها ثلاث عشرة تمرة .

ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة (مَرْه) وهى مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذِمّة . وهى حصينة ، وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها . ومنها يحمل إلى دِهلى ، وحبوبه طِوال شديدة الصفرة ضخمة ، ولم أر قمحا مثله إلا بأرض الصين . وتنسب هذه المدينة إلى المَالَوَة ، وهى قبيلة من قبائل الهنود ، ضخام الأجسام عظام الخَلْق حِسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق . ثم سافرنا إلى مدينة عَلَابُور ، مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة . وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَتَم ، وهو سلطان جَنْبِيل الذى حاصر مدينة كَيَالِير ، وقُتِل بعد ذلك .

حكايته

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابَرِى ، وهى على نهر الجُون[1] . كثيرة القرى والمزارع ، وكان أميرها خطَّابا الأفغانىّ ، وهو أحد الشجعان .

---

(١) نهر جمنا ، كما تقدم .

واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رَجُو، و بلده يسمى (سُلْطان بُور)، وحاصر مدينة رابِرى، فبعث خَطَّاب إلى السلطان يطلب منه الإعانة، فأبطأ عليه المَدَد، وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه . فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك، ونحو أربعمائة من سائر الناس . وجعلوا العمائم فى أعناق خيلهم، وهى عادة أهل الهند، إذا أرادوا الموت و باعوا نفوسهم من الله تعالى . وتقدّم خطّاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس، وفتحوا الباب عند الصبح، وحملوا على الكفار حملة واحدة. وكانوا نحو خمسة عشر ألفا. فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانيهم، قَتَم ورَجُو. و بعثوا برأسيهما إلى السلطان . ولم ينج من الكفار إلا الشَرِيد .

ذكر أمير عَلاَبُور واستشهاده

وكان أمير علابور بَدْر الحبشىّ من عبيد السلطان . وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال . وكان لايزال يُغير على الكفار منفردا بنفسه، فيقتل ويَسْبِي حتى شاع خبره واشتهر أمره، وهابه الكفار . وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها فى أكلة . وأُخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه، على عادة الحبشة ببلادهم . وكان له ابن يدانيه فى الشجاعة، فاتفق أنه أغار مرة فى جماعة من عبيده على قرية للكفار، فوقع به الفرس فى مَطْمُورة(١) . واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتَّارة، والقتارة حديدة شبه سِكَّة الحرث، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه، ويَفْضُل منها مقدار ذراعين . وضربتها لا تبقى . فقتله بتلك الضربة ومات فيها . وقتلوا رجالها وسبوا نساءها . وقاتل عبيده أشدّ القتال، فتغلبوا على القرية، وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فأتوا به ولده . فكان من

(١) الحفيرة تحت الأرض .

الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دِهْلى ، فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل ، وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله ، فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة كَالِيُور ، وهى مدينة كبيرة لها حصن منيع ، منقطع فى رأس شاهق ، على بابه صورة فيل وفَيَّال من الحجارة ، وقد مر ذكره فى اسم السلطان قطب الدين . وأمير هذه المدينة أحمد بن سِيرخان ، فاضل كان يكرمنى أيام إقامتى عنده قبل هذه السفرة . ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط[1] رجل من الكفار، فقلت له : بالله لا تفعل ذلك، فإنى ما رأيت أحدا قط يُقْتَل بمَحْضَرى . فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه .

ثم رحلنا من مدينة كَالِيُور إلى مدينة بَرْوَن ، مدينة صغيرة للسلمين بين بلاد الكفار ، أميرها محمد بن بَيْرَم التركىّ الأصل . والسباع بها كثيرة . وذكر لى بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس، حتى قتل من أهلها كثيرا . وكانوا يعجبون من شأن دخوله . وأخبرنى محمد التَّوْفيرى من أهلها، وكان جارا لى بها، أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير . وأخبرنى غيره أنه كان مع جماعة فى دار عُرْس ، فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد ، فخرج أصحابه فى طلبه ، فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ، ولم يأكل لحمه . وذكروا أنه كذلك فعله بالناس . ومن العجب أن بعض الناس أخبرنى أن الذى يفعل ذلك ليس بسبع ، وإنما هو آدمى من السحرة المعروفين بالُجوكِيّة ، يتصوّر فى صورة سبع . ولما أُخبرت بذلك أنكرته ، وأخبرنى به جماعة . ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة .

---

(١) قطعه نصفين كما سبق فى الحواشى .

ذكر السحرة الجُوكيّة

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب . منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب . وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليهم ، فلا يترك للواحد إلا موضع يدخل منه الهواء . ويقيم بها الشهور . وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة . ورأيت بمدينة مَنْجَرُور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم ، قد رفعت له طبلة[1] وأقام بأعلاها ، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما . وتركته كذلك فلا أدرى كم أقام بعدى . والناس يذكرون أنهم يُرَكّبون حبوبا ، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر ، فلا يحتاجون فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب ، ويخبرون بأمور مغيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم . ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون . والظاهر من حالهم أنهم عوّدوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها . ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته . وتقول العامة : إنه إذا قُتل إنسان بالنظر ، وشق عن صدر الميت وجد دون قلب . ويقولون : أكل قلبه . وأكثر ما يكون هذا فى النساء . والمرأة التى تفعل ذلك تسمى (كَفْتارا)[2] .

حكاية

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ، والسلطان ببلاد التِّلنْك ، نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلى ما يقوتهم ، بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم . فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة

---

(١) يقصد شيئا كالمنصة ، وليس لهذه الكلمة هذا المعنى فى العربية .

(٢) لا تخلو هذه الأخبار من مبالغة كما هو ظاهر .

ليتولوا إطعامهم ، فكان عندى منهم خمسمائة نفس . فعمرت لهم سقائف فى دارى وأسكنتهم بها . وكنت أعطيهم نفقة خمسة أيام لخمسة أيام . فلما كان فى بعض الأيام أتونى بمرأة منهم وقالوا إنها (كَفْتار) ، وقد أكلت قلب صبىّ كان إلى جانبها . وأتوا بالصبى ميتا ، فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان ، فأمر باختبارها : وذلك بأن ملئوا أربع جرّات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها فى نهر الجُون ، فلم تغرق ، فعلم أنها (كفتار) . ولو لم تَطْفُ على الماء لم تكن بكفتار . فأمر بإحراقها بالنار . وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تبخّر به أمن فى تلك السنة من سحر (كفتار)[1] .

حكاية

بعث إلىّ السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو فى خلوة، وعنده بعض خواصه ، ورجلان من هؤلاء الجُوكية، وهم يلتحفون بالملاحف، ويغطون رءوسهم ، لأنهم يَنْتِفونها بالرماد ، فأمرنى بالجلوس فجلست. فقال لهما : إن هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه ما لم يره . فقالا : نعم . فتربّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا ، فعجبت منه ، وأدركنى الخوف فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن أُسقى دواء عنده ، فأفقت ، وقعدت وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة[2] كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدتْ إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا

---

(١) يظهر أن هذه الحكاية وأمثالها من الشعوذة .

(٢) زكيبة صغيرة . والشكارة ليست بعربية . وقال صاحب القاموس إن الزكيبة كلمة مصرية .

قليلا حتى جلس معنا . فقال لى السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت ، فانصرفت عنه ، وأصابنى الخفقان ومرضت ، حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى .

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من مدينة بَرْوَن إلى منزل أَمْوارِى ، ثم إلى منزل بَجَرًّا ، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكنائس فيها الأصنام وقد مثّل بها المسلمون ، وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق ، وعلى أركانه الأربعة قباب . ويسكن هنالك جماعة من الجوكية ، وقد لبّدوا شعورهم وطالت حتى صارت فى طولهم . وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة . وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم . ويذكرون أن من كانت به عاهة من بَرَص أو جُذام ، يأوى إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى . وأول مارأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طَرْمَشِيرِين ، ملك تركستان . وكانوا نحو الخمسين . فحفر لهم غار تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة . ولهم شبه القرن[1] يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة . وشأنهم كله عجب .

ثم سافرنا إلى مدينة جَنْدِيرى ، مدينة عظيمة لها أسواق حافلة ، يسكنها أمير أمراء تلك البلاد ، عز الدين البَنْتَانِى ، وهو المدعو (بأعظم ملك) ، وكان خَيِّرًا فاضلا يجالس أهل العلم . وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزُّبَيْرِى والفقيه العالم وجيه الدين البَيَانِى ، نسبة إلى مدينة بَيَانة التى تقدم ذكرها ، والفقيه القاضى المعروف بقاضى خاصّة ، وإمامهم شمس الدين . وكان النائب عنه على أمور المخزن ، يسمى قمر الدين ، ونائبه على أمور العسكر سعادة التِّلْنكِى من كبار الشجعان ، وبين يديه تعرض العساكر . و(أعظم ملك) لا يظهر إلا فى يوم الجمعة ، وفى غيرها نادرا .

(١) يراد به البوق .

ثم سرنا من جَنْدِيرى إلى مدينة ظِهار ، وهى مدينة المـالُوَة ، أكبر عمالة بتلك البلاد . وزرعها كثير خصوصا القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التانَبُول إلى دِهْلى . وبينهما أربعـة وعشرون يوما . وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين . فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار فى يومه ، وما بقى له إلى المنزل أو إلى المدينة التى يقصدها ، قرأ النقش الذى فى الأعمدة فعرفه . ومدينة ظِهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذى من أهل ذِيبَة المَهَل[١] .

حكاية

كان هذا الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها ، فأحيا أرضا مَوَاتا هنالك ، وصار يزدرعها بطيخا ، فأتى فى غاية من الحلاوة ، وليس بتلك الأرض مثله . ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله . وكان يطعم الفقراء والمساكين . فلما قصد السلطان إلى بلاد المَعْبَر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخا فقبله منه واستطابه ، وأقطعه مدينة ظِهار ، وأمره أن يعمر زاوية بربوة تشرف عليها ، فعمرها أحسن عمارة. وكان يطعم بها الوارد والصادر . وأقام على ذلك أعواما . ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر (لكا)[٢] ، فقال : هذا فضل مما كنت أطعمه الناس ، وبيت المـال أحق به . فقبضه منه . ولم يعجِب السلطان فعله ، لكونه جمع المـال ولم ينفق جميعه فى إطعام الطعام . وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير الخواجة جهان أن يفتك بخاله ، ويستولى على أمواله ، ويسير إلى القائم ببلاد المعبر ، فنَمَى خبره إلى خاله ، فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء ، وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء ، وردّ ابن أخته إليه فقتله الوزير .

---

(١) جزائر مالديف .

(٢) تقدم شرحه فى الحواشى .

ولما ردّ ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل ، كما قتل أصحابه . ثم طرح للفيلة ، وسلخ جلده وملئ تبنا .

ثم سافرنا من مدينة ظِهار إلى مدينة أجَيْن ، مدينة حسنة كثيرة العمارة . وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك ، وهو من الفضلاء الكرماء العلماء ، استُشْهِد بجزيرة سَنْدابُور حين افتتحها . وقد زرت قبره هنالك ، وسنذكره . وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغَرْناطي الأصل .

ثم سافرنا من مدينة أُجَيْن إلى مدينة دولة آباد ، وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن ، الموازية لحضرة دِهْلي في رفعة قدرها واتّساع خِطّتها . وهي منقسمة ثلاثة أقسام : أحدها دولة آباد ، وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره ، والقسم الثاني يسمى الكَتَكَة ، والقسم الثالث قلعتها التي لا مِثل لها ولا نظير في الحصانة ، وتسمى الدُّوَيْقِير . وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قُطْلُوخان معلم السلطان . وهو أميرها والنائب عن السلطان بها ، وببلاد صَاغَر ، وبلاد التِلِنْك وما أضيف إلى ذلك . وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر ، عامرة كلها ، ونوابه فيها . وقلعة الدُّوَيْقِير التي ذكرناها هي قطعة حجر في بسيط من الأرض ، قد نحتت وبنى بأعلاها قلعة يصعد إليها بسلم مصنوع من جلود ، ويرفع ليلا . ويسكن بها الزِماميّون[1] بأولادهم . وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جبوب[2] بها . وبها فيران ضخام أعظم من القطوط[3] ، والقطوط تهرُب منها ، ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها . ولا تصاد إلا بحيل تُدار عليها . وقد رأيتها هنالك فعجبت منها .

---

(١) الحراس المقيدة أسماؤهم في جرائد الجيش ، تسمية اصطلاحية .

(٢) جمع جب . ولكن الجموع في الكتب التي بأيدينا هي : أجْباب وجِباب وجِبَبَة .

(٣) جمع قط . وهذا الجمع غريب . والذي في القاموس : قِطَاط وقِطَطة .

حكاية

أخبرنى الملك خطاب الأفغانىّ أنه سجن مرة فى جب بهذه القلعة، يسمى جب الفيران ، قال : فكانت تجتمع علىّ ليلا لتأكلنى، فأقاتلها ، وألقى من ذلك جهدا . ثم إنى رأيت فى النوم قائلا يقول لى : اقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة ، فيفرج الله عنك . قال : فقرأتها فلما أتممتها أخرجت . وكان سبب خروجى أن الملك (مَلّ) كان مسجونا فى جب يجاورنى ، فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات . فبلغ ذلك السلطان فقال : أخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك . وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين ابن الملك (مَلّ) هذا ، والقاضى جلال حين هزمهما السلطان .

وأهل بلاد دولة آبادهم قبيل المَرْهَتّة الذين خص الله نساءهم بالحسن ، وخصوصا فى الأنوف والحواجب . وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات . وأكثر تجاراتهم فى الجوهر، وأموالهم طائلة . وبدولة آباد العنب والرمان ، ويثمران مرتين فى السنة . وهى من أعظم البلاد مَجْبى وأكبرها خراجا ، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها . وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا ، وهى كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر ، بسبعة عشر كُرُورا ، والكُرُور مائة لك ، واللك مائة ألف دينار . ولكنه لم يفِ بذلك فبقى عليه بقية ، فأخذ ماله وسلخ جلده .

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنّيات ، يسمى سوق طرب آباد ، من أجمل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة ، كل دكان له باب يفضى إلى دار صاحبه . وللدار باب سوى ذلك . والحانوت مزين بالفرش ، وفى وسطه

شكل مَهْد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهى متزينة بأنواع الحُلِىّ، وجواريها يحرِكن مهدها . وفى وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه . وتأتى المغنِّيات طائفة بعد أخرى، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرف .

وفى تلك السوق المساجد للصلاة . ويصلى الأئمة فيها التراويح فى شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مَرَّ بهذه السوق ينزل بقبتها، وتغنى المغنيات بين يديه . وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار، مدينة صغيرة يسكنها المَرْهَتَة، وهم أهل الإتقان فى الصناعات، والأطباء والمنجمون، وشرفاء المرهتة هم البراهمة . وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون تعذيب الحيوان ولا ذبحه . ويغتسلون للأكل . ولا يتزوجون فى أقاربهم إلا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد . ولا يشربون الخمر . وهى عندهم أعظم المعايب . وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين . ومن شربها من مسلم حُدّ ثمانين جلدة، وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر، وهى مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها، وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر . وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة . وأحوالهم كلها مرضية . ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر . وكل من يبنى زاوية يحبس البستان عليها، ويجعل النظر فيه لأولاده، فإن انقرضوا أعاد النظر للقضاة . والعمارة بها كثيرة . والناس يقصدونها للتبرك بأهلها . ولكونها محررة من

المغارم والوظائف (١) . ثم سافرنا من صَاغَر إلى مدينة كِنْباية ، وهى على خُور من البحر ، وهو شبه الوادى تدخله المراكب ، وبه المد والجزر ، وعاينت المراكب به مُرْساة فى الوَحَل حين الجزر . فإذا كان المد عامت فى الماء . وهذه المدينة من أحسن المدن فى إتقان البناء وعمارة المساجد . وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء ، فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون فى ذلك . ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامِرىّ الذى اتفقت لى معه قضية الحلواء ، وكذبه ملك الندماء . ولم أر قط أضخم من الخشب الذى رأيته بهذه الدار . وبابها كانه باب مدينة . وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه . ومنها دار ملك التجار الكَازَرُونى ، وإلى جانبها مسجده . ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دُوز .

حكاية

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الأفغانىّ ، أراد شمس الدين والنَاخُذَاة إلياس ، وكان من كفار أهل هذه المدينة ، وملك الحكماء الذى تقدم ذكره ، أن يمتنعوا منه بهذه المدينة ، وشرعوا فى حفر خندق عليها ، إذ لا سور لها . فتغلب عليهم ودخلها . واختفى الثلاثة فى دار واحدة ، وخافوا أن يُطَّلع عليهم ، فاتفقوا على أن يقتلوا أنفسهم ، فضرب كل واحد منهم صاحبه بِقَتّارة . وقد ذكرنا صفتها . فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء . وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجِيلانى . وكان حسن الصورة كثير المال . وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا . ثم أرسل السلطان إليه وأمّره عليها وأعطاه المراتب . فكان

---

(١) المكوس والجبايات .

ذلك سبب تلف نفسه وماله . وكان أمير كِنْباية حين وصلنا إليها مُقْبِلا التِّلِنْكى . وهو كبير المنزلة عند السلطان . وكان فى صحبته الشيخ زاده الأَصْبَهانى نائبا عنه فى جميع أموره . وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ، ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده ويتحيل فى الفرار . وبلغ خبره السلطان ، وذكر عنه أنه يروم الهرب ، فكتب إلى مقبل أن يبعثه ، فبعثه على البريد ، وأُحْضِر بين يدى السلطان ووكّل به . والعادة عنده أنه متى وَكّل بأحد فقلما ينجو . فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه ، وهربا جميعا . وذكر لى أحد الثقات أنه رآه فى ركن مسجد بمدينة قَلْهات ، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده ، فحصل على أمواله وأَمِنَ ما كان يخافه .

حكاية

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره ، فكان من النادر أن جلس قاضى المدينة وهو أعور العين اليمنى ، وفى مقابلته شريف بغدادىّ شديد الشبه به فى صورته وعوره ، إلا أنه أعور اليسرى . فجعل الشريف ينظر إلى القاضى ويضحك ، فزجره القاضى ، فقال له : لا تزجرنى فإنى أحسن منك ، قال : كيف ذلك ؟ قال : لأنك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى . فضحك الأمير والحاضرون ، وخجل القاضى ولم يستطع أن يرد عليه ، لأن الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم .

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر ، وسكناه بقبة من قباب الجامع . دخلنا عليه وأكلنا من طعامه . واتفق له لما دخل القاضى جلال مدينة كِنْباية حين خلافه ، أنه أتاه ، وذُكر للسلطان أنه دعا له ، فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدرى . وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجة إسحاق . وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر ، وينفق على

الفقراء والمساكين . وماله على هذا ينْمِى ويزيد كثرة . وسافرنا من هذه المدينة إلى بلدة كاوِى . وهى على خُور فيه المد والجزر من بلاد الراى (١) جَالَنْسِى ، وسنذكره . وسافرنا إلى مدينة قَنْدَهار . وهى مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر .

ذكر سلطانها

وسلطان قَنْدَهار كافر اسمه جَالَنْسِى . وهو تحت حكم الإسلام ، يعطى ملك الهند هدية كل عام . ولما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم ، وخرج عن قصره فأنزلنا به . وجاء إلينا مَنْ عنده من كبار المسلمين ، كأولاد خواجة بُهْرة ، ومنهم الناخُذَاة إبراهيم ، وله ستة من المراكب . ومن هذه المدينة ركبنا البحر .

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا فى مركب لإبراهيم هذا يسمى الجاكَر ، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا ، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا ، فى مركب لأخى إبراهيم . وأعطانا جَالَنْسِى مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما . وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف . و بعث معنا ولده فى مركب شبه الغراب (٢) إلا أنه أوسع منه . وفيه ستون مجذافا . ويُسْقَف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شىء من السهام ولا الحجارة . وكان ركوبى أنا فى الجاكَر . وكان فيه خمسون راميا ، وخمسون من المقاتلة الحُبْشَان ، وهم زعماء هذا البحر . وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم .

---

(١) مرادف للفظ (راجا) كما تقدم .

(٢) نوع من السفن عندهم .

ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بَيْرَم. وهى خالية، وبينها وبين البر أربعة أميال، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها. وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها، وجعل بها المجانيق، وأسكن بها بعض المسلمين. ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى إلى مدينة قُوقَة. وهى مدينة كبيرة عظيمة الأسواق، أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت فى عشارى[1] مع بعض أصحابى حين الجزر لأدخلها، فوَحِل العشارى فى الطين، وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل. فكنت لما نزلنا فى الوَحَل أتوكأ على رجلين من أصحابى. وخوفنى الناس وصول المد قبل وصولى إليها وأنا لا أحسن السباحة. ثم وصلت إليها وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجدا ينسب للخَضِر وإلياس، عليهما السلام، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم. ثم عدت إلى المركب.

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يسمى دُنْكُول. وكان يظهر الطاعة لملك الهند. وهو فى الحقيقة عاص. ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سَنْدَابُور، وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور. وإذا كان الجزر فماؤها عذب طيب، واذا كان المد فهو ملح أُجَاج. وفى وسطها مدينتان إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون، عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول. وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد. عمره الناخُذَاة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهِنَوْرى. وسيأتى

---

(١) نوع آخر يظهر أنه صغير كالزورق. والتسمية ليست بعربية فيما نعلم. ولا ندرى كيف تضبط الكلمة.

ذكره ، وذكر حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى ، إن شاء الله . وتجاوزنا هـذه الجزيرة لمـا مررنا بها ، وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر ، فيها كنيسة و بستان وحوض ماء . ووجدنا بها أحد الجوكية .

حكاية هذا الجُـوكى

ولمـا نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى ، وجدنا بهـا جُوكيا مستندا إلى حائط بُدْخانة ، وهى بيت الأصنام . وهو فيما بين صنمين منها ، وعليه أثر المجاهدة ، فكلمناه فلم يتكلم . ونظرنا هل معه طعام ؟ فلم نر معه طعاما . وفى حين نظرنا صـاح صيحة عظيمة ، فسقطت عند صياحه جَوْزة من جوز النارَجيل بين يديه ، ودفعها لنا فعجِبنا من ذلك ، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها . وأتيناه بزاد فردّه . وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى ، ودفعها إلىّ . وكانت بيدى سُبْحة فقلبها فى يدى فأعطيته إياها ، ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ، ثم إلى سَمْت القِبلة ، فلم يفهم أصحابى إشارته ، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسـلم يخفى إسلامه عن أهل تلك الجزيرة ، ويتعيّش من ذلك الجوز .

ولمـا ودّعناه قبلت يده ، فأنكر أصحابى ذلك ، ففهم إنكارهم ، فأخذ يدى وقبـلها وتبسم ، وأشار لنـا بالانصراف فانصرفنا ، وكنت آخر أصحابى خروجا . فجذب ثوبى فرددت رأسى إليه فأعطانى عشرة دنانير . فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى : لم جذبك ؟ فقلت لهم أعطانى هذه الدنانير . وأعطيت ظَهير الدين ثلاثة منها ، وسُنْبُلا ثلاثة . وقلت لهما : الرجل مسلم . ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعـالى ، وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام . وأخذه السُّبْحة يصدق ذلك . فرجعا لمـا قلت لهما ذلك إليه فلم يجداه[1] . وسافرنا تلك الساعة ، و بالغد وصلنا إلى

(١) فى هذه الحكاية غرابة . وهى على عهدة ابن بطوطة .

مدينة هِنَوْر ، وهى على خُور كبير تدخله المراكب الكبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفى أيام المطر يشتدّ هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه . وفى يوم وصولنا إليها جاءنى أحد الجُوكيّة من الهنود فى خلوة ، وأعطانى ستة دنانير ، وقال لى : البَرَهْمَن بعثها إليك ، يعنى الجوكى الذى أعطيته السُّبْحة ، وأعطانى الدنانير فأخذتها منه ، وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف . وأخبرت صاحِبَيَّ بالقضية ، وقلت لهما : إن شئتما فخذا نصيبكما منها ، فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه . وقالا لى : إن الدنانير الستة التى أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها ، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه . فطال عجبى من أمره . واحتفظت بتلك الدنانير التى أعطانيها .

وأهل مدينة هِنَوْر شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد فى الحرب وقوة . وبذلك عُرِفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسَنْدابُور ، وسنذكر ذلك . ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمدا الناقورى ، وأضافنى بزاويته ، وكان يطبخ الطعام بيـده ، استقذارا للجارية والغلام . ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى . وهو ورِع حسن الخلق كريم النفس ، والقاضى بها نور الدين عليًا . ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المَخيط ، وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة ، تحتزم إحداهن بأحد طرفى الثوب ، وتجعل باقيه على رأسها وصدرها . ولهن جمال وعفاف . وتجعل إحداهن خِرْص[1] ذهب فى أنفها . ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن العظيم . ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد . ولم أر ذلك فى سواها . ومعاش أهلها من التجارة فى البحر . ولا زرع لهم . وأهل بلاد المُلَيْبَـار يعطون السلطان جمال الدين فى كل عام شيئا معلوما ، خوفا منه لقوته فى البحر . وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجّالة .

(١) الخرص بفتح الخاء وكسرها حلقة من الذهب أو الفضة .

ذكر سلطان هِنَوْر

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن ، من خيار السلاطين وكبارهم . وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هَرْيَب سنذكره . والسلطان جمال الدين مواظب على الصلاة فى الجماعة . وعادته أن يأتى إلى المسجد قبل الصبح فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر ، فيصلى أول الوقت ثم يركب إلى خارج المدينة ، و يأتى عِند الضُّحا فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ، ثم يدخل إلى قصره . وهو يصوم الأيام البيض . وكان أيام إقامتى عنده يدعونى للإفطار معه ، فأحضر لذلك . و يحضر الفقيه علىّ والفقيه إسماعيل ، فتوضع أربعة كراسى صغار على الأرض . فيقعد على أحدها و يقعد كل واحد منا على كرسى .

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس ، ويجعل عليها صحفة نحاس يسمونها (الطَالَم) ، وتأتى جارية حَسْناء ملتحفة بثوب حرير ، فتقدم قدور الطعام بين يديه ، ومعها مِغْرفة نحاس كبيرة ، فتغرف بها من الأرز مِغْرفة واحدة ، وتجعلها فى (الطَالَم) ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح ، والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعَنْبا[1] . فيأ كل الإنسان لقمة و يتبعها بشىء من تلك المواح . فإذا ما تمت الغرفة التى جعلتها فى (الطَالَم) ، غرفت غرفة أخرى من الأرز ، وأفرغت دجاجة مطبوخة فى سُكُرُّجَة ، فيؤكل بها الأرز أيضا . فإذا تمت الغرفة الثانية ، غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به . فإذا تمت ألوان الدجاج أُتُوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضا . فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخُضَر مطبوخة بالسمن

(١) المانجو ، كما مرّ فى الحواشى .

والألبان ، فيأكلون بها الأرز . فإذا فرغ ذلك كله أُتُوا باللبن الرائب ، وبه يختمون طعامهم . فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده . ثم يشربون على ذلك الماء السُّخْن ، لأن الماء البارد يَضُرّ بهم فى فصل نزول المطر .

ولقد أقمت عند هذا السلطان فى كَرّة أخرى أحد عشر شهرا لم آكل خبزا، وإنما طعامهم الأرز . وبقيت أيضا بجزائر المَهَل وسيلان وبلاد المَعْبر والمُلَيْبَار ، ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرز ، حتى كنت لا أستسيغه إلا بالماء . ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرِقاق ، يشد فى وسطه فُوطة ويلتحف بِمِلْحفتين إحداهما فوق الأخرى . ويَعْقِص[1] شعره ويَلُفُّ عليه عمامة صغيرة . وإذا ركب لبس قَباء والتحف بملحفتين فوقه . وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال . وكانت إقامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة أيام . وزودونا وسافرنا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المُلَيْبَار ، وهى بلاد الفلفل . وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سَنْدَابُور إلى كَوْلَم . والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار . وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين ، يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر . وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ، ورجل كافر موكل بها . فمن كان كافرا سقاه فى الأوانى ، ومن كان مسلما سقاه فى يديه ، ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف . وعادة الكفار ببلاد المُلَيْبَار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يَطْعَم فى أوانيهم. فإن طَعِم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين. وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين ، طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز ، وصبوا عليه الإدام. وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير . وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون ، فيبيعون منهم[2]

(١) عَقَص الشعر ضفره وليّه على الرأس .

(٢) باعه الشىء و باعه منه . أساس .

جميع ما يحتاجون إليه ، و يطبخون لهم الطعام . ولولاهم لما سافر فيه مسلم.
وهذا الطريق الذى ذكرنا أنه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة . وكل إنسان بستانه على حِدَة وداره فى وسطه ، وعلى الجميع حائط خشب . والطريق يمر فى البساتين، فإذا انتهى إلى حائط بستان ، كان هنالك دَرَج خشب يُصْعد عليها ، ودرج أُخْرى يُنْزل عليها إلى البستان الآخر ، هكذا مسيرة الشهرين . ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان . وأكثر ركوب أهلها فى(دَوْلة)على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يركب (دولة) مشى على قدميه كائنا من كان . ومن كان له رَحْل أو متاع من تجارة وسواها ، اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم ، فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته ، و بيد كل واحد منهم عود غليظ له زُجّ حديد[1] ، وفى أعلاه مِحْطاف حديد . فإذا أعيا ولم يجد دكانة[2] يستريح عليها ،ركز عوده بالأرض وعلق حمله منه. فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به . ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق .

وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه . وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة ، و بلغ خبره الحاكم ، فأمر بعود فركز فى الأرض و بُرِىَ طرفه الأعلى ، وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ،ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره. وترك عبرة للناظرين. ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثير، ليراها الناس فيتعظوا . ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذه الطريق ، فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز . والمسلمون أعز الناس بها ،غير أنهم كما ذكرنا لا يؤا كلونهم

---

(١) الزج الحديدة التى فى أسفل الرمح .

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن اللفظ (دكان) لا (دكانة) .

ولا يدخلونهم دورهم . وفى بلاد المُلَيْبَار اثنا عشر سلطانا من الكفار ، منهم القوىّ الذى يبلغ عسكره خمسين ألفا ، ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم البتة . ولا يطمع القوىّ منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب أمان فلان . وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر، أمِن على نفسه، ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه ، وإن كان القوىَّ صاحب العدد والجيوش . وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم . وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء ، أمر بعض غلمانه فعلّق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشترى ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفُلْفُل

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب . وهم يغرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالى . وأوراق شجره تشبه أوراق الخيل[١] . وبعضها يشبه أوراق العُلَّيْق[٢] ويثمر عناقيد صغارا . وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحُصُر فى الشمس ، كما يصنع بالعنب . ولا يزالون يقلّبونه حتى يستحكم يُبْسه ، ثم يبيعونه من التجار . والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار ، وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش . وليس كذلك . وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس . ولقد رأيته بمدينة قَالِقُوط يُصَبّ للكيل كالذرة ببلادنا .

(١) الخيل بالكسر ويفتح السَّذَاب .

(٢) نوع من النبت يتعلق بالشجر .

وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبى سَرُور ، وهى صغيرة على خور كبير ، كثيرة أشجار النَّارَجِيل . وكبير المسلمين بهـا الشيخ جمعـة ، أحد الكرماء ، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نَفِدَت . وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فَاكَنَوْر ، مدينة كبيرة على خُور ، بها قصب السـكر الكثير الطيب ، الذى لا مثل له بتلك البلاد . وبهـا جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السِلَاط . وبها قاض وخطيب . وعمر بهـا حسين مسجدا لإقامة الجمعة .

ذكر سلطانها

وسلطان فَاكَنَوْر كافر اسمه بَاسَدَوْ . وله نحو ثلاثين مركبا حربيـا قائدها مسلم يسمى لُولا . وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار . ولمـا أرسينا على فَاكَنَوْر بعث سلطانها إلينا ولده ، فأقام بالمركب كالرهينة . ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة ، تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه ، ورغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا . ومن عاداتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها ، وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البَنْدَر[1] ، ومن لم يفعل ذلك خرجوا فى اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا ، وضاعفوا عليـه المَغْرَم ، ومنعوه عن السفر ما شاءوا . وسافرنا منهـا فوصلنا بعـد ثلاثة أيام إلى مدينـة مَنْجَرُور . مدينة كبيرة على خُور يسـمى خور الدُّنْب ، وهو أكبر خور ببلاد المليبار ، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن . والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا .

---

(١) البَنْدَر المَرْسَى . قاموس .

ذكر سلطانها

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رَامَدَوْ . وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون رَبَضا[1] بناحية المدينة . وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار . وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعيّ المذهب ، يسمى بدر الدين المَعْبَرى ، وهو يقرئ العلم. صعِد إلينا فى المركب ، ورغب منا فى النزول إلى بلده ، فقلنا : حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب. فقال: إنما فعل ذلك سلطان فَاكَنَوْر ، لأنه لاقوة للسلمين فى بلده. وأما نحن فالسلطان يخافنا. فأبينا عليه إلا إن بعث السلطان ولده . فبعث ولده كما فعل الآخر. ونزلنا إليهم وأكرمونا إكراما عظيما ، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام .

ثم سافرنا إلى مدينة هِيلِى ، فوصلناها بعد يومين . وهى كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار . وإلى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين ، ولا تدخل إلا مرساها ومرسى كَوْلَم وقالِقُوط . ومدينة هيلى معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع ، فإنه عظيم البركة مشرق النور . وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة . وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين ، وحسن الوزّان كبير المسلمين . وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم. ولهم مرتبات من مال المسجد. وله مطبخة [2] يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها . ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مَقْدَشُو [3] يسمى سعيدا ، حسن اللقاء والخلق . وذكر لى أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ،

---

(١) ربض المدينة ما حولها .

(٢) الصحيح مطبخ لا مطبخة .

(٣) مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن اهـ ياقوت .

ومثلها بالمدينة . وسافر فى بلاد الهند والصين . ثم سافرنا من هيلى إلى مدينة جُرْفَتَّن. وبينها و بين هيلى ثلاثة فراسخ. ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصَرْصَرِى ، نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد فى طريق الكوفة . واسمها كاسم صَرْصَر التى عندنا بالمغرب ، وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال، له أولاد صغار أوصى إليه بهم ، وتركته آخذا فى حملهم إلى بغداد. وعادة أهل الهند كعادة السودان، لايتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف، و إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين، حتى يأخذه مستحقه شرعا .

ذكر سلطانها

وهو يسمى بِكُوَيْل. وهو من أكبر سلاطين المُلَيْبَار . وله مراكب كثيرة تسافر إلى عُمان وفارس واليمن . وسرنا من جُرْفَتَّن إلى مدينة دَهْفَتَّن ، وهى مدينــة كبيرة على خُور ، كثيرة البساتين . وبها النارَجيل والفلفل والفَوْفَل والتانْبُول . وبهـا القلقاس الكثير ، و يطبخون به اللحم . وأما الموز فلم أرفى البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمنا . وفيها البايِن[1] الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمـائة خطوة . وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة . وعلى جوانبه ثمـان وعشرون قبة من الحجر، فى كل قبة أربع مجالس من الحجر، وكل قبة يصعد إليها على دَرَج حجارة ، وفى وسـطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات. فى كل طبقة أربعة مجالس . وذكر لى أن والد هذا السلطان كُوَيْل هو الذى عمر هذا البايِن . وبإزائه مسجد جامع للسلمين . وله دَرَج ينزل منها إليه، فيتوضأ منه الناس ويغتسلون. وحدثنى الفقيه حسين أن الذى عمر المسجد والباين أيضـا هو أحد أجداد كويل ، وأنه كان مسلما ولإسلامه خبر عجيب نذكره .

---

(١) معناه الحوض ، بلسانهم .

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التى بإزاء الجامع[١]

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلا أنها لينة ، وعليها حائط يُطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين . واسم هذه الشجرة عندهم (دَرَخْت الشهادة) . وأخبرت هنالك أنه إذا كان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأخبرنى الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرءوا المكتوب الذى فيها . وأخبرنى أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار ، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها فى خزانة السلطان الكافر . وهم يستشفون بها للمرضى .

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كُوَيْل الذى عمر المسجد والباين . فإنه كان يقرأ الخط العربى . فلما قرأها وفهم مافيها أسلم وحسن إسلامه . وحكايته عندهم متواترة . وحدثنى الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى ، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر . ثم إنها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه . وهلك الكافر سريعا .

ثم سافرنا إلى مدينة بُدْفَتَّن . وهى مدينة كبيرة على خور كبير . وبخارجها مسجد قريب من البحر ، يأوى إليه غرباء المسلمين ، لأنه لا مسلم بهذه المدينة . ومرساها من أحسن المراسى ، وماؤها عذب . والفَوْفَل بها كثير ، ومنها يحمل إلى الهند والصين . وأكثر أهلها براهمة ، وهم معظَّمون عند الكفار ، مبغَضُون فى المسلمين ، ولذلك ليس بينهم مسلم .

(١) خبر هذه للشجرة مكذوب كما هو ظاهر . وقد صدقه المؤلف ، كما صدق كثيرا من الخرافات التى ذكرها فى هذه الرحلة .

حكاية

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته ، فاشتعلت النار فى بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه . فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها ، وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير .

ثم سافرنا من مدينة بُدْفَتَّن إلى مدينة فَنْدَرِينَا ، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق ، وبها للمسلمين ثلاث مَحَلَّات فى كل مَحَلَّة مسجد . والجامع بها على الساحل ، وهو عجيب ، له مناظر ومجالس على البحر . وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عُمَان ، وله أخ فاضل . وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين . ثم سافرنا منها إلى مدينة قَالِقُوط ، وهى إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار ، يقصدها أهل الصين والجاوة وسَيلان والمَهَل ، وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسى الدنيا .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يعرف بالسامِرِىّ ، شيخ مسن يحلق لحيته ، كما يفعل طائفة من الروم ، رأيته بها ، وسنذكره إن شاء الله . وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر ، من أهل البحرين ، فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكلون فى سِماطه . وقاضيها فخر الدين عثمان ، فاضل كريم . وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازَرُونى ، وهو يأخذ النذور التى ينذرها أهل الهند والصين للشيخ أبى إسحاق الكازرونى(١) ، نفع الله به . وبهذه المدينة (الناخداة) مِثقال الشهير

(١) النذر لغير الله حرام ، كما أوضحنا فى الحواشى . ونَذَر من بابى ضرب ونصر .

الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة ، لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس .

ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين ، وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بِقُلاج ، ومعهم الأطبال (والأنقار) والأبواق والأعلام فى مراكبهم. ودخلنا المرسى فى بروز [1] عظيم ، مارأيت مثله بتلك البلاد . فكانت فرحة تتبعها ترْحة . وأقمنا بمرساها ، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ، ونزلنا بالمدينة وجُعِل كل واحد منا فى دار . وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر، ونحن فى ضيافة الكافر. وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين . ولنذكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى (الجُنُوك) وأحدها (جُنْك)، والمتوسطة تسمى (الزَّو). والصغار يسمى أحدها الكَكَم[2]. ويكون فى المركب الكبيرة منها اثنا عشر قِلعًا فما دونها إلى ثلاثة . وقِلعها من قضبان الخَيْزُران منسوجة كالحُصُر ، لاتحط أبدا ، ويديرونها بحسب دوران الريح ، وإذا أرسوا تركوها واقفة فى مهب الريح. ويخدُم فى المركب منها ألف رجل ، منهم البحْرية ستمائة ، ومنهم أربعمائة من المقاتِلة ، تكون فيهم الرماة ، وأصحاب الدَرَق ، والذين يرمون بالنِفط. ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفى والثلثى والربعى . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كَلَان ، وهى صين الصين . وكيفية إنشائها أنهم

(١) يقصد فى أبهة ، لأن الأبهة من شأنها البروز أى الظهور .

(٢) هذه الأسماء غير عربية ولا معربة .

يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخُشب ضِخام جدا ، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المِسمار منها ثلاث أذرع . فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ، ودفعوهما فى البحر ، وأتموا العمل . وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم . وهى كبار كالصوارى . يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذِفون وقوفا على أقدامهم . ويجعلون للمركب أربعة ظهور . ويكون فيه البيوت (١) والمصارى (٢) ، والغرف للتجار . والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس(٣)، وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل فى مِصْريته فلا يعرف به غيرُه ممن يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحْرية يسكنون فيها أولادهم . ويزدرعون الخُضَر والبقول والزنجبيل فى أحواض خشب . ووكيل المركب كأنه أمير كبير . وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحُبْشان بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق (والأنفار) أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذى يقيم به ركزوا رماحهم من جانبى بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد . وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين .

ذكر أخذنا فى السفر إلى الصين ومنتهى ذلك

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامِرىّ (جُنْكا) من الجنوك الثلاثة عشر التى بمرسى قالِقُوط . وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفَدىّ الشامىّ ، وبينى وبينه معرفة . فقلت له أريد (مِصْرية) لا يشاركنى

---

(١) الغرف . (٢) المصرية حجرة النوم وما يتبعها من مرحاض وغيره . والتسمية عرفية ، وكذلك جمعها على مصار . (٣) المرحاض ، غير عربى .

فيها أحد . فقال لى : إن تجار الصين قد اكتروا المصارى ذاهبين وراجعين . ولصهرى (مِصْرية) أعطيكها ، لكنها (لاسنداس) فيها . وعسى أن تمكن معاوضتها . فأمرت أصحابى فأوسقوا ما عندى من المتاع ، وصعد العبيد والجوارى إلى (الجنك) ، وذلك فى يوم الخميس . وأقمت لأصلى الجمعة وألحق بهم . وصعد الملك سُنْبل وظهير الدين مع الهدية . ثم إن فتى لى يسمى هِلالا أتانى غُدْوة الجمعة ، فقال : إن (المصرية) التى أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح . فذكرت ذلك للناخُذَاة ، فقال : ليست فى ذلك حيلة . فإن أحببت أن تكون فى (الكَكَم) ففيه المصارى على اختيارك . فقلت نعم ، وأمرت أصحابى فنقلوا الجوارى والمتاع إلى (الكَكَم) . واستقروا به قبل صلاة الجمعة . وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه . وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها إلا الذى فيه الهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يَشْتُوا بِفَنْدَرَيْنَا ، والككم هذا . فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الككم ، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا . ولم يكن بقى معى إلا بساط أفترشه . وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى . ورمى البحر بالجنك الذى كان أهله يريدون فَنْدَرَيْنَا ، فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم . وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه ، فرغب فى إعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها ، وكانت قد لزمتْ خشبة فى مؤخر الجنك . فانتدب [1] لذلك بعضُ البحرية الهُرْمُزِيين فأخرجها ، وأبى أن يأخذ الدنانير . وقال : إنما فعلت ذلك لله تعالى .

ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية ، فمات جميع من فيه . ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم ، ورأيت ظهير الدين وقد انشق رأسه وتناثر دماغه ، والملك سُنْبلا وقد ضرب مسمار فى أحد صُدْغيه ونَفَذَ

---

(١) ندبه للأمر دعاه فانْتَدَبَ هو .

من الاخر . وصلينا عليهما ودفناهما . ورأيت الكافر سلطان قالِقُوط وفى وسطه شَقَّة[1] بيضاء كبيرة ، قد لفها من سرته إلى ركبته وفى رأسه عمامة صغيرة ، وهو حافى القدمين. والشطر[2] بيد غلام فوق رأسه ، والنار توقد بين يديه فى الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمى البحر .

وعادة بلاد المُلَيْبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا فى هذا البلد خاصة ، فإن ذلك يأخذه أربابه ولذلك عُمِرَتْ وكثر تردد الناس إليها . ولما رأى أهل (الكَكَم) ما حدث (لِلْجُنْك) ، رفعوا قِلْعهم وذهبوا ، ومعهم جميع متاعى وغلمانى وجوارىّ ، وبقيت منفردا على الساحل ، وليس معى إلا فتى كنت أعتقته ، فلما رأى ما حلّ بى ذهب عنى. ولم يبق عندى إلا العشرة الدنانير التى أعطانيها الجُوكى، والبساط الذى كنت أفترشه . وأخبرنى الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كَوْلَم ، فعزمت على السفر إليها ، وبينهما مسيرة عشر فى البر أو فى النهر أيضا لمن أراد ذلك . فسافرت فى النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لى البساط . وعادتهم إذا سافروا فى ذلك النهر أن ينزلوا بالعشىّ فيبيتوا بالقرى التى على حافتيه ، ثم يعودوا إلى المركب بالغدوّ. فكنا نفعل ذلك . ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذى اكتريته . وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا ويعربد علىّ ، فيزيد تغير خاطرى . ووصلنا فى اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجِى كَرِى. وهى بأعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم . ويؤدون الجزية لسلطان كَوْلَم .

---

(١) بفتح الشين وكسرها .

(٢) المظلة بلسانهم ، معرب جتر ، كما شرحناه فى الحواشى .

ذكر القِرْفة والبَقَّم

وجميع الأشجار التى على هذا النهر أشجار القِرفة والبقم، وهى حطبهم هنالك، ومنها كنّا نوقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق .

وفى اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كَوْلَم، وهى من أحسن بلاد المُلَيْبار وأسواقها حسان . وتجارها يعرفون بالصُّوليين، لهم أموال عريضة، يشترى أحدهم المركب بما فيه، ويُوسِقه من داره بالسلع . وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأَوَجى، من أهل أَوَه [1] من بلاد العراق وهو رافضى . ومعه أصحاب له على مذهبه . وهم يظهرون ذلك . وقاضيها فاضل من أهل قَزْوين . وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم اسمه تقى الدين . والمسجد الجامع بها عجيب، عمره التاجر خواجة مهذّب . وهذه المدينة أول ما يُوَالى الصين من بلاد المليبار . وإليها يسافر أكثرهم . والمسلمون بها أعِزّة محترمون .

ذكر سلطانها

وهو كافر يعرف بالتِيرَوَرِى . وهو معظّم للسلمين . وله أحكام شديدة على السُّراق والدُّعّار .

حكاية

ومما شاهدت بكَوْلَم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم، وفر إلى دار الأَوَجى، وكان له مال كثير، وأراد المسلمون دفن المقتول، فمنعهم نواب

(١) قال ياقوت : أَوَه بفتحتين قرية بين زَنْجان وهَمَذَان .

السلطان من ذلك ، وقالوا : لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به. وتركوه في تابوته على باب الأوجى حتى أنتن وتغير. فمكّنهم الأوجى من القاتل، ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيا ، فأبوا ذلك وقتلوه . وحينئذ دفن المقتول :

حكاية

أُخبرت أن سلطان كَوْلَم ركب يوما إلى خارجها . وكان طريقه فيما بين البساتين ، ومعه صهره زوج بنته ، وهو من أبناء الملوك . فأخذ حبة واحدة من العنب سقطت من بعض البساتين، وكان السلطان ينظر إليه ، فأمر به عند ذلك فوسّط أى قسم نصفين ، وصلب نصفه عن يمين الطريق ، ونصفه الآخر عن يساره . وقسمت العنبة نصفين ، فوضع على كل نصف منه نصف منها . وترك هنالك عبرة للناظرين[١] .

حكاية

ومما اتفق نحو ذلك بقَالِقُوط ، ان ابن أخى النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين، فشكا بذلك إلى عمه ، فوعده بالنظر فى أمره . وقعد على باب داره، فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف، فدعاه فقال: هذا سيف المسلم؟ قال نعم. قال: اشتريته منه؟ قال لا، فقال لأعوانه أمسكوه. ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف .

وأقمت بكَوْلَم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازَرونى شيخ زاوية قَالِقُوط ، فلم أتعرف للكَنكَم خبرا . وفى أثناء مُقَامى

(١) فى هذه الحكاية مبالغة غير معقولة .

بها دخلها رسل ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا مع أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا ، فكساهم تجار الصين وعادوا إلى بلادهم . ولقيتهم بها بعد .

وأردت أن أعود من كَوْلَم إلى السلطان لأعلمه بما اتفق للهدية . ثم خفت أن يتعقب فعلى و يقول: لم فارقت الهدية ؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهِنَوْرِى ، والإقامة عنده حتى أتعرف خبر (الكَكَم). فعدت إلى قَالِقُوط ، ووجدت بها بعض مراكب السلطان ، وقد بعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن، وهو من خواص البوابين، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز (١) والقَطِيف(٢) لمحبته للعرب . فتوجهت إلى هذا الأمير، ورأيته عازما على أن يشتو بقالقوط ، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب. فشاورته فى العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك . فسافرت بالبحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه . فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو إلى الغد .

ولقينا فى طريقنا أربعة أجفان(٣) غَزْوِية فخفناها ، ولكنهم لم يتعرضوا لنا بشر. ووصلنا إلى مدينة هِنَّور ، فنزلت إلى السلطان وسلمت عليه ، فأنزلنى بدار ، ولم يكن لى خادم. وطلب منى أن أصلى معه الصلوات ، فكان أكثر جلوسى فى مسجده . وكنت أختم القرآن كل يوم . ثم كنت أختم مرتين فى اليوم : أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح ، فأختم عند الزوال ، وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة ، فأختم الختمة الثانية عند الغروب . ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر . واعتكفت فيها أربعين يوما .

---

(١) فرضة كرمان ، على بر فارس اه ياقوت .

(٢) مدينة بالبحرين .

(٣) نوع من السفن الحربية ، كأنه يريد جمع جَفْن، ولم نر هذا المعنى بهذا اللفظ فى كتب اللغة التى بأيدينا ، كما تقدم فى الحواشى .

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سَنْدَابُور

وكان السلطان جمال الدين قد جَهَّز اثنين وخمسين مركبا لغزو سندابور. وكان قد وقع بين سلطانها وولده خلاف، فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور، ويُسَلِّم الولدُ، ويزوجه السلطان أخته. فلما تجهزت المراكب ظهر لى أن أتوجه فيها إلى الجهاد، ففتحت المصحف أنظر فيه. فكان أول الصفحة (يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره)، فاستبشرت بذلك. وأتى السلطان إلى صلاة العصر فقلت له: إنى أريد السفر، فقال: فأنت إذن تكون أميرهم. فأخبرته بما خرج لى أول الصفحة، فأعجبه ذلك. وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل. فركب مركبا منها وأنا معه. وذلك فى يوم السبت. فوصلنا عشىّ الاثنين إلى سندابور، ودخلنا خُورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب، وقد نصبوا المجانيق، فبتنا عليها تلك الليلة.

فلما أصبحنا ضربت الطبول (والأنقار) والأبواق، وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق. فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان. ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء وبأيديهم التِّرَسَةَ والسيوف. وأنزل النصر على المسلمين، فدخلنا بالسيف. ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها، فرمينا النار فيه، فخرجوا وقبضنا عليهم. ثم إن السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم، وكانوا نحو عشرة آلاف. وأسكنهم بربَض المدينة. وسكن السلطان القصر. وأعطى أهل دولته الديار بالقرب منه. وكسانى فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر. وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى، إلى منتصف شعبان. وطلبت منه الإذن فى السفر، فأخذ علىّ العهد فى العودة إليه.

وسافرت فى البحر إلى هِنَـوْر ثم إلى فَاكَنْور ، ثم إلى مَنْجَرُور ثم إلى هِيـلِي ، ثم إلى جُرْفَتَّن ودَهْ فَتَّن وبُدْفَتَّن وفَنْدَرَينَا وقالِقُوط . وقد تقدم ذكرها جميعا . ثم إلى مدينة الشَّالْيات ، مدينة من حسان المدن ، تصنع بها الثياب المنسوبة لها . وأقمت بها فطال مُقامى ، فعدت إلى قَالِقُوط . ووصل إليها غلامان كانا لى (بالكَكَم) ، فأخبرانى أن جاريتى توفيت ، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى ، واستولت الأيدى على المتاع ، وتفرق أصحابى إلى الصين والجاوة وبَنْجالة . فعدت لما تعرفت هذا إلى هِنَـوْر ، ثم إلى سَنْدابور فوصلتها فى آخر المحرم ، وأقمت بها إلى الثانى من شهر ربيع الآخر . وقدم سلطانها الكافر الذى دخلناها عليه (١) لأخذها ، وهرب إليه الكفار كلهم ، وكانت عساكر السلطان متفرقة فى القرى فانقطعوا عنا . وحصرنا الكفار وضيقوا علينا . ولما اشتدّ الحال خرجت عنها وتركتها محصورة ، وعدت إلى قَالِقُوط .

وعزمت على السفر إلى ذِيبَة المَهَل (٢). وكنت أسمع بأخبارها. فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل. وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهى نحو ألفى جزيرة، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر. وهى من التقارب بحيث تظهر رءوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى . فإن أخطأ المركب سَمْتَها لم يمكنه دخولها ، وحملته الريح إلى المَعْبَر أو سَيلان . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهى منقسمة أقاليم ، على كل إقليم وال . وهذه الجزائر كلها لا

---

(١) أى عند الغزوة كما سبق . (٢) جزائر مالديف كما تقدم فى الحواشى .

زرع بها ، إلا أن فى إقليم السُّوَيْد منها زرعا ، ويجلب منه إلى المَهَل . وإنما أكل أهلها سمك يسمونه قُلْب ألماس ، ولحمه أحمر ولا ذَفَر له ، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام . وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ، ثم جعلوه فى مَكَاتل[1] من سعف النخل ، وعلقوه للدخان. فإذا استحكم يُبْسه أكلوه . ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن .

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارَجيل ، وهو من أقواتهم مع السمك ، وقد تقدم ذكره . وأشجار النارجيل شأنها عجيب . وتثمر النخلة منها اثنى عشر عِذْقا[2] فى السنة ، يخرج فى كل شهر عِذْق . فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا ، وبعضها يابسا وبعضها أخضر ، هكذا أبدا. ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل ، على ما ذكرنا لك فى السفر الأوّل . ويصنعون من عسله الحلواء ، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . وأقمت بها سنة ونصف أخرى . ومن أشجارها الأُتْرُجّ والليمون والقلقاس .

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عاداتهم وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة . وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له : الله ربى ومحمد نبيى . وأبدانهم ضعيفة ، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة . ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها ،

---

(١) جمع مِكْتل وهو الزنبيل .

(٢) العذق : الكِبَاسة . وهو من التمر كالعنقود من العنب .

فَغُشِيَ على جماعة منهم كانوا بالمجلس . ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذْعَرهم. وإذا أتت (أجفان) العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء . وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة ، عاقبه أمير الكفار، وضربه الضرب المبرِّح .

وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة . وأكثر عمارتهم بالخشب . وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم ، تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق. ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها . ويتلطخون بالغالية[1] المجلوبة من مَقْدَشُو . ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمُكْحلة ، وبماء الورد ودهن الغالية ، فيكْحَل عينيه، ويدّهن بماء الورد ودهن الغالية ، فتصقل بشرته ، وتزيل الشحوب عن وجهه . ولباسهم فُوَط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثيابا كالمحرمين ، وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلا صغيرا عوضا عنها. وإذا لقى أحدهم القاضى أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه ، وكشف ظهره ، ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله . ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته ، بُسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجُعل عليها غَرفات من الوَدَع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله . وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره . فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدّامه. وإن كانت المرأة هى التى تأتى إلى منزل الرجل بُسطت[2] داره وجُعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه . وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم ، لا بد من ثوب

(١) نوع من الطيب .

(٢) أى بسطت فيها الثياب ونحوها . وفى التعبير تجوز .

يرمى عند ذلك ، وسنذكره . وبنيانهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات ، لأن أرضهم نَدِيَّة .

وكيفية ذلك أنهم ينحتون حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارَجيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب ، ولهم صناعة عجيبة فى ذلك . ويبنون فى (أسطوان)[1] الدار بيتا يسمونه (المالَم) ، يجلس الرجل به مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة (الأسطوان) يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار ، يدخل منه صاحبها. ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ، ولها مُسْتَقٍ من قشر جوز النارجيل ، وله نصاب طوله ذراعان .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع . وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشى بها كأنه فى بستان . ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابية ، ويمسحهما بحصير غليظ من الليف هنالك ، ثم يدخل بيته . وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد . ومن عاداتهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه القوارب الصغار ، وفيها أهل الجزيرة ومعهم التانبُول وجوز النارجيل الأخضر ، فيعطى الإنسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب ، ويكون نزيله ، ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه . ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج ، فإذا حان سفره طلق المرأة ، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن ، ومن لم يتزوج فالمرأة التى ينزل بدارها تطبخ له وتخدُمه ، وتزوّده إذا سافر ، وترضى منه فى مقابلة ذلك بأيسر شىء من الإحسان . وفائدة المخزن[2] (ويسمونه البندر) أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بِسَوْم معلوم ، سواء أكانت السلعة تساوى ذلك أم كانت

(١) تقدم شرحه ، وأنه غير عربى بهذا المعنى .

(٢) بيت المال . وقد ورد كثيرا بهذا المعنى فى الرحلة .

تساوى أكثر منه . ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب، يجمع به الوالى جميع سلعه ويبيع ويشترى . وهم يشترون الفَخّار إذا جلِب إليهم بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست .

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه ، وجوز النّارَجيل والفُوَط والعمائم ، وهى من القطن . ويحملون منها أوانى النحاس فإنها عندهم كثيرة . ويحملون الودع ، ويحملون القَنْبَر(١) وهو ليف جوز النارجيل. وهم يدْبغُونه ثم تغزله النساء ، وتُصْنع منه الحبال لخياطة المراكب ، وتحمل إلى الصين والهند واليمن . وهو خير من القِنَّب . وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن ، لأن ذلك البحر كثير الحجارة. فإن كان المركب مسمَّرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر . وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر .

وصَرْف أهل هذه الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه فى حُفَر هنالك ، فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض . ويبيعونه من أهل بَنْجالة بالأرز . وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة . ويبيعونه من أهل اليمن ، فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم . وهذا الودع أيضا صرف السودان فى بلادهم . رأيته يباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبىّ .

---

(١) ضبطه المؤلف بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء . ولم نجد هذا اللفظ لهذا المعنى فيا بين أيدينا من كتب اللغة .

ذكر نسائها

ونساؤها لا يغطين رءوسهن ، ولا سلطانتهم تغطي رأسها . ويمشطن شعورهن، ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . ولقد جَهَدْتُ لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك . فكنت لا تدخل إلىّ منهن امرأة فى خصومة إلا مستترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لى عليه قدرة . ولباس بعضهن قُمُص زائدة على الفوطة. وقُمُصُهن قصار الأكمام عراضها . وكان لى جوار كسوتهن لباس أهل دهلى ، يغطين رءوسهن، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن ، إذ لم يتعودنه . وحَلْيهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق . وهى من الفضة . ولا يجعل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه . ولهن الخلاخيل وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن. ومن عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار، على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها . وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يَرَيْن ذلك عيبا . ويفعله أكثر بناتهم ، فتجد فى دار الإنسان الغنىّ منهن العشر والعشرين . وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التى تخرج إليها العدد الذى هى مُرْتَهَنة فيه ، فتدفعه لأهل الدار التى خرجت منها ، ويبقى عليها للآخرين . وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل (القنبر). والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصَّداق، وحسن معاشرة النساء. وأكثر الناس لا يسمى صداقا ، وإنما تقع الشهادة ، ويُعْطَى صداقُ مثلها . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا . ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن .

ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن ألا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة .

ذكر السبب فى إسلام أهل هذه الجزائر
وذكر العفاريت من الجن التى تضربها فى كل شهر

حدثنى الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمنى والفقيه المعلم على والقاضى عبد الله وجماعة سواهم ، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفارا ، وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت[1] من الجن ، يأتى من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل . وكانت عادتهم أنهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها ، وأدخلوها (بُدْخانة) وهى بيت الأصنام ، وكان مبنيا على ضفّة البحر ، وله طاق ينظر إليه منه ، ويتركونها هنالك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها ميتة . ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته . ثم إنه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرىّ ، وكان حافظا للقرآن العظيم . فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المَهَل ، فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن فى مأتم ، فاستفهمهن عن شأنهن ، فلم يُفْهِمنه . فأتى تُرجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها ، وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت . فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضا عن بنتك بالليل . وكان لا لحية له . فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه (بدخانة) وهو متوضئ ، وأقام يتلو القرآن ، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة . فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر ، وأصبح المغربى وهو يتلو على حاله .

(١) حكاية هذا العفريت ظاهرة البطلان .

بجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ، ليستخرجوا (البنت) على عادتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربى يتلو ، فمضوا به إلى ملكهم ، وأعلموه بخبره ، فعجب منه . وعرض المغربى عليه الإسلام ورغبه فيه . فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر ، فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت . فأقام عندهم ، وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته . ثم حُمل المغربى لما دخل الشهر إلى (بدخانة) ، ولم يأت العفريت ، فجعل يتلو حتى الصباح . وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الأصنام وهدموا (بدخانة) . وأسلم أهل الجزيرة ، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها . وأقام المغربى عندهم معظما ، وتمذهبوا بمذهبه ، مذهب الإمام مالك رضى الله عنه . وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه . وبنى مسجدا معروفا باسمه . وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا فى الخشب : أسلم السلطان أحمد شِنُورازة على يد أبى البركات البربرى المغربى . وجعل ذلك السلطان ثلث مجابى الجزائر صدقة على أبناء السبيل ، إذ كان إسلامه بسببهم .

ذكر سلطانة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة ، وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البَنجالى . وكان الملك لجدها ثم لأبيها . فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين ، وهو صغير السن ، فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحَضْرَمى أمه وغلب عليه . وهو الذى تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة ، بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين ، كما سنذكره . فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال ، أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر

السُّوَيْد، واستقلَّ بالملك واستوزر أحد مواليه ، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد . وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين هـذا (أمور شائنـة) ، فخلعوه لذلك ونفوه ، وبعثوا من قتـله . ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخواته : خديجة الكبرى ومريم وفاطمة . فقدّموا خديجـة سلطانة ، وكانت متروجة بخطيبهم جمال الدين ، فصار وزيرا وغالبا على الأمر . وقدّم ولده محمدا للخطابة عوضا عنه ، ولكن الأوامر إنمـا تنفذ باسم خديجة .

وهم يكتبون الأوامر فى سَعَف النخل بحديدة معوجة شـبه السكين . ولا يكتبون فى الكاغَد إلا المصاحف وكتب العـلم . ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيره . فيقول : اللهم انصر أَمَتَك التى اخترتها على عِلْم على العالمين ، وجعلتها رحمة لكافة[1] المسلمين ، ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين . ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ، ومضى إلى (المشور) ، وهم يسمونه الدار ، أنه يستصحب ثوبين ، فيخدُم لجهة هـذه السلطانة ، ويرمى بأحدهما ، ثم يخـدم لوزيرها ، وهو زوجها جمال الدين ، ويرمى بالثانى . وعسكرها نحو ألف إنسان من الغرباء ، وبعضهم بلديّون . ويأتون كل يوم إلى الدار فيخدمون وينصرفون . ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر فى كل شهر . فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا ، وقالوا للوزير : بلّغ عنا الخدمة ، واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا ، فيؤمر لهم به عند ذلك . ويأتى أيضا إلى الدار كل يوم القاضى والوزراء ، فيخدمون ، ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون .

---

(١) استـعمال كلمة (كافة) على هذا النحو غلط ، والصواب أن يقال : وجعلتها رحمة للسلمين كافّةً .

ذكر وصولى إلى هذه الجزائر وتنقّل حالى بها

ولما وصلت إليها نزلت منها بجزيرة كَنَّلُوس ، وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة . ونزلت بدار رجل من صلحائها . وأضافنى بها الفقيه علىّ ، وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم . ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظَفار (١) الحُمُوض ، فأضافنى وقال لى : إن دخلت جزيرة المَهَل أمسكك الوزير بها ، فإنهم لاقاضى عندهم . وكان غرضى أن أسافر منها إلى المَعْبَر وسَرَنْديب وبَنْجالة ، ثم إلى الصين . وكان قدومى عليها فى مركب (الناخُذَاة) عمر الهِنَوْرِى . وهو من الحجاج الفضلاء . ولما وصلنا كَنَّلُوس أقام بها عشرا . ثم اكترى (كُنْدُرة) يسافر فيها إلى المَهَل بهدية للسلطانة وزوجها ، فأردت السفر معه . فقال : لاتسعك الكندرة أنت وأصحابك ، فإن شئت السفر منفردا عنهم فدونك . فأبيت ذلك . وسافر فلعبت به الريح ، وعاد إلينا بعد أربعة أيام . وقد لقى شدائد ، فاعتذر لى . وعزم علىّ فى السفر معه بأصحابى ، فكنا نرحل غُدْوة فننزل فى وسط النهار بعض الجزائر ، ونرحل فنبيت بأخرى . ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التِّيم . وكان الكَرْدَوِى (٢) بها يسمى هلالا . فسلم على وأضافنى ، وجاء إلى ومعه أربعة رجال ، وقد جعل اثنان عودا على أكتافهما ، وعلقا منه أربع دجاجات ، وجعل الآخران عودا مثله ، وعلقا منه نحو عشر من جوز النَّارَجِيل . فعجبت من تعظيمهم لهذا الشئ الحقير ، فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال .

---

(١) ظفار بلدان باليمن . ولم نجدها مضافة إلى (الحموض) فى الكتب التى بأيدينا .

(٢) الحاكم أو المحافظ ، بلسانهم .

ورحلنا عنهم ، فنزلنا فى اليوم السادس بجزيرة عثمان . وهو رجل فاضل من خيار الناس ، فأكرمنا وأضافنا . وفى اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التَلَمْدى . وفى اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المَهَل ، حيث السلطانة وزوجها . وأرسينا بمرساها . وعادتهم ألا ينزل أحد عن المرسى إلا بإذنهم . فأذنوا لنا بالنزول . وأردت التوجه إلى بعض المساجد ، فمنعنى الخدام الذين بالساحل ، وقالوا : لا بدّ من الدخول على الوزير . وكنت أوصيت (الناخُذَاة) أن يقول ، إذا سئل عنى : لا أعرفه ، خوفا من إمساكهم إيّاى ، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرفا بخبرى ، وأنى كنت قاضيا بدهلى .

فلما وصلنا إلى الدار ، نزلنا فى سقائف على الباب الثالث منها . وجاء القاضى عيسى اليمنىّ فسلم علىّ ، وسلمت على الوزير . وجاء (الناخُذَاة) إبراهيم بعشرة أثواب ، نخدم لجهة السلطانة ، ورمى بثوب منها ، ثم خدم للوزير ، ورمى بثوب آخر كذلك ، ورمى بجميعها . وسئل عنى فقال : لا أعرفه . ثم أخرجوا التانبُول وماء الورد ، وذلك هو الكرامة عندهم . وأُنزلنا بدار ، وبُعث إلينا الطعام ، وهو قصعة كبيرة فيها الأرز . وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسمك . ولما كان بالغد مضيت مع (الناخُذَاة) والقاضى عيسى اليمنىّ ، لزيارة زاوية فى طرف الجزيرة ، عمرها الشيخ الصالح نجيب ، وعدنا ليلا . وبعث الوزير إلىّ صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز النارجيل والعسل المصنوع منه . وأتوا بمائة ألف وَدَعة للنفقة .

وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوننى . فعرّفوا خدام الوزير بأمرى ، فزاد اغتباطا بى . وأرسل إلى عند

استهلال رمضان ، فوجدت الأمراء والوزراء . وأحضر الطعام فى موائد ، يجتمع على المائدة طائفة . فأجلسنى الوزير إلى جانبه ومعه القاضى عيسى والوزير الفامَلْدارى [(١)] ، والوزير عمر دِهرْد ، ومعناه مقدم العسكر . وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والموز المطبوخ . ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالأفاويه . وهو يهضم الطعام .

وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته . فودها أبوها لداره وأعطانى دارها . وهى من أجمل الدور . واستأذنته فى ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم [(٢)] ، فأذن لى فى ذلك ، وبعث إلىّ خمسا من الغنم ، وهى عزيزة عندهم ، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير [(٣)] . فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير فطبخ لى بها . وبعث الفرش وأوانى النحاس . وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير . واستأذنته فى حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فقال لى : وأنا أحضر أيضا ، فشكرته وانصرفت إلى دارى ، فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة ، فجلس فى قبة خشب مرتفعة . وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ، ويرمى بثوب غير مَخِيط ، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها ، فأخذها الفقراء . وقدّم الطعام فأكلوا ، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان . ثم أخذوا فى السماع والرقص . وأعدت النار ، فكان الفقراء يدخلونها و يطئونها بالأقدام . ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خَمَدَتْ .

---

(١) وزير المالية ، بلسانهم .

(٢) قدم آدم عليه السلام ، كما سيأتى .

(٣) التوابل .

ذكر بعض إحسان الوزير إليّ

ولما تمّت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن . فقال لى الوزير : هذا البستان لك ، وسأعمر لك فيه دارا لسكناك ، فشكرت فعله ودعوت له . ولما كانت الليلة بعدها ، جاء الوزير إليّ بعد العشاء الأخيرة فى نَفَر من أصحابه ، فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه ، وسألنى عن حالى فدعوت له وشكرته . فألقى أحد الغلامين بين يديه (بُقْشَة)[1] ، أخرج منها ثياب حرير وحُقًّا فيه جوهر ، فأعطانى ذلك . فدعوت له وشكرته . وكان أهلا للشكر ، رحمه الله .

ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامى بعد ذلك

وكان الوزير سليمان قد بعث إليّ أن أتزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا فى ذلك . فعاد إلى الرسول وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحب أن يزوجك بنته إذا انقضت عِدّتها ، فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها ، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول . وأصابتنى فى أثناء ذلك حمى مرضت بها . ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يُحم . فقوى عزمى على الرحلة عنها ، فبعت بعض الحلىّ بالودع . واكتريت مركبا أسافر فيه إلى بَنْجالة . فلما ذهبت لوداع الوزير ، خرج إلى القاضى فقال الوزير يقول لك : إن شئت السفر فأعطنا ما أعطيناك وسافر . فقلت له : إن بعض الحلىّ اشتريت به الودع ، فشأنكم وإياه . فعاد إليّ فقال يقول : إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع ، فقلت له : أنا أبيعه وآتيكم بالذهب . فبعثت إلى التجار ليشتروه منى ، فأمرهم الوزير ألا يفعلوا . وقصده بذلك كله ألا أسافر عنه . ثم بعث إلى

(١) يظهر أن هذه الكلمة مأخوذة من البقط وهو حزم المتاع . ويراد بالبقشة قطعة من النسيج تصان فيها الثياب . واللفظة غير عربية .

أحد خواصه، فقال: الوزير يقول لك أقم عندنا، ولك كل ما أحببت. فقلت في نفسي: أنا تحت حكمهم. وإن لم أقم مختاراً أقمت مضطرا. فالإقامة باختياري أولى. فقلت لرسوله: نعم أنا أقيم معه. فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني. فلما دخلت عليه قام إليّ وعانقني. وقال: نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا؟ فاعتذرت له، فقبل عذرى. وقلت له: إن أردتم مُقامى فأنا أشترط عليكم شروطا. فقال: نقبلها فاشترط. فقلت له: أنا لا أستطيع المشي على قدمي. ومن عادتهم ألا يركب أحد هنالك إلا الوزير. ولقد كنت لمّا أعطوني الفرس فركبته، يتبعني الناس رجالا وصبيانا، يعجبون مني حتى شكوت له. فضربت الدُّنْقُرة [١] وبرح [٢] في الناس ألا يتبعني أحد. والدنقرة شبه الطَّسْت من النحاس، تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد. فإذا ضربوها حينئذ (يبرح) في الناس بما يراد. فقال لي الوزير: إن أردت أن تركب (الدولة)، وإلا فعندنا حصان ورَمَكَة [٣] فاختر أيهما شئت. فاخترت الرمكة، فأتوني بها في تلك الساعة، وأتوني بكسوة. فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته؟ فقال: ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببَنْجالة. فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك. فقال نعم. فبعث حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان، وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا، فاتفق أن هال [٤] البحر، فرموا بكل ما عندهم، حتى الزاد والماء والصاري والقِرْبة، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قِلْع لهم ولا سُكّان [٥] ولا غيرهما. ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد. وقَدِم علىّ صاحبي أبو محمد بعد سنة.

---

(١) غير عربية. والضبط لابن بطوطة.

(٢) يقصد نودى في الناس. ولم نجد هذا المعنى في الكتب التي بأيدينا.

(٣) الرمكة: الفرس تتخذ للنسل لكمال خلقها.

(٤) لعله محرف عن هاج. (٥) ذنب السفينة الذي تُوَجَّه به.

ذكر العيد الذى شاهدته معهم

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلىّ بكسوة وخرجنا إلى المصلّى ، وقد زينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى ، وفرشت الثياب فيها . وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار ، قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفَوْفَل والموز . ومُدّ من شجرة إلى أخرى شرائط ، وعُلّق منها الجوز الأخضر . ويقف صاحب الدار عند بابها ، فإذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن ، فيأخذه عبيده مع الودع الذى يُجعل على طريقه أيضا ، والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المِرعِزّ وعمامة كبيرة ، وهو متقلد فوطة حرير ، وفوق رأسه أربعة (شطور) ، وفى رجليه النعل ، وجميع الناس سِواه حفاة ، والأبواق (والأنقار) والأطبال بين يديه ، والعساكر أمامه وخلفه . وجميعهم يكبرون ، حتى أتوا المصلى ، فخطب ولده بعد الصلاة . ثم أتى بِمِحفّة فركبها الوزير . وخدم له الأمراء والوزراء ، ورموا بالثياب على العادة . ولم يكن ركب المحفة قبل ذلك ، لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك . ثم رفعه الرجال . وركبت فرسى ودخلنا القصر ، فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء . ووقف العبيد بالتِّرَسة والسيوف والعصى . ثم أتى بالطعام ثم الفَوْفَل والتَّانبُول . ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل . فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل . ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من (السرذين) مملوحا غير مطبوخ ، أهدى لهم من كَوْلَم ، وهو فى بلاد المُـلَيْبَار كثير . فأخذ الوزير (سرذينة) وجعل يأكلها ، وقال لى : كل منه فإنه ليس ببلادنا . فقلت : كيف آكله وهو غير مطبوخ؟ فقال : إنه مطبوخ . فقلت : أنا أعرف به فإنه ببلادى كثير .

ذكر تزوّجي وولايتي القضاء

وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان على تزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين أن يكون العقد بين يديه بالقصر . فأجاب إلى ذلك ، وأحضر التَّانَبُول على العادة والصندل . وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان ، فاستُدْعِي فلم يأت ، ثم استدعِي ثانية فاعتذر بمرض البنت . فقال لي الوزير سِرّا : إن بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها ، والناس قد اجتمعوا . فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أبيها ، وهي التي ولده متزوج بنتها ؟ فقلت له نعم . فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة . ودفع الوزير الصداق .

ولما تزوجتها أكرهني الوزير على القضاء ، وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات ، إذا قسمها على أربابها . فقلت له : إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة . ولم يكن يحسن شيئا . فلما وليتُ اجتهدت جهدي في إقامة رسوم الشرع . وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا . فأول ما غيرت من عادات السوء مكث المطلّقات في ديار المطلّقين . وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلّق حتى تتزوج غيره . فحسمت علة ذلك . وأتي إليّ بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعلوا ذلك ، فضربتهم وشهّرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتددت في إقامة الصلوات . وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصل ضربتُه وشهّرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله . وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك .

ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحَضْرَمى الذى نفاه السلطان شهاب الدين إلى السُّوَيْد

وما وقع بينى وبينه

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته . ولما بعث إليه الوزير ورده إلى جزيرة المَهَل ، بعثت له التُّحَف ، وتلقيته ومضيت معه إلى القصر ، فسلم على الوزير ، وأنزله فى دار جيدة ، فكنت أزوره بها . واتفق أن اعتكفت فى رمضان فزارنى جميع الناس إلا إياه . وزارنى الوزير جمال الدين ، فدخل هو معه بحكم الموافقة . فوقعت بيننا الوحشة . فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلىّ أخوال زوجتى ربيبته ، أولادُ الوزير جمال الدين السِنْجَرى : فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله ، وإن مالهم باق بيده ، وقد خرجوا عن حَجْره بحكم الشرع . وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم . وكانت عادتى إذا بعثت إلى خصم من الخصوم أن أبعث له قطعة كاغَد مكتوبة ، فعند ما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعى ، وإلا عاقبته . فبعثت إليه على العادة فأغضبه ذلك ، وحقد علىّ وأضمر عداوتى ، ووكّل من يتكلم عنه . وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يَخْدُموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين . وخدمتهم أن يوصلوا السبابة إلى الأرض ، ثم يقبلوها ويضعوها على رءوسهم . فأمرت المنادى فنادى بدار السلطان على رءوس الأشهاد ، أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير ، لزمه العقاب الشديد ، فزادت عداوته .

ذكر انفصالى عنهم

ثم سافرت (بعد حوادث جرت[1]) ووصلت إلى جزيرة الوزير على ، وسرنا فى تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم .

ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها إلا دار واحدة ، فيها رجل حائك له زوجة وأولاد ونُخَيْلات نارَجيل ، وقارب صغير يصطاد فيه السمك ، ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر . وفى جزيرته أيضا شجيرات موز . ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين ، خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا . فَغَبَطْت والله ذلك الرجل ، ووَدِدْت لو كانت تلك الجزيرة لى ، فانقطعت فيها إلى أن يأتينى اليقين .

ثم وصلت إلى جزيرة ملوك ، حيث المركب الذى للناخُذَاة إبراهيم ، وهو الذى عزمت على السفر فيه إلى المَعْبَر . فجاء إلىّ ومعه أصحابه وأضافونى ضيافة حسنة . وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما . وهى من أحسن الجزائر خضرة نضرة . رأيت من عجائبها أن الغصن يُقْتطع من شجرها ويركز فى الأرض أو الحائط ، فيورق ويصير شجرة . ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر طول السنة . وخاف أهل الجزيرة (الناخُذَاة) إبراهيم أن ينَهبَهم عند سفره ، فأرادوا إمساك ما فى مركبه من السلاح حتى يوم سفره . فوقعت المشاجرة بسبب ذلك . وعدنا إلى المهل ولم ندخلها . وعدنا إلى ملوك ، وسافرنا منها فى نصف ربيع الثانى عام خمسة وأربعين . وفى شعبان من هذه السنة توفى الوزير جمال الدين رحمه الله . وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف . ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام ، فسرنا نحو تسعة أيام .

وفى التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان ، ورأينا جبل سَرَنْديب فيها ذاهبا فى السماء ، كأنه عمود دخان . ولما وصلناها قال البحْرية : إن هذا

---

(١) ما بين القوسين ليس من كلام ابن بطوطة

المرسى ليس فى بلاد السلطان الذى يدخل التجار إلى بلاده آمنين ، و إنما هذا مَرْسى لعُتاةِ المفسدين، ولهم مراكب تقطع فى البحر . فخفنا أن ننزل بمرساه . ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق . فقلت (للناخُذاة) : أنزلنى إلى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من السلطان . ففعل ذلك، وأنزلنى بالساحل، فأتانا الكفار فقالوا : ما أنتم ؟ فأخبرتهم أنى سِلف[1] سلطان المعبر وصاحبه ، وقد جئت لزيارته، وأن الذى فى المركب هدية له . فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك، فاستدعانى فذهبت له إلى مدينة (بَطّالة) وهى حضرته، مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب . وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القِرْفة ؛ تأتى بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابى . و يحملها أهل المعبر، والمليبار دون ثمن، إلا أنهم يُهْدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه . و بين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة . وبها أيضا من خشب البَقَّم كثير، ومن العود الهندى المعروف بالكَلَخِى .

ذكر سلطان سَيلان

واسمه شَكَرْوَتى، وهو سلطان قوىّ فى البحر . رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار ، وصلت إلى هنالك، وكان بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان للسفر إلى اليمن . فأمر السلطان بالاستعداد وحَشَد الناس لحماية (أجفانه) . فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئنا فى حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن .

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر ، قام إلى وأجلسنى إلى جانبه ، وكلمنى بأحسن كلام . وقال : ينزل أصحابك على الأمان و يكونون فى ضيافتى

(١) السلف من الرجل زوج أخت امرأته

إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بيني و بينه الصحبة . ثم أمر بإنزالى، فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم. وكان يفهم اللسان الفارسى. و يعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد. ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة ، أُتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده ، وأصحابه يميزون منها النفيس من غيره ، فقال لى : هل رأيت مغاص الجوهر فى البلاد التى جئت منها ؟ فقلت له : نعم رأيتـه بجزيرة قَيْس . ثم أخذ حبات منـه فقال : أيكون فى تلك الجزيرة مثل هـذه ؟ فقلت له : رأيت ما هو دونها . فأعجبه ذلك . وقال : هى لك ، وقال لى : لا تَسْتَحْى واطلب منى ما شئت . فقلت له : ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة ، إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام . وهم يسمونه (بابا) و يسمون حواء (ماما) . فقال : هذا هين ، نبعث معك من يوصلك ، فقلت : ذلك أريد. ثم قلت له : وهذا المركب الذى جئت فيـه يسافر آمنا إلى المَعْبَر ، وإذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك ؟ فقال نعم. فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب ، قال لى : لا أسافر حتى تعود ، ولو أقمت سنة بسببك . فأخبرت السلطان بذلك ، فقال : يقيم فى ضيافتى حتى تعود . فأعطانى (دولة) يحملها عبيده على أعناقهم ، وبعث معى أربعة من الجُوكية الذين عادتهم السفر كل عام لزيارة القـدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسـة عشر رجلا يحملون الزاد . وأما المـاء فهو بتلك الطريق كثير .

ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى(معدية)[1] مصنوعة من قصب الخيزُران . ثم رحلنا من هنالك إلى مَنَارْ مَنْدَلِى ، مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان . أضافنا أهلها ضيافه حسنة . وضيافتهم عجول الجواميس ، يصطادونها بغابة هنالك ، و يأتون بهـا أحياء . و يأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج

(١) يريد المِعْبَر. وقد استعمل المؤلف لفظ (المعدية) كثيرا للدلالة على هذا المعنى ، وهو خطأ .

واللبن . ولم أر فى المدينة مسلما غير رجل خُراسانى انقطع بسبب مرضه فسافر معنا .

ورحلنا إلى (بَنْدَرْ سَلَاوات) ، بلدة صغيرة . وسافرنا منها فى أَوْعَار كثيرة المياه . وبها الفِيلة الكثيرة ، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء . ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كُنَكَار ، وهى حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد . وبناؤها فى خندق بين جبلين على خُور كبير ، يسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به . وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى . وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه ، وقد كان الدليل إلى القدم . فلما قطعت يده ورجله صار الأدِلّاء أولاده وغلمانه . وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها ، أو جعل فى جلدها وأحرق . وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله . وأعطوه مَجْبَى بعض الأسواق .

ذكر سلطانها

وهو يعرف بالكُنَّار . وعنده الفيل الأبيض ، ولم أر فى الدنيا فيلا أبيض سواه ، يركبه فى الأعياد ، ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة . واتفق له أن قام عليه أهل دولته وسَمَلُوا عينيه ، وولوا ولده . وهو هنالك أعمى .

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب البَهْرَمَان[1] إنما يكون بهذه البلدة . فمنه مايخرج من الخور ، وهو عزيز عندهم . ومنه مايحفر عنه . وجزيرة سيلان يوجد الياقوت فى جميع مواضعها . وهى متملّكة ، فيشترى الإنسان القطعة منها ويحفر عن

(١) البهرمان العُصْفُر . ولعله سمى بذلك لشبهه به فى اللون .

الياقوت، فيجد أحجارا بيضاء مُشَعَّبة، وهي التي يتكوّن الياقوت في أجوافها، فيعطيها الحكاكين فيحُكُّونها، حتى تنفلق عن أحجار الياقوت ، فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق . وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت مائة (فَنَم) فهو للسلطان ، يعطى ثمنه ويأخذه . وما نقص عن تلك القيمة فهو لاصحابه . وصَرْف مائة فنم ستة دنانير من الذهب . وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملوّن ، يجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا عن الأَسْوِرَة والخلاخيل . وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رءوسهن . ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاج ، ورأيت عند السلطان شَكَرْوَتِى سُكُرَّجَة(١) على مقدار الكف من الياقوت ، فيها دهن العود . فجعلت أعجب منها ، فقال : إن عندنا ما هو أضخم من ذلك . ثم سافرنا من كُنَكَار ، فنزلنا بمغارة تعرف باسم أُسْطَا محمود اللُّورِى ، وكان من الصالحين ، واحتفر تلك المغارة فى سَفْح جبل عند خور صغير هنالك . ثم رحلنا عنها ، ونزلنا بالخور المعروف بخور بُوزْنَة . وبوزنة هي القرود .

ذكر القرود

والقرود بتلك البلاد كثيرة جدا . وهي سود الألوان ، لها أذناب طِوال . ولذكورها لِحى كما هي للآدميين . وأخبرنى الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مُقَدَّم تتبعه كأنه سلطان ، يَشُدّ على رأسه عِصابة من أوراق الأشجار ، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره اربعة من القرود لها

---

(١) الصحفة تكفى الرجل .

عِصِىّ بأيديها، وأنه إذا جلس القرد المقدّم تقف القرود الأربعة على رأسه، وتأتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم . وتأتى القرود فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها . ثم يأتى كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شِبهِ ذلك، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة . وأخبرنى بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدى مُقَدَّمِها، وهى تضرب بعض القرود بالعِصِىّ ، ثم نتفت وبره بعد ضربه .

ثم كان رحيلنا إلى خُور الخَيْزُران . ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز ، وهو آخر العمارة . ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر ، وكان من الصالحين . ثم رحلنا إلى مغارة السِّبيك . وكان السبيك من سلاطين الكفار ، وانقطع للعبادة هنالك .

ذكر العَلَق الطيّار

وبهذا الموضع رأينا العَلَق الطيار . ويكون بالأشجار والحشائش التى تقرب من الماء . فإذا قَرُب الإنسان منه وثب عليه ، فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير . والناس يُعِدُّون له الليمون ، يَعصِرونه عليه فيسقط عنهم . ويجردون الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معد لذلك . ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق ، فأظهر الجَلَد ولم يعصِر عليها الليمون ، فنَزِف دمه ومات .

ذكر جبل سرنديب

وهو من أعلى جبال الدنيا . رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله . وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف . وفى الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) ، يعنون آدم وحواء عليهما السلام . فأما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا . ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر . وأما طريق بابا فصعب وَعْر المرتقى . وفى أسفل الجبل مغارة تنسب للإسكندر ، وعين ماء . ونحت الأولون فى الجبل شِبه دَرَج يُصْعَد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا منها السلاسل ، ليتمسك بها من يَصْعَده . وهى عشر سلاسل ، ثنتان فى أسفل الجبل وسبع متوالية بعدها . والعاشرة هى سلسلة الشهادة ، لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الخوف ، فيتشهد خوف السقوط . ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا . ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخِضر[1] سبعة أميال . وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب إليه أيضا ، ملأى بالحيتان ، ولا يصطادها أحد . وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جَنْبَتى الطريق . وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم .

(١) ككبِد وكِبْد ، أبو العباس النبي عليه السلام . قاموس .

ذكر القَدَم(١)

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا . وطولها أحد عشر شِبْرا . وأتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون ، يقصدونه من أقصى البلاد . وفى الصخرة حيث القدم تِسع حُفَر منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر . فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخَضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر . ولم نجد نحن بها إلا يسير حُجَيْرات وذهب أعطيناها الدليل .

والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخَضر ثلاثة أيام ، يأتون فيها إلى القدم غُدْوة وعشيا . وكذلك فعلنا . ولما تمت الأيام الثلاثة ، عدنا على طريق (ماما) فنزلنا بمغارة (شيم) . وهو شِيث بن آدم عليهما السلام ، ثم ذهبنا إلى خُور السمك ثم إلى قرية كُرُمْلة . وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت . وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة .

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِينَوَر ، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار ، وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة ، فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ، ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن . والمدينة ومجابيها وقف على الصنم . وكل من بالكنيسة ومن يردها يأكلون من ذلك . والصنم من ذهب على

---

(١) هذه القدم خرافة من الخرافات التى صدقها ابن بطوطة .

قدر الآدمى ، وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان ، اخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين .

ثم رحلنا إلى مدينة قالِى . وهى صغيرة على ستة فراسخ من دِينَوَر . وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخُذَاة إبراهيم ، أضافنا بموضعه . ورحلنا إلى مدينة كَلَنْبُو[1] ، وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها ، وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالَسْتى ، ومعه نحو خمسمائة من الحُبْشَان . ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطَّالة ، وقد تقدم ذكرها . ودخلنا على سلطانها الذى تقدم ذكره ، ووجدت الناخُذَاة إبراهيم فى انتظارى ، فسافرنا بقصد بلاد المَعْبَر . وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب . ولم يكن لنا رئيس عارف . ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها . ثم دخلنا بحرا قصيرا فيجلس المركب[2] ورأينا الموت عِيانا ، ورمى الناس بما معهم ، وقطعنا صارى المركب فرمينا به . وصنع البَحْرية (معدية) من الخشب . وكان بيننا وبين البر فرسخان . فأردت أن أنزل (فى المعدية) . وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابى ، فقالا : أتنزل وتتركنا ؟ فآثرتهما على نفسى . وقلت : انزلا أنتما . فنزل رفيقاى ، وأحدهما محمد بن فرحان التُّوزَرِى ، والآخر رجل مصرى ، وجارية معهما . والأخرى تَسْبَح . وربط البحرية فى (المعدية) حبالا وسبحوا بها . وجعلت معهم ماعزَّ علىَّ من المتاع والجواهر والعنبر . فوصلوا إلى البر سالمين ، لأن الريح كانت تساعدهم . وأقمت بالمركب . ونزل صاحبه إلى البر . وشرع البحرية فى عمل أربع من (المعادى) فجاء الليل قبل تمامها ، ودخل معنا الماء . فصعدت إلى المؤخر ، وأقمت به حتى الصباح .

---

(١) هى مدينة كُلُمْبُو .

(٢) فيجلس المركب أى يستقر على الأرض ، وهو تعبير غريب . وقد آثرنا أن نتركه كما هو .

وحينئذ جاء إلينا نفر من الكفار فى قارب لهم ، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر ، فأعلمناهم أنّا من أصحاب سلطانهم . وهم تحت ذمته . فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين فى الغَزْو . وكتبت أنا إليه أعلمه بما اتفق لى . وأدخلنا أولئك الكفار إلى غَيْضَة عظيمة، فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ يُثْمرها شجر المُقْل[1] ، وفى داخلها شبه قطن فيه عَسَلِيّة يستخرجونها ، ويصنعون منها حلواء. تشبه السكر . وأتوا بسمك طيب . وأقمنا ثلاثة أيام . ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين ، معه جماعة فرسان ورجال، وجاءوا (بالدولة) و بعشرة أفراس، فركبت وركب أصحابى وصاحب المركب و إحدى الجاريتين، وحملت الأخرى فى (الدولة). ووصلنا إلى حصن هَرْكَاتُو و بتنا به . وتركت فيه الجاريتين و بعض الغلمان والأصحاب ، ووصلنا فى اليوم الثانى مَحَلّةَ السلطان .

ذكر سلطان بلاد المَعْبَر

هو غياث الدين الدَّامَغَانى[2] . وكان فى أول أمره فارسا من فُرْسان الملك مجير ابن أبى الرَّجا ، أحد خدام السلطان محمد . ثم خدم الأمير حاجى ابن السيد السلطان جلال الدين . ثم ولى الملك . وكان يدعى سراج الدين قبله ، فلما ولى تسمى غياث الدين. وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دِهْلى. ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه، وملك بها خمسة أعوام. ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أُدَيْجى،فملك سنة. ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ منهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة. وعاد إلى بلاده وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم ، وقتل منهم مَقْتَلةً عظيمة . واتفق يوم قتله لهم أن رفع

---

(١) المقل صمغ شجرة كما فى القاموس .

(٢) نسبة إلى دامَغَان ، بلد كبير بين الرى ونَيْسابور، وهو قصبة قومس . ياقوت .

المغفر(١) عن رأسه ليشرب ، فأصابه سهم فمات من حينه . فولوا صهره قطب الدين. ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما. وولى بعده السلطان غياث الدين ، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين ، التى كنت متزوجا أختها بدهلى .

ذكر وصولى إلى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا ، وكان قاعدا فى برج خشب. وعادتهم بالهند كلها ألا يدخل أحد على السلطان دون خُف. ولم يكن عندى خف ، فأعطانى بعض الكفار خفا . ودخلت على السلطان فأمرنى بالجلوس . ودعا القاضى الحاج صدر الزمان بهاء الدين ، وأنزلنى فى جواره فى ثلاثة أخبية ، وهم يسمونها الخيام ، وبعث بالفرش وبطعامهم ، وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا. ثم اجتمعت به بعد ذلك ، وألقيت(٢) إليه أمر جزائر ذيبة المهل ، وأن يبعث الجيش إليها . فأخذ فى ذلك بالعزم ، وعين المراكب لذلك ، وعين الهدية لسلطانتها ، والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم. وأمر بإيساق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر. وقال لى : يكون رجوعك بعد خمسة أيام. فقال له قائد البحر خواجة سرلك : لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن. فقال لى السلطان : أما إذ كان الأمر هكذا فامض إلى فتن ، حتى تقضى هذه الحركة(٣) ونعود إلى حضرتنا مترة ، ومنها تكون الحركة(٤) . فأقمت معه بخلال(٥) ما بعثت إلى الجاريتين والأصحاب .

(١) حلق يتقنع بها المتسلح .

(٢) أى أخبرته بما عليه كثير من أهلها من الفقر والحاجة .

(٣) أى حركة الغزو المسطورة فيما يلى .

(٤) أى سفر الجيش بالهدايا والصدقات إلى جزائر ذيبة المهل . وفى العبارة من أول قوله : (وألقيت) شىء من الإبهام والاضطراب .

(٥) يقصد ريثما بعثت ، وهو تعبير غريب .

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان

وكانت الأرض التى نسلكها غيضة واحدة من الأشجار والقصب، بحيث لا يسلكها أحد . فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قدوم لقطع ذلك . فإذا نزلت المحلة[1]، ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال. ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس، طائفة بعد أخرى . ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشى . وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه، وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه ، يحملها ومعه امرأته وأولاده، ويؤتى بهم ، إلى المحلة : وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر، ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا ، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ، ويوقدون عليها النار بالليل . ويبيت عندها العبيد والمشاءون ، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب . فإذا أتى الكفار ليضربوا على المحلة ليلا ، أوقد كل واحد منهم الحزمة التى بيده ، فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء ، وخرجت الفرسان فى اتباع الكفار . فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام ، وأتى إلى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم ، فركزت الخشب التى كانوا يحملونها بالأمس ، ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم . ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن إلى تلك الخشبات ، ويذبح الأولاد

(١) يقصد المعسكر ، كما تقدم مثل ذلك الاستعمال .

الصغار فى حجورهن ، ويتركون هنالك . ثم يشتغلون بقطع غَيْضَة أخرى ، و يصنعون بمن أسروه كذلك . وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك .

ولقد رأيته يوما والقاضى عن يمينه وأنا عن شماله ، وهو يأكل معنا ، وقد أُتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع ، فأشار إلى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ، ثم قال لهم : وابنه وزوجته . فقطعت رقابهم . وصرفت بصرى عنهم . فلما قمت وجدت رءوسهم مطروحة بالأرض . وحضرت عنده يوما وقد أُتى برجل من الكفار ، فتكلم بما لم أفهمه ، فإذا بجماعة من الزبانية[1] قد استلوا سكاكينهم ، فبادرت إلى القيام ، فقال لى : إلى أين ؟ فقلت : أصلى العصر . ففهم عنّى وضحك ، وأمر بقطع يديه ورجليه . فلما عدت وجدته مُتَشَحِّطا [2] فى دمائه .

ذكر هزيمته للكفار

وهى من اعظم فتوحات الإسلام

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بَلَال دِيو ، وهو من كبار سلاطين الكفار ، يزيد عسكره على مائة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوى الجنايات ، والعبيد الفارين . فطمع فى الاستيلاء على بلاد المَعْبَر ، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد ، والنصف الثانى لاخير فيهم ولا غَناء عندهم . فلقوه بظاهر مدينة كُبَّان فهزمهم ، وحاصرها عشرة أشهر ، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة

(١) الزِّبْنِيَةُ متمرد الجن والانس والشديد والشُّرطى ، جمعه زبانية . قاموس .

(٢) مضطربا .

عشرة يوما . فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان و يتركوا له البلد . فقالوا له : لابد من مطالعة سلطاننا بذلك ، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوما . فكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا ، وقالوا : نبيع أنفسنا من الله ، فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا ، فالموت تحت السيوف أولى بنا .

فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رءوسهم ، وجعلوها فى أعناق الخيل ، وهى علامة من يريد الموت ، وجعلوا ذوى النَّجْدة والأبطال منهم فى المقدّمة . وكانوا ثلاثمائة . وجعلوا على الميمنة سيف الدين بَهَادُور ، وكان فقيها ورِعا شجاعا ، وعلى الميسرة الملك محمدا السلحدار . وركب السلطان فى القلب ومعه ثلاثة آلاف . وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة[1] لهم ، وعليهم أسد الدين كيخُسْرُو الفارسى . وقصدوا محلة الكافر عند القائلة ، وأهلها على غِرّة وخيلهم فى المرعى ، فأغاروا عليها . وظن الكفار أنهم سُرّاق ، فخرجوا إليهم على غير تعبئة وقاتلوهم ، فانهزم الكفار شر هزيمة .

وأراد سلطانهم أن يركب ، وكان ابن ثمانين سنة ، فأدركه ناصر الدين ، ابن أخى السلطان الذى ولِى الملك بعده ، فأراد قتله ولم يعرفه ، فقال له أحد غلمانه : هو السلطان ، فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه فى الظاهر ، حتى جَبَى منه الأموال والفيلة والخيل ، وكان يَعِده السَّراح . فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن . فعلق على سور مُتْرَة ، ورأيته بها معلقا .

ولنعد إلى كلامنا فنقول : ورحلت عن المحلة فوصلت إلى مدينة فَتَّن ، وهى كبيرة حسنة على الساحل . ومرساها عجيب ، قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة ، قائمة على الخُشُب الضخام ، يصعد إليها على طريق خشب

(١) ساقة الجيش مؤخره .

مسقوف . فإذا جاء العدو ضموا إليها (الأجفان) التي تكون بالمرسى، وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة . وبهذه المدينة مسجد حسن مبنى بالحجارة . وبها العنب الكثير والرمان الطيب . ولقيت الشيخ الصالح محمدا النيسابورى. أحد الفقراء المتولهين[1] الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم، ومعه سبع رباه، يأكل مع الفقراء ويقعد معهم . وكان معه نحو ثلاثين فقيرا ، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد فى موضع واحد فلا يعرض لها .

ثم وصل السلطان إلى مدينة فتّن، فخرجت للقائه . ولما استقر بها أرسل إلى قائد البحر خواجه سرور ، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر . وأقام بفتّن نصف شهر ، ثم رحل إلى حضرته مُتْرة . وأقمت بعده نصف شهر .

ثم رحلت إلى مدينة مُتْرَة ، مدينة كبيرة متسعة الشوارع . وأول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه، وجعلها شبيهة بدهلي وأحسن بناءها . ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا : فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه أو ثالثه . وإن أبطأ موته فإلى الرابع . فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضا أو ميتا . واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت فى يوم آخر . ولقد جاءت إلىّ فى بعض الأيام امرأة، كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ، ومعها ابن لها، سنه ثمانية أعوام، نبيل كيّس فطن . فشكت ضعف حالها فأعطيتهما نفقة ، وهما صحيحان سويّان . فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها هذا كفنا، وإذا به قد توفى من حينه . وكنت أرى (بمشور) السلطان حين مات، المئين من الخادمات اللاتى أُتِيَ بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان ، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس . ولما دخل السلطان مُتْرة وجد أمه وامرأته وولده مرضى ، فأقام بالمدينة

---

(١) الذاهبي العقل .

ثلاثة أيام ، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها ، كانت عليه كنيسة للكفار . وخرجت إليه فى يوم خميس ، فأمر بإنزالى إلى جانب القاضى . فلما ضربت لى الأخبية ، رأيت الناس يسرعون و يموج بعضهم فى بعض ، فمن قائل إن السلطان مات ، ومن قائل إن ولده هو الميت . ثم تحقق ذلك ، فكان الولد هو الميت ، ولم يكن له سواه ، فكان موته مما زاد فى مرضه . وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان .

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين. وشعرت بذلك، فبادرت إلى الدخول إلى المدينة خوف الفتنة . ولقيت ناصر الدين ابن أخيه، الوالى بعده ، خارجا إلى المَحَلّة [١] ، وقد وُجِّه [٢] عنه ، إذ ليس للسلطان ولد . فطلب إلىّ الرجوع معه فأبيت . وأثر ذلك فى قلبه . وكان ناصر الدين هذا خادما بدهلى قبل أن يملك عمه . فلما ملك عمه هرب فى زىّ الفقراء إليه ، فكان من القَدَر ملكه بعده . ولما بويع مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء . وأول من قام منشدا القاضى صدر الزمان ، فأعطاه خمسمائة دينار وخِلْعة ، ثم الوزير المسمى بالقاضى ، فأعطاه ألفى دينار دراهم ، وأعطانى أنا ثلاثمائة دينار وخِلْعة . وبثّ الصدقات فى الفقراء والمساكين .

ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه ، نثرت عليه الدنانير والدراهم فى صحاف الذهب والفضة . وعمل عزاء السلطان غياث الدين، فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ، ثم يقرأ العشّارون [٣] ، ثم يؤتى

---

(١) يقصد المعسكر ، كما تقدم .

(٢) يريد طلب الحضور إلى المعسكر . والتعبير غريب غير معهود .

(٣) يريد بالعشار من يقرأ عشر القرآن . والتعبير غير عربى .

بالطعام فيأكل الناس ، ثم يعطون الدراهم ، كل إنسان على قدره . وأقاموا على ذلك أربعين يوما . ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة .

وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه وطالبه بالأموال. وولّى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعثه عمه إلىّ وأنا بِفَتَّن ليتلقانى ، فتوفى سريعا . فولى الوزارة خواجة سُرور قائد البحر . وأمر أن يخاطب بخواجة جِهان كما يخاطب الوزير بِدِهْلى . ومن خاطبه بغير ذلك غُرِّم دنانير معلومة . ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين ، وتزوجها بعده . وبلغه أن الملك مسعودا زاره فى مَحْبِسه قبل موته فقتله أيضا ، وقتل الملك بَهَادُور ، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء . وأمر لى بجميع ما كان عيّنه عمه من المراكب برسم الجزائر .

ثم أصابتنى الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية . وألهمنى الله استعمال التمر الهندىّ ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ثم شربته . وعافانى الله من مرضى . فكرهت تلك المدينة وطلبت الإذن فى السفر ، فقال لى السلطان : كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد ؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خَوَنْد عَالَم . فأبيت . وكتب لى إلى فَتَّن لأسافر فى أى مركب أردت . وعدت إلى فَتَّن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن ، فسافرت فى أحدها . ولقينا أربعة (أجفان) فقاتلتنا يسيرا ، ثم انصرفت . ووصلنا إلى كَوْلَم وكان فىّ بقية مرض ، فأقمت بها ثلاثة أشهر . ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين الهَنَوْرِى . فخرج علينا الكفار بين هنَوْر وفاكَنَوْر .

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هِنَوْر وفاكَنَوْر، خرج علينا الكفار فى اثنى عشر مركبا حربيا ، وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا . فأخذوا جميع ماعندى مما كنت أدخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابى والزَّوّادات[1] التى كانت عندى مما أعطانيه الصالحون والأولياء . ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل . وأخذوا ما كان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل .

فرجعت إلى قَالِقُوط ، فدخلت بعض المساجد ، فبعث إلىّ أحد الفقهاء بثوب ، وبعث القاضى بعمامة ، وبعث بعض التجار بثوب آخر . وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذِيبَة المَهَل . ونزلت منها بِكَنَّلُوس ، فأكرمنى واليها عبد العزيز المَقْدَشَاوِى ، وأضافنى وجهّز لى (كُنْدُرة)، ووصلت بعد ذلك إلى هُلُلِى ، وهى الجزيرة التى تخرج السلطانة وإخوتها إليها للتفرج والسياحة ، ويلعبون فى المراكب ، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها .ووجدت بها أخت السلطانة ، وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين ، وأمها التى كانت زوجتى . فجاء الخطيب إلىّ وأتوا بالطعام . ومرّ بعض أهل الجزيرة على الوزير عبد الله فأعلموه بقدومى، فسأل عن حالى وعمن قَدِم معى ، وأُخْبِر أنى جئت لحمل ولدى ، وكانت سنه نحو عامين . وأتته أمه تشكو ذلك فقال لها : أنا لا أمنعه من حمل ولده . وصادرنى فى دخول الجزيرة ، وأنزلنى بدار تقابل برج قصره ليطّلع على حالى ، وبعث إلىّ بكسوة كاملة ، وبالتَّانْبُول وماء الورد على عادتهم .

---

(١) جمع زوادة وهى ما يحمله المسافر من الزاد أو غيره — ولم نر هذا فى كتب اللغة .

وجئت بثوبى حرير للرمى عند السلام ، فأخذوهما ، ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم . وأُتى إلىّ بولدى فظهر لى أن إقامته معهم خير له ، فرددته إليهم .

وأقمت خمسة أيام ، وظهر لى أن تعجيل السفر أولى . فطلبت الإذن فى ذلك . فاستدعانى الوزير ودخلت عليه ، وأتونى بالثوبين اللذين أخذوهما منى ، فرميتهما عند السلام على العادة . وأجلسنى إلى جانبه وسألنى عن حالى ، وأكلت معه الطعام ، وغسلت يدى معه فى الطَّسْت . وذلك شىء لا يفعله مع أحد . وأتوا بالتَّانْبُول وانصرفت . وبعث إلى بأثواب ، وأحسن أفعاله وأجمل .

وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة . ثم وصلنا إلى بلاد بَنْجالة ، وهى بلاد متسعة كثيرة الأرز . ولم أر فى الدنيا أرخص أسعارا منها . لكنها مظلمة . رأيت الأرز يباع فى أسواقها خمسة وعشرين رطلا دِهْلية بدينار فِضّى ، والدينار الفضى هو ثمانية دراهم ، والرطل الدِّهْلى عشرون رطلا مغربيا . وسمعتهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم . وحدثنى محمد المَصْمُودى المغربىّ ، وكان من الصالحين ، وسكن هذا البلد قديما ، ومات عندى بدهلى ، أنه كانت له زوجة وخادم ، فكان يشترى قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم ، وأنه كان يشترى الأرز فى قِشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم . فإذا دقّه خرج منه خمسون رطلا صافية ، وهى عشرة قناطير . ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة . وبقرهم الجواميس . ورأيت الدجاج السِمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد ، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم . ورأيت الكَبْش السمين يباع بدرهمين ، ورطل السكر بأربعة دراهم ، وهو رطل دهلى ،

ورطل السمن بأربعة دراهم . ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين . ورأيت الجارية تباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربىّ . واشتريت بنحو هذه القيمة جارية . واشترى بعض أصحابى غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ ، بدينارين من الذهب .

وأول مدينة دخلنا من بلاد بنجالة مدينة سُدْكاوان. وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم . ويجتمع بها نهر الكنْك الذى يحج إليه الهنود ، ونهر الجُون . ويصبان فى البحر . ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللَّكْنَوتِى .

ذكر سلطان بَنْجالة

وهو السلطان فخر الدين ، سلطان فاضل محب للغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة . وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن ، وهوالذى ولى ولده معزالدين الملك بدهْلى ، فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر ، وسمى لقاؤهما لقاء السَّعْدين . وقد ذكرنا ذلك ، وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بَنْجالة ، فأقام بها إلى أن توفى ، وولِى ابنه شمس الدين إلى أن توفى ، فولِى ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بَهَا دُوربُور ، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياثِ الدين تُغْلُق فنصره ، وأخذ بَهَا دُوربُور أسيرا . ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك ، على أن يقاسمه ملكه ، فنكث عليه فقاتله حتى قتله ، وولّى على هذه البلاد صهرا له ، فقتله العسكر ، واستولى على ملكها على شاه وهو إذ ذاك ببلاد اللَّكْنَوتِى .

فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين

وهو مولى لهم ، خالف بسُدْكَاوان و بلاد بَنْجالة ، واستقل بالملك. واشتدت الفتنة بينه و بين على شـاه . فإذا كانت أيام الشتاء والوَحَل أغار فخر الدين على بلاد اللَّكْنَوتِى فى البحر لقوته فيه ، و إذا عادت الأيام التى لا مطر فيها ، أغار على شاه على بَنْجالة فى البر لقوته فيه .

حكاية

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين ، إلى أن جعل أحدهم نائبا عنه فى الملك بسُدْكَاوان ، وكان يسمى شَيْدا . وخرج إلى قتال عدوّ له ، فخالف عليه شَيْدا ، وأراد الاستبداد بالملك ، وقتل ولد السلطان فخـر الدين ، ولم يكن له ولد غيره . فعلم بذلك فكرّ عائدا إلى حضرته ، ففر شَيْدا ومن اتبعه إلى مدينة سُنُرْكاوان وهى منيعة . فبعث السلطان بالعساكر إلى حِصاره ، فخاف أهلها على أنفسهم ، فقبضوا على شَـيْدا وبعثوه إلى عسكر السلطان ، فكتبوا إليه بأمره ، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه ، وقتِل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء .

ولمـا دخلت سُدْكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته ، لأنه مخالف على ملك الهند . فخفت عاقبة ذلك ، وسافرت من سُدْكاوان بقصد جبال كَامَرُو . وبينهـا و بين سُدْكاوان مسيرة شهر . وهى جبال متسعة متصـلة بالصين ، وتتصل أيضا ببلاد التُبَّت ، حيث غزلان المسك. وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ، ولهم قوة على الخدمة . والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم . وهم مشهورون بمعاناة السِحر والاشـتغال به . وكان قصـــدى بالمسير إلى هـذه الجبال لقاء ولىّ من الأولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التّبريزى .

ذكر الشيخ جلال الدين

وهـذا الشيخ من كبار الأولياء، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة. وهو من المُعَمَّرين. أخبرنى رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسى ببغداد. وكان بها حين قَتْلِه. وأخبرنى أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين، وأنه كان له نحو أربعين سنة يَسْرُد الصوم[1] ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر. وكانت له بقرة يفطر على حليبها، ويقوم الليل كله. وكان نحيف الجسم طُوَالا، خفيف العارضين. وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال، ولذلك أقام بينهم.

كرامة له

أخبرنى بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد، وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم: إنى أسافر عنكم غدا إن شاء الله، وخليفتى عليكم الله الذى لا إله إلا هو. فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله فى آخر سَجْدة منها. ووجدوا فى جانب الغار الذى كان يسكنه قبرا محفورا، عليه الكفن والحَنُوط. فغسلوه وكفنوه، وصلوا عليه ودفنوه به. رحمه الله.

كرامة له أيضا

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقينى أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه، فأخبرونى أن الشيخ قال للفقراء الذين معه: قد جاءكم

---

(١) يسرد الصوم: يواصله.

سائح المغرب فاستقبلوه ، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ، ولم يكن عنده علم بشيء من أمرى ، وإنما كوشف به[١]. وسرت معهم إلى الشيخ، فوصلت إلى زاويته خارج الغار . ولا عمارة عندها . وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون . وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر ، كما قدمناه . ولما دخلت عليه قام إلىّ وعانقني ، وسألني عن بلادي وأسفارى فأخبرته . فقال لى : أنت مسافر العرب . فقال له من حضر من أصحابه : والعجم ياسيدنا . فقال : والعجم ، فأكرموه . فاحتملونى إلى الزاوية وأضافونى ثلاثة أيام .

حكاية عجيبة فى ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولى على الشيخ رأيت عليه فرجية مِرْعِزّ فأعجبتنى ، وقلت فى نفسى : ليت الشيخ يعطينيها . فلما دخلت عليه للوداع قام إلى جانب الغار ، وجرّد الفرجية وألبسنيها مع طاقية[٢] من رأسه ، ولبس مرقعة . فأخبرنى الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية ، وإنما لبسها عند قدومى ، وأنه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربىّ ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها أخانا برهان الدين الصّاغَرْجى ، وهى له وبرسمه كانت . فلما أخبرنى الفقراء بذلك ، قلت لهم : قد حصلت لى بركة الشيخ بأن كسانى لباسه . وانصرفت عن الشيخ . فاتفق لى بعد مدة طويلة أنى دخلت بلاد الصين ، وانتهيت إلى مدينة الخَنْسَا ، فافترق منى أصحابى لكثرة الزحام ،

---

(١) أطلعه الله عليه . وقد سبق فى الحواشى بيان نظر الإسلام إلى مثل هذا .

(٢) يراد بها نوع من القلانس . ولا نعرف أنها عربية بهذا المعنى .

وكانت الفرجية علىّ . فبينا أنا فى بعض الطرق إذ بالوزير فى موكب عظيم ، فوقع بصره علىّ فاستدعانى وأخذ بيدى ، وسألنى عن مَقْدَمى ولم يفارقنى حتى وصلت إلى دار السلطان معه. فأردت الانفصال ، فمنعنى وأدخلنى على السلطان ، فسألنى عن سلاطين الإسلام فأجبته . ونظر إلى الفرجية فاستحسنها . فقال لى الوزير : جَرِّدها ، فلم يمكنى خلاف ذلك . فأخذها وأمر لى بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطرى لذلك . ثم تذكرت قول الشيخ : إنه يأخذها سلطان كافر ، فطال عجبى من ذلك .

ولما كان فى السنة الأخرى ، دخلت دار ملك الصين بخَانْ بالِق[1] فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصّاغَرْجى ، فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها . فعجبت من ذلك وقلبتها بيدى . فقال لى : لم تقلبها وأنت تعرفها ؟ فقلت له : نعم هى التى أخذها منى سلطان الخَنْسَا، فقال لى : هذه الفرجية صنعها أخى جلال الدين برسمى، وكتب إلىّ أن الفرجية تصلك على يد فلان. ثم أخرج لى الكتاب فقرأته، وعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية . فقال لى : أخى جلال الدين أكبر من ذلك كله ، وقد انتقل إلى رحمة الله. ثم قال لى : (بلغنى أنه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة ، وأنه يحج كل عام ، لأنه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد ، فلا يُعْرف أين ذهب)[2]. ولما ودّعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبَنْق ، وهى من أكبر المدن وأحسنها ، يشقها النهر الذى ينزل من جبال كَامَرُو . ويسمى النهر الأزرق . ويسافر فيه إلى بَنْجالة وبلاد اللَّكْنَوتى. وعليه النواعير

(١) بكين .

(٢) ما بين القوسين من الخرافات التى لا يمكن أن يتصورها العقل ، كما هو واضح . وكل ما أخبر به ابن بطوطة مما رآه من كرامات الشيخ جلال الدين إنما هو على عهدته .

والبساتين والقرى يمْنَة ويَسْرَة، كما هى على نيل مصر . وأهلها كفار تحت الذمة. يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ، ووظائف[1] سوى ذلك .

وسافرنا فى هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين. فكأنا نمشى فى سوق من الأسواق. وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة ، وفى كل مركب منها طبل . فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله ، وسلّم بعضهم على بعض . وأمر السلطان فخر الدين أن يُعْطَى مَنْ لا زاد له زادا . وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطى نصف دينار .

وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا فى النهر كما ذكرناه ، وصلنا إلى مدينة سُنُرْكاوان، فوجدنا بها (جُنكا) يريد السفر إلى بلاد الجاوة. وبينهما أربعون يوما . فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يوما إلى بلاد البَرَهْنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب . وهذه الطائفة من الهَمَج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره . وسكناهم فى بيوت قصب مسقوفة بحشيش الأرض على شاطىء البحر . وعندهم من أشجار الموز والفَوْفَل والتَانَبُول كثير . ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع . ورجالهم لا يستترون ، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر . ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بَنْجالة والجاوة، ساكنون فى حارة على حِدَة . وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل .

والفيلة كثيرة عندهم. ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم وأكثر التردد إليهم . ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا فى قوارب صغار ، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة . وجاءوا بالموز والأرز والتَّانَبُول والفَوْفَل والسمك .

---

(١) مكوس

ذكر سلطانهم

وأتى إلينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شِبْه بَرْدعة من الجلود . ولباس السلطان ثوب من جلود المَعَز ، وقد جعل الوبر إلى خارج . وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات . وفى يده حَرْبة من القصب . ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة . فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزَّنجبيل والقِرْفة والحيتان التى تكون بجزائر ذِيبة المَهَل ، وأثوابا بَنْجالية . وهم لا يلبسونها ، وإنما يكسونها الفيلة فى أيام عيدهم .

ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك ، وثياب لكسوة الفيل ، وَحَلْى ذهب تجعله زوجته فى مَحْزِمها وأصابع رجليها. ثم سافرنا عن هؤلاء . وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة ، وهى التى ينسب اليها اللُّبان الجاوىّ . رأيناها على مسيرة نصف يوم . وهى خَضِرَة نَضْرة . وأكثر أشجارها النارَجيل والفوْفَل والقرَنْفُل والعود الهندى والنارَنْج الحلو [1] وقصب الكافور والعنْبة . وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قَصْدير ، وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك .

والكثير من أفاويه الطيب التى ببلاد الكفار إنما هو منها . وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك. ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها فى مراكب صغار ، ومعهم جوز النّارَجيل والموز والسمك . وعادتهم أن يُهْدوا ذلك للتجار ، فيكافئهم كل إنسان على قدره . وصعد إلينا نائب صاحب البحر ، وشاهد من معنا من التجار ، وأذِن لنا فى النزول إلى البر ، فنزلنا إلى البَنْدَر، وهى قرية كبيرة على ساحل البحر . وبينها وبين البلد أربعة أميال. ثم كتب بَهْرُوز نائب صاحب البحر إلى السلطان ، فعرفه بقدومى ، فأمر الأمير

---

(١) البرتقال .

دَوْلَسَة بلقانى ، والقاضى الشريف أميرسيد الشِيرازىّ وتاج الدين الأَصْبَهانىّ ، وســواهم من الفقهاء ، نخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه ، فركبت وركب أصحابى ودخلنا حضرة السلطان ، وهى مدينة سُمُطْرة ، مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

ذكر سلطان الجَاوة

وهو السلطان الملك الظاهر ، من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعىّ المذهب ، محب للفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثير الجهاد والغزو متواضع ، يأتى إلى صلاة الجمعــة ماشيا على قدميه . وأهل بلاده شافعية محبون للجهاد ، يخرجون معه طوعا . وهم غالبون على من يليهم من الكفار . والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ذكر دخولنا داره وإحسانه إلينا

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقــرب منها رِماحا مركوزة عن جانبى الطريق ، وهى علامة على نزول الناس ، فلا يتجاوزها من كان راكبا . فنزلنا عندها ودخلنا (المشور) ، فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمى عمــدة الملك . فقام إلينا وسلم علينا . وسلامهم بالمصافحة . وقعدنا معه ، وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك ، وختمها ودفعها لبعض الفتيان ، فأتاه الجواب على ظهرها . ثم جاء رجل (ببُقْشَة) فأخذها النائب بيده ، وأخذ بيدى وأدخلنى إلى دُوَيرة ، وهى موضع راحته بالنهار ، فإن العادة أن يأتى السلطان إلى (المشور) بعد الصبح ، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة .

وكذلك الوزراء والأمراء الكبار . وأخرج من (البُقْشَة) ثلاث فُوَط ، إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن ، وأخرى حرير وكتان . وأخرج ثلاثة أثواب من جنس الفوط . وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس ، وأخرج ثلاثة أثواب من (الأرمك[1]) أحدها أبيض . وأخرج ثلاث عمائم . فلبست فوطة منها وثوبا من كل جنس . وأخذ أصحابي ما بقي منها .

ثم جاءوا بالطعام وأكثره الأرز . ثم أتوا بنوع من الفُقَّاع ، ثم أتوا بالتَّانْبُول ، وهو علامة الانصراف . فأخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا . وخرجنا عن (المشور) ، فركبنا وركب النائب معنا ، وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب ، وفي وسطه دار بناؤها بالخشب ، مفروشة بقطائف قطن ، منها مصبوغ وغير مصبوغ . وفي البيت أسِرَّة من الخَيْزُران ، فوقها مُضَرَّبات [2] من الحرير ، ولُحُف خِفاف ، ومَخَادّ . فجلسنا بالدار ومعنا النائب . ثم جاء الأمير دَوْلَسة بجاريتين وخادمين . وقال لي : يقول لك السلطان : هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد . ثم خرج النائب ، وبقي الأمير دولسة عندي ، وكانت بيني وبينه معرفة ، لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلي . فقلت له : متى تكون رؤية السلطان ؟ فقال لي : إن العادة عندنا ألا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاثة ، ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه .

فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم ، وتأتينا الفواكه والطُّرَف مساء وصباحا . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دَوْلَسة فقال لي : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع

---

(١) الكتان بلغتهم .

(٢) يظهر أنه يريد بها الحشايا ، جمع حَشِيَّة للفراش المحشو . أما كلمة (المضربات) لهذا المعنى فغير عربية فيما نعلم . وقد سبق في الحواشي مثل هذا التعليق .

بعد الصلاة . فأتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه . ثم دخلت على السلطان ، فوجدت القاضي أمير سيد ، والطلبة عن يمينه وشماله . فصافحني وسلمت عليه ، وأجلسني عن يساره ، وسألني عن السلطان محمد وعن أسفاري ، فأجبته.وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي . ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر . فلما صلاها دخل بيتا هنالك ، فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء . وبها يأتي المسجد يوم الجمعة ماشيا . ثم لبس ثياب الملك ، وهي الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه . والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل . وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل ، وركبنا الخيل، وسرنا معه إلى (المشور)، فنزلنا حيث العادة، ودخل السلطان راكبا، وقد اصطف في (المشور) الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا . فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب. ووزراؤه أربعة . فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم، ثم صف الأمراء، فسلموا ومضوا إلى مواقفهم . وكذلك تفعل كل طائفة . ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والمماليك . ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ، ورفع فوق رأسه (شَطْر) مرصع. وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة، وعن شماله مثلها، وعن يمينه أيضا مائة فرس ، وعن شماله مثلها . ووقف بين يديه خواص الحجاب. ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه . وأتى بخيل مجللة بالحرير، لها خلاخيل ذهب وأَرْسان حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه، فعجبت من شأنها . وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم .

وكانت إقامتى عنده بِسُمُطْرة خمسة عشر يوما . ثم طلبت منــه السفر ، إذ كان أوانه ، ولا يتهيأ السفر إلى الصين فى كل وقت . فجهّز لنا (جُنْكا) وزوّدنا وأحسنَ وأجمل . جزاه الله خيرا . وسافرنا بطول بلاه إحدى وعشرين ليلة ، ثم وصلنا إلى مُلْ جَاوة ، وهى من بلاد الكفار . وطولها مسيرة شهرين. وبها الأفاويه العَطِرة . ولنذكر ماشاهدناه منها ، ووقفنا على أعيانه وحققناه .

ذكر اللُّبان

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى مادون ذلك ، وأغصانها كأغصان (الخرشف)[1] ، وأوراقها صغار رقاق . وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة . واللبان صمغية تكون فى أغصانها .

ذكر الكافور

وأما شجر الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منهــا أطول وأغلظ . ويكون الكافور فى داخل الأنابيب . فإذا كسرت القصبة وجد فى داخل الأُنْبوب مثل شكله من الكافور .

ذكر العود الهنــــدى

وأما العود الهنــدى فشجره يشــبه شجر البَلُّوط ، إلا أن قشره رقيق . وأوراقه كأوراق البلوط سواء . ولا ثمر له ، وشجرته لاتعظم كلّ العظم. وعروقه طويلة ممتدة وفيهــا الرائحة العَطِرة . وأما عيدان شجرته وورقها فلا عِطْرِيّة فيها . وكل مابيلاد المسلمين من شجره فهو متملك . وأما الذى فى بلاد الكفار فأكثره غير متملك. والمتملك منه ما كان بقَاقُلَّة[2] ، وهو أطيب العود. وكذلك القَمَارِى[3] وهو أطيب أنواع العود . ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب .

(١) لعله مايسمى (بالخرشوف) الآن . ولم نقف على كلمة (الخرشف) فيما لدينا من المراجع .

(٢) قال فى القاموس : القاقُلَّة عمر نبات هندىّ من العطر والأفاويه اهـ ولعله سمى باسم البلد.

(٣) نسبة الى قَمَار بلد بالهند مشهور به .

ذكر القَرَنْفُل

وأما أشجار القرنفل فهى ضخمة ، وهى ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام . وليست بتملكة لكثرتها . والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان . والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل هو الذى يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النَّارَنْج . وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته .

ووصلنا إلى مرسى قاقُلَّة ، فوجدنا به جملة من (الجُنُوك) معدَّة للسرقة ، لمن يستعصى عليهم من (الجنوك) ، فإن لهم على كل (جُنْك) وظيفة . ثم نزلنا من (الجنك) إلى مدينة قاقُلَّة ، وهى مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة ، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . وأول ما رأيت بخارجها والفيلة عليها الأحمال من العود الهندى ، يُوقِدُونه فى بيوتهم . وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا . هذا إذا ابتاعوه فيما بينهم . وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن ، وهى أغلى عندهم من ثياب الحرير . والفِيَلة بها كثيرة جدا ، عليها يركبون ويحملون . وكل إنسان يربط فِيَلته على بابه . وكل صاحب حانوت يَرْبِط فيله عنده ، ويركبه إلى داره . وكذلك جميع أهل الصين والخِطا على مثل هذا الترتيب .

ذكر سلطان مُلْ جاوة

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ، وليس بينه وبين الأرض بساط . ومعه ارباب دولته . والعساكر يعرضون عليه مشاة . ولاخيل هنالك إلا عند السلطان . وإنما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون . فعرف شأنى فاستدعانى ، فجئت وقلت : السلام على من اتبع الهدى . فلم يفقهوا إلا لفظ السلام .

فرحّب بى، وأمر أن يفرش لى ثوب أقعد عليه . فقلت للتُّرجمان : كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال : هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعا ، وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير ، فيجب إكرامك . فجلست ، وسألنى عن السلطان فأوجز فى سؤاله . وقال لى : تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه

ورأيت فى مجلس هــذا السلطان رجلا بيده سكين ، قد وضعه على رقبة نفسه، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه، ثم أمسك السكين بيديه معا، وقطع عنق نفسه ، فوقع رأسه لحدّة السكين ، وشدة إمساكه بالأرض . فعجبت من شأنه . وقال لى السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم ؟ فقلت له : ما رأيت هذا قط . فضحك وقال : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا . وأمر به فرفع وأحرق . وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا ! وأُجرِى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه ، وعُظِّموا لأجل فعله . وأخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس أن الكلام الذى تكلم به كان تقريرا لمحبته للسلطان ، وأنه يقتل نفسه فى حبه ، كما قتل أبوه نفسه فى حب أبيه ، وجدُّه نفسه فى حب جده . ثم انصرفت عن المجلس ، وبعث إلى بضيافة ثلاثة أيام .

وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما إلى البحر الكاهل [1] وهو الراكد . ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل هــذا البحر تتبع كل (جنك) من (جنوك) الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه، تجذف

(١) ليس فى كتب اللغة التى بين أيدينا أن الكاهل يكون بمعنى الراكد .

به فتجره. ويكون فى (الجنك) مع ذلك نحو عشرين مِجذافا كبارا كالصوارى ، يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوهم ، ويقومون قياما صفين ، كل صف يقابل الآخر . وفى المجذاف حبلان عظيمان ، فتجذف إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه ، وتجذف الطائفة الأخرى ، وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان .

وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما ، وعجبت البحْرية من التسهيل فيه ، فإنهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين ، وهى أَنْهَى ما يكون من التيسير عليهم . ثم وصلنا إلى بلاد طَوَالِسِى (١) ، وهى بلاد عريضة ، وملكها يضاهى مَلِك الصين ، وله الجنوك الكثيرة ، يقاتل بها أهل الصين ، حتى يصالحوه على شىء . وأهل هذه البلاد عبدة أوثان ، حسان الصور ، أشبه الناس بالترك فى صورهم . والغالب على ألوانهم الحمرة ، ولهم شجاعة ونجدة . ونساؤهم يركبن الخيل ، ويحسنَّ الرِّماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيهم بمدينة كَيْلُوكَرِى ، وهى من أحسن مدنهم وأكبرها . وكان يسكن بها ابن ملكهم . فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل (الناخُذَاة) إليهم ومعه هدية لابن الملك ، فسألهم عنه فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيرهم ، وولى بنته بتلك المدينة واسمها أُرْدُجَا .

ذكر هذه الملكة

ولما كان اليوم الثانى من حلولنا بمرسى كَيْلُوكَرِى ، استدعت هذه الملكة (الناخُذَاة) صاحب المركب ، والكاتب والتجار والرؤساء ، ومقدّم الرجال ومقدّم الرُّماة ، لضيافة صنعتها لهم على عادتها . ورغب (الناخُذَاة) منى أن أحضر

(١) طوالسى هو اسم ملك هذه البلاد .

معهم ، فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقى أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها (الناخُذَاة) : لم يبق إلا رجل واحد وهو القاضى ، وهو لا يأكل طعامكم . فقالت ادعوه ، فجاء جنادرتها[1] وأصحاب (الناخداة) ، فقالوا : أجب الملكة . فأتيتها وهى بمجلسها الأعظم ، وبين يديها نسوة ، وحولها النساء القواعد ، وهن وزيراتها . وقد جلسن تحت السرير على كراسىّ الصندل ، وبين يديها الرجال .

ومجلسها مفروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل ، وعليه صفائح الذهب . وبالمجلس مصاطب خشب منقوش ، عليها أوانى ذهب كثيرة ، من كبار وصغار كالخوابى والقِلال ، أخبرنى (الناخُذَاة) أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر ، مخلوط بالأفاويه ، يشربونه بعد الطعام ، وأنه عَطِر الرائحة ، حلو المطعم ، يفرح ويهْضِم . فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية : كيف حالك ، كيف أنت ؟ وأجلستنى على قرب منها ، وكانت تحسن الكتاب العربىّ . فقالت لبعض خدامها : الدواة والكاغد . فأتى بذلك ، فكتبت فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت : ماهذا ؟ فقلت لها : اسم الله . فقالت : جيد . ثم سألتنى من أى البلاد قدمت؟ فقلت لها : من بلاد الهند ، فقالت : بلاد الفلفل؟ فقلت نعم . فسألتنى عن تلك البلاد وأخبارها ، فأجبتها . فقالت : لا بد أن أغزوها وآخذها لنفسى ، فإنى يعجبنى كثرة مالها وعساكرها . فقلت لها : افعلى . وأمرت لى بأثواب وحمل فيلين من الأرز ، وبجاموستين وعشرة من الضأن ، وأربعة أرطال جُلَّاب ، وأربعة (مَرْطَبَانات) ، وهى أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعَنْبا[2] ، كل ذلك مملوح مما يُعَدّ للبحر .

---

(١) يريد أعوانها . والكلمة غير عربية .

(٢) المنجو ، كما سبق . والعنبا غير عربية . وقد رسمها ابن بطوطة تارة بالألف وتارة بالهاء . راجع ص ١٥ .

وأخبرنى (الناخُذَاة) أن هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخوادم وجوار يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج فى العساكر من رجال ونساء ، فتغير على عدوها ، وتشاهد القتال وتبارز الأبطال . وأخبرنى أنها وقع بينها و بين بعض أعدائها قتال شديد ، وقُتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون ، فدفعت بنفسها ، وخرقت الجيوش ، حتى وصلت إلى الملك الذى كانت تقاتله ، فطعنته طعنة كان فيها حَتْفه ، فمات وانهزمت عساكره ، وجاءت برأسه على رمح ، فافتكّه أهله منها بمال كثير . فلما عادت إلى أبيها ملّكها تلك المدينة التى كانت بيد أخيها . وأخبرنى أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول : لا أتزوج إلا من يبارزنى فيغلبنى ، فيتحامون مبارزتها خوف المعرّة إن غلبتهم .

ثم سافرنا عن بلاد طَوَالِسى فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه ، إلى بلاد الصين .

و إقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة ، لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض . ويخترقه النهر المعروف (بآب حياة) ومعنى ذلك ماء الحياة . ومنبعه من جبال تسمى (كُوه بُوزْنَة)، ومعناه جبل القرود . ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر ، إلى أن ينتهى إلى صين الصين . وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة . وعليه النواعير الكثيرة . وببلاد الصين السكر الكثير ، مما يضاهى المصرى بل يَفْضُله ، والأعناب والإجّاص . وكنت أظن أن الإجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له ، حتى رأيت الإجاص الذى بالصين . وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خُوَارَزْم واصْفَهان . وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه . والقمح بها كثير جدا . ولم أر قمحا أطيب منه . وكذلك العَدَس والحِمَّص .

ذكر الفَخّار الصينى

وأما الفخار الصينىّ فلا يصنع منها إلا بمدينة الزيتون، وبصين كلان . وهو من تراب جبال هنالك، تَقِد فيه النار كالفحم . وسنذكر ذلك . ويضيفون إليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها الماء، فيعود الجميع ترابا ، ثم يُخَمّرونه . فالجيد منه ما خُمِّر شهرا كاملا. ولا يزاد على ذلك . والدون ما خمر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنا . ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم ، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب ، وهو أبدع أنواع الفخار .

ذكر دَجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا ، أضخم من الإوَزّ عندنا . وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا . وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها . ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها ، فلم يسع لحمَها بُرْمةٌ واحدة ، فجعلناها فى برمتين . ويكون الديك بها على قدر النعامة . وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كَوْلَم فظننته نعامة ، وعجبت منه : فقال لى صاحبه : إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه . فلما وصلت إلى الصين رأيت مصْداق ما أخبرنى به من ذلك .

ذكر بعض من أحوال أهل الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ، ويُحرِقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك الصين تترىّ من ذرية تَنْكِيزخان . وفى كل مدينة من مدن الصين

مدينة للسلمين ينفردون فيها بسكناهم . ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها . وهم معظمون محترمون . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها فى أسواقهم . وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة . وجميع أهل الصين إنما يحتفلون بأوانى الذهب والفضة . ولكل واحد منهم عُكّاز يعتمد عليه فى المشى . والحرير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج إلى كثير مُؤْنة . ولذلك كثر . وهو لباس الفقراء والمساكين بها . ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يَسْبِك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قِطعا ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه . ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتما ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه (السَّتى)، وهو بمعنى الكارِمىّ[1] بمصر .

ذكر دراهم الكاغَد[2] التى بها يبيعون ويشترون

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يَسْبِكونه قطعا كما ذكرناه . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغَد ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بِطابَع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السِكّة عندنا ، فأخذ عوضها جُدُدا ودفع تلك .

(١) فئة من أغنياء التجار فى ذلك العهد ، والكلمة غير عربية .

(٢) من ذلك يظهر أن الصينيين أول من استعمل ورق النقد فى العالم .

ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها . لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قِبَل السلطان. وقد وُكِّل بتلك الدار أميرٌ من كبار الأمراء. و إذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه .

ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخِطَا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطَّفْل عندنا . ولونه لون الطفل ، تأتى الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه فيَتَّقِد كالفحم . وهو أشد حرارة من نار الفحم . و إذا صار رَمادا عجنوه بالماء ويبّسوه وطبخوا به ثانية . ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن ينتهى . ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ، و يضيفون إليه حجارة سِواه كما ذكرناه .

ذكر ما خُصُّوا به من إحكام الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سِواهم ، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغِد ، موضوعة فى الأسواق . ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ، ونحن على زِىّ العِراقيين ، فلما عدت من القصر عَشِيّا مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت

صورتى وصــور أصحابى منقوشة فى كاغَد قد ألصقوه بالحائط ؛ فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شَبَهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ؛ فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمــر بهم . وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل مايوجب فــراره عنهم ، بعثوا صورته إلى البلاد وبُحِث عنه ؛ فحيثما وُجِد شِبْه تلك الصورة أخذ[1] . قال ابن جُزَىّ : هذا مثل ماحكاه أهل التاريخ من قصة سابور ذى الأكتاف ملك الفُرْس ، حين دخل بلاد الروم متنكرا ، وحضر وليمــة صنعها ملكهم ، وكانت صورته على بعض الأوانى ؛ فنظر إليها بعض خدّام قيصر ، فانطبقت على صورة سابور . فقــال للملك : إن هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا المجلس . فكان الأمر على ماقاله . وجرى فيه ماهو مسطور فى الكتب .

ذكر عادتهم فى تقييد مافى المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد (جُنْك) من (جنوكهم) السفر ، أن يصعد إليه صاحب البحر وكتّابه ، ويكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحْرية . وحينئذ يباح لهم السفر . فإذا عاد (الجنك) إلى الصين صعدوا إليه أيضا ؛ وقابلوا ماكتبوه بأشخاص الناس . فإن فقدوا أحدا ممن قيدوه طالبوا صاحب (الجنك) به ، فإما أن يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك ممــا يحدث له ؛ وإلا أخذ فيــه . فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم

---

(١) هذا مثل ما يعمل فى أرقى البلاد تمدينا الآن .

تفصيلا بجميع ما فيه من السِلَع قليلها وكثيرها . ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ماعندهم . فإن عثروا على سِلْعة قد كُتِمت عنهم عاد (الجنك) بجميع مافيه مالا للمخزن . وذلك نوع من الظلم مارأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين . اللهم إلا أنه كان بالهند مايقرب منه : وهو أن من عُثِر على سِلْعة له قد غاب (١) على مَغْرَمِها أُغْرِم أحد عشر مَغْرَما . ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد

وإذا قدِم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين ، خُيِّر فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين مُعَيَّن ، أو فى الفُنْدُق . فإن أحب النزول عند التاجر ، حُصِر ماله وضَمِنه التاجر المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف . فإذا أراد السفر بُحِث عن ماله ، فإن وجد شىء منه قد ضاع أَغْرِمه التاجِر المستوطِن الذى ضمنه . وإن أراد النزول بالفندق سلّم ماله لصاحب الفندق وضمنه . وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه . وأما إنفاق ماله فى الفساد فشىء لا سبيل له إليه . ويقولون : لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا .

(١) يريد : تسبب فى ألا يؤخذ عليها مغرم . وهو تعبير غريب .

ذكر حفظهم للمسافرين فى الطريق

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، فان الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر ، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها . وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل ببلادهم فُنْدُقًا ، عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفُرْسان والرجال . فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الاخرة ، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه ، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم . فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه ، فدعا كل إنسان باسمه ، وكتب بها تفسيرا ، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالى له ، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا اليه . وإن لم يفعل طالبه بهم . وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم ، من صين الصين إلى خَانْ بَالِق (١) . وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد ، وخصوصا الدجاج والأوز . اما الغنم فهى قليلة عندهم .

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون . وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند . ولكنه اسم وضع عليها . وهى مدينة عظيمة كبيرة ، تصنع بها ثياب الكَمْخا(٢) والأطلس ، وتعرف بالنسبة إليها . ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت به نحو مائة (جُنْك) كبار . وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وهو خُور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض ، وداره فى وسطها ، كمثل ما فى بلدة سِجِلْماسة(٣) ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم .

---

(١) بكين كما سبق .

(٢) سبق تفسيرها فى الحواشى .

(٣) مدينة فى جنوب المغرب فى طرف بلاد السودان اه ياقوت ، وستمر بك فيما بعد .

والمسلمون ساكنون بمدينة على حِدَة . وفى يوم وصولى إليها رأيت بها الأمير الذى توجه إلى الهند رسولا بالهدية ، ومضى فى صحبتنا وغَرِق به (الجُنْك) . فسلّم علىّ وعرّف صاحب الديوان بى ، فأنزلنى فى منزل حسن ، وجاء إلى قاضى المسلمين تاج الدين الأَرْدَوِيلىّ ، وهو من الأفاضل الكرماء ، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفَهانىّ . وهو من الصلحاء . وجاء إلىّ كبار التجار، وفيهم شرف الدين التّبريزىّ ، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند ، وأحسنهم معاملة ، حافظ القرآن مكثر للتلاوة . وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا : جاء من أرض الإسلام . وهم يعطونه زكاة أموالهم ، فيعود غنيا كواحد منهم .

وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكَازَرُونى، وله زاوية فى خارج البلد، وإليه يدفع التجار النذور التى يَنْذُرونها[1] للشيخ أبى اسحق الكَازَرُونى . ولما عرف صاحب الديوان أخبارى ، كتب إلى (القان) وهو ملكهم الأعظم ، يخبره بقدومى من جهة ملك الهند . فطلبت منه أن يبعث معى من يوصلنى إلى بلاد الصين (صين الصين) . وهم يسمونها صين كَلَان ، لأشاهد تلك البلاد . وهى فى عمالته، بخلال[2] ما يعود جواب القان، فأجاب إلى ذلك . وبعث معى من أصحابه من يوصلنى . وركبت النهر فى مركب يشبه (أجفان) بلادنا الغَزْوية ، إلا أن الجذافين يَجْذِفون فيه قياما ، وجميعهم فى وسط المركب ، والركاب فى المقدّم والمؤخر . ويظللون على المركب ثيابا تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكَتّان وليس به . وهو أرق من القِنّب . وسافرنا فى هذا النهر سبعة وعشرين يوما . وفى كل يوم نرسو عند الزوال بقرية

(١) النذر لغير الله حرام . وقد ورد مثل هذا فى هذا الكتاب فى غير ما موضع ، ونبهنا عليه .

(٢) يقصد ريثما يعود ، كما سبق مثل هذا التعبير ، وهو غريب .

نشترى بها مانحتاج إليـه ونصلى الظهر. ثم ننزل بالعشىّ إلى أخرى هكذا ، إلى أن وصلنا إلى مدينـة صين كَلان ، وهى مدينة صين الصين . وبها يصنع الفَخّار ، وبالزيتون أيضا. وهنالك يصب نهر (آب حياة) فى البحر. ويسمونه مجمع البحرين . وهى من أكبر المدن وأحسنها أسواقا . ومن أعظم أسواقها سوق الفَخّار ، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن . وفى وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لهـا تسعة أبواب ، فى داخل كل باب (أسطوان) ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها. وبين البابين الثانى والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزّمانات[1]. ولكل واحد منهم نفقته وكُسْوته من أوقاف الكنيسة . وكذلك فيما بين الأبواب كلها . وفى داخلها المـارَسْتان[2] للمرضى، والمَطْبَخة[3] لطبخ الأغذية. وفيها الأطباء والخـدام . وذُكر لى أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لاحال[4] لهم . وعَمَرَ هذه الكنيسة بعض ملوكهم ، وجعل هـذه المدينـة وما وليها من القرى والبساتين وقفا عليها . وصورة ذلك الملك مصوّرة بالكنيسة . وهم يعبدونها . وفى بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين ، ولهم بهـا المسجد الجامع والزاوية والسوق . ولهم قاض وشـيخ . ولا بد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه ، وقاض

(١) جمع زمانة وهى العاهة .

(٢) دار المرضى ، معرب .

(٣) سبق التنبيه على أن الصحيح مطبخ لا مطبخة .

(٤) يعنى الفقراء . وهو تعبير غريب .

يقضى بينهم . وكان نزولى عند أوحد الدين السِنْجارى[1]، وهو أحد الفضلاء الأكابر، ذو الأموال الطائلة. وأقمت عنده أربعة عشر يوما، وتُحَفُ القاضى وسائر المسلمين تتوالى علىّ . وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون إليها بالمغنين . وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين .

حكاية عجيبة[2]

ولما كنت بصين كَلَان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتى سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يُحْدِث، مع قوته التامة، وأنه ساكن فى غار بخارجها يتعبد فيه . فتوجهت إلى الغار فرأيته على بابه . وهو نحيف شديد الحمرة، عليه أثر العبادة، ولا لحية له . فسلمت عليه، فأمسك يدى وشمها . وقال للتُّرجُمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر . ثم قال لى : لقد رأيت عجبا، أتذكر يوم قدومك الجزيرة التى فيها الكنيسة والرجل الذى كان جالسا بين الأصنام، وقد أعطاك عشرة دنانير من الذهب ؟ فقلت نعم . فقال: أنا هو ! فقبلت يده. وفكر ساعة. ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا. وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به، فَهَجَمْنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده، ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت[3] من الكاغَد فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا . فقلنا له : ننتظر الرجل . فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه . فإن عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره ألا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك، بل هو حاضر معك . فعجبت من ذلك وانصرفت، فأعلمت القاضى وشيخ الإسلام وأوحد الدين السِنْجارى بقضيته . فقالوا : كذلك عادته مع من يأتى إليه من الغرباء . ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان .

---

(١) نسبة إلى سِنجار، بلد مشهور على ثلاثة أيام من الموصل . قاموس .

(٢) فى هذه الحكاية أخبار لا يسهل تصديقها .

(٣) رَقْع من الكاغد يتعامل بها كالنقد، غير عربية .

والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو . وأخبرونى انه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة، ثم قدم عليها منذ سنة . وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التُّحَف على أقدارهم . ويأتيه الفقراء كل يوم، فيعطى كل أحد على قدره . وليس فى الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر . وإنه يحدِّث عن السنين الماضية . ويذكر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول : لو كنت معه لنصرته ، ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب بأحسن الذكر، ويثنى عليهما. ويلعن يزيد بن معاوية . ويقع[1] فى معاوية . وحدثونى عنه بأمور كثيرة . وأخبرنى أوحد الدين السِنْجارى قال : دخلت عليه بالغار فأخذ بيدى، فخيل لى أنى فى قصر عظيم ، وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج ، وعن جانبيه الوصائف الحسان ، والفواكه تتساقط فى أنهار هنالك . وتخيلت أنى أخذت تفاحة لآكلها ، فإذا أنا بالغار بين يديه وهو يضحك منى . وأصابنى مرض شديد لازمنى شهورا فلم أعد إليه . وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم ، لكن لم يره أحد يصلى . وأما الصيام فهو صائم أبدا . وقال لى القاضى : ذكرت له الصلاة فى بعض الأيام فقال لى : أتدرى أنت ما أصنع؟ إن صلاتى غير صلاتك . وأخباره كلها غريبة .

وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون. وبعد وصولى إليها بأيام جاء أمر القان بوصولى إلى حضرته، على البر والكرامة، إن شئت فى النهر وإلا ففى البر . فاخترت السفر فى النهر ، فجهزوا لى مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الأمراء . وبعث الأمير معنا أصحابه . ووجه لنا الأمير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة . وسرنا فى الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى . فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قَنْجَنْفُو، مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح ، والبساتين محدقة بها . فكأنها غُوطة[2] دمشق .

---

(١) يذمه .

(٢) إحدى جنان الدنيا الأربع . وكانت من أنزه بلاد الله وأحسنها منظرا .

وعند وصولنا خرج إلينا القاضى وشيخ الإسلام والتجار ، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق و(الأنقار) وأهل الطرب. وأتوا بالخيل فركبنا، ومشوا بين أيدينا ، ولم يركب معنا غير القاضى والشيخ . وخرج أمير البلد وخدامه . وضيف السلطان عندهم معظم أشدّ التعظيم . ودخلنا المدينة ، ولها أربعة أسوار . يسكن ما بين السور الأول والثانى عبيد السلطان من حراس المدينة وسُمَّارها[1] . ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المُرْكَبون[2] والأمير الحاكم على البلد . ويسكن فى داخل السور الثالث المسلمون . وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القُرْلانى . ويسكن فى داخل السور الرابع الصينيون . وهو أعظم المدن الأربع . ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه .

حكاية

وبينا أنا يوما فى دار ظهير الدين القُرْلانِى ، إذْ بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم ، فاستؤذن له علىّ ، وقالوا : مولانا قِوام الدين السَّبْتِى ، فعجبت من اسمه، ودخل علىّ. فلما حصلت المؤانسة بعد السلام، سنح لى أنى أعرفه . فأطلت النظر إليه . فقال: أراك تنظر إلىّ نظر من يعرفنى. فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال : من سَبْتة . فقلت له : وأنا من طَنْجة . فجدّد السلام علىّ، وبكى حتى بكيت لبكائه . فقلت له : هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لى : نعم دخلت حضرة دِهْلى . فلما قال لى ذلك تذكرته ، وقلت : أأنت البُشْرىّ ؟ قال نعم. وكان وصل إلى دهلى مع خاله أبى قاسم المُرْسِىّ . وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه ، من حذاق الطلبة ، يحفظ المُوَطّأ[3] .

(١) حُرَّاس الليل، تسمية اصطلاحية .

(٢) يظهر أنه يريد الركبان .

(٣) كتاب الإمام مالك فى الفقه .

وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار . وطلب منه الإقامة عنده فأبى . وكان قصده بلاد الصين . فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة . أخبرنى أن له نحـو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى . ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان . وكانت إقامتى بِقَنْجَنْفُو خمسة عشر يوما . وسافرت منها .

وبلاد الصين على ما فيهـا من الحسن لم تكن تعجبنى ، بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فمتى خرجت عن منزلى رأيت المناكير[1] الكثيرة . فأقلقنى ذلك ، حتى كنت ألازم المـنزل فلا أخرج إلا لضرورة . وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت أهلى وأقاربى . ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البُشْرِى أَنْ سافر معى لمـا رحلت عن قَنْجَنْفُو أربعة أيام ، حتى وصلت إلى مدينة بَيْوَمْ قُطْلُو ، مدينة صـغيرة يسكنها الصينيون من جُنْد وسوقة . وليس بها للمسلمين إلا أربع من الدور ، أهلها من جهة هذا الفقيه ، نزلنـا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام .

ثم ودّعت الفقيه وانصرفت ، فركبت النهر على العـادة ، نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى ، إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها إلى الخَنْسا . واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة . ولا أدرى أعربى هو أم وافق العربى . وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض . طولها مسيرة ثلاثة أيام . يرحل المسافر فيها وينزل ، وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين : كل أحد له بستانه وداره . وهى منقسمة ست مدن سنذكرها . وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين ، وشيخ الإسلام بها ، وأولاد عثمان بن عفان المصرىّ . وهم كبراء المسلمين بها . ومعهم علم أبيض والأطبال (والأنقار) والأبواق .

(١) المعاصى والمفاسد .

وخرج أميرها فى موكبه . ودخلنا المدينة. وهى ست مدن على كل مدينة سور، ويُحْدِق بالجميع سور واحد .

فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثنى القاضى وسواه أنهم اثنا عشر ألفا فى زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم . وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود . ويسكن بها اليهود والنصارى ، والترك عبدة الشمس ، وهم كثير . وأمير هذه المدينة من أهل الصين . وبتنا عنده الليلة الثانية . وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ، ويسكنها المسلمون . ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الإسلام. وبها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرىّ ، وكان أحد التجار الكبار . وقد استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعُرِفت بالنسبة إليه . وأورث عَقِبه بها الجاه والحُرْمة . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار للفقراء والإعانة للمحتاجين . ولهم زاوية تعرف بالعثمانية ، حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبنى عثمان المسجد الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة . وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما . فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون فى أطعمتهم ، ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة . وركبوا معى يوما ، فدخلنا المدينة الرابعة ، وهى دار الإمارة . وبها سكنى الأمير الكبير قُرْطَىْ . ولما دخلنا من بابها ذهب عنى أصحابى ولقينى الوزير ، وذهب بى إلى دار الأمير الكبير قَرْطى، فكان مِن أَخْذِه الفرجية التى أعطانيها ولىّ الله جلال الدين الشِيرازى ما قد ذكرته .

وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه . وهى من أحسن المدن الست . ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم. وتأتى فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوَقْد. وفيه السفن للنزهة . (والمشور)[1] فى وسط هذه المدينة ، وهو كبير جدا ؛ ودار الإمارة فى وسطه ؛ وهو يحف بها من جميع الجهات. وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلاتِ الحرب . أخبرنى الأمير قُرْطَىْ أن عددهم ألف وستمائة معلم ، كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين. وهم أجمعون عبيد القان ، وفى أرجلهم القيود. ومساكنهم فى خارج القصر. ويباح لها الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج من بابها . ويعرضون كل يوم على الأمير ، مائة مائة . فإن نقص أحدهم طولب به أميره . وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فُكَّ عنه قيده . وكان يخير فى النظرين : إما أن يقيم فى الخدمة غير مقيد ؛ وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها . وإذا بلغت سنه خمسين عاما أعتِق من الأشغال وأنفِق عليه . وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أونحوها مِن سواهم . ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي ، فلم تجر عليه الأحكام . والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا . ويسمى أحدهم (آطا) ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قُرْطَىْ

وهو أمير أمراء الصين . أضافنا بداره وصنع الدعوة ، وحضرها كبار المدينة ؛ وأتى بالطباخين المسلمين ، فذبحوا وطبخوا الطعام . وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ، ويقطع اللحم بيده . وأقمنا فى ضيافته ثلاثة

(١) سبق أن عرفناه . والمراد به غالبا فى هذا الكتاب مجلس السلطان للناس . ولا ندرى كيف تضبط الكلمة ، إذ لم نجد لها أصلا بهذا المعنى فى كتب اللغة كما قدمنا .

أيام . وبعث ولده معنا إلى الخليج ، فركبنا فى سفينة تشبه الحَراقة، وركب ابن الأمير فى أخرى ، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقا . وكانوا يغنون بالصينى وبالعربىّ وبالفارسىّ . وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسىّ . فغنوا شعرا منه ، وأمرهم بتكريره مرارا، حتى حفظته من أفواههم . وله تلحين عجيب .

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القِلاع الملونة ومظلات الحرير . وسفنهم منقوشة أبدع نقش . وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنَارَنْج والليمون . وعدنا بالعشىّ إلى دار الأمير فبتنا بها ، وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

حكاية المُشَعْوِذ

وفى تلك الليلة حضر أحد المُشَعْوِذَة، وهو من عبيد القان. فقال له الأمير: أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشبٍ لها ثَقْب فيها سُيُور طِوال ، فرمى بها إلى الهواء، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن فى وسط (المشور) أيام الحر الشديد . فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير، أمر متعلما له فتعلق به، وصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاثا فلم يجبه ، فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ، وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو يَنْفُخ وثيابه ملطخة بالدم . فقبّل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصينى . وأمر له الأمير بشىء . ثم إنه أخذ أعضاء الصبي فألصق بعضها ببعض، وركضه برجله فقام سَوِيّا . فعجبت منه وأصابنى خفقان القلب ، كمثل ما كان أصابنى عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك .

فسقونى دواء اذهب عنى ما وجدت . وكان القاضى فخر الدين إلى جانبى ، فقال لى : والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وإنما ذلك شَعْوَذة .

وفى غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهى من أكبر المدن . يسكنها عامة الناس ، وأسواقها حسان وبها الحُذَّاق فى الصناعات . وبها تصنع الثياب الخَنْساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها صِحاف من القصب ، وقد ألصقت قطعه أبدع إلصاق ، ودُهِنت بِصِبْغ أحمر مُشْرِق . وتكون هذه الصحاف عشرا ، واحدة فى جوف أخرى ، تظهر لرائيها كأنها صحفة واحدة ، ويصنعون غطاء يغطى جميعها . ويصنعون من هذا القصب صِحافا من عجائبها أن تقع من العُلُوّ فلا تنكسر . ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صِبْغُها ولا يَحُول . وتجلب من هنالك إلى الهند وخُراسان وسواها .

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة فى ضيافة أميرها . وبالغد دخلنا من باب إلى المدينة السادسة ، ويسكنها البحْرِية والصيادون والنجارون والرماة والرجّالة . وجميعهم عبيد السلطان . ولا يسكن معهم سواهم . وعددهم كثير . وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم ، بتنا بها ليلة فى ضيافة أميرها . وجهّز لنا الأمير قُرْطَىْ مركبا بما يحتاج إليه من زاد وسواه .

وسافرنا من هذه المدينة وهى آخر أعمال الصين ، ودخلنا إلى بلاد الخطا . وهى أحسن بلاد الدنيا عمارة . ولا يكون فى جميعها موضع غير معمور ، فإنه إن بقى موضع غير معمور ، طُولب أهله أو من يواليهم بخَراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبى هذا النهر ، من مدينة الخَنْسا إلى مدينة خَانْ بَالِق ، وذلك مسيرة أربعة وستين يوما . وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضرا غير مقيم ، لأنها ليست بدار مُقام ، وليس بها

مدينة مجتمعة ، وإنما هى قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر. ولم أر فى الدنيا مثلها ، غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانَة. وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة ، حتى وصلنا إلى مدينة خَانْ بَالِق (١). وهى حضرة القان. والقان هو سلطانهم الأعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطا.

ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم. وكُتِب إلى أمراء البحر بخبرنا ، فأذنوا لنا فى دخول مرساها ، فدخلناه. ثم نزلنا إلى المدينة وهى من أعظم مدن الدنيا. وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين فى داخلها ، وإنما هى كسائر البلاد والبساتين بخارجها. ومدينة السلطان فى وسطها كالقَصَبة ، على ما نذكره. ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصَاغَرْجِى ، وهو الذى بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه ، فأخذ الدنانير وقضى بها دينه ، وأبى أن يسير إليه. وقدم على بلاد الصين ، فقدّمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده ، وخاطبه بِصَدْر الجهان.

ذكر سلطان الصين والخِطَا الملقب بالقان

والقان عندهم سِمة لكل من يلِى الملك ، مُلْك الأقطار. وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته.

ذكر قصره

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناه. وأكثر عمارته بالخشب المنقوش ، وله ترتيب عجيب. وله سبعة أبواب : فالباب الأوّل منها يجلس به الكُتُوال ، وهو أمير البوابين. وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره ، فيها المماليك حفاظ باب القصر ، وعددهم خمسمائة رجل. وأُخبرت أنهم كانوا فيما تقدم الف رجل. والباب الثانى يجلس عليه الرماة. وعددهم خمسمائة. والباب

(١) بكين ، كما سبق فى الحواشى.

الثالث يجلس عليه أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة. والباب الرابع يجلس عليه أصحاب السيوف والترسة. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة : فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، وبين يديه دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر. وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل. وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كُتَّاب الأشغال. وتقابل هذه السقائف سقائف أربع : إحداها تسمى ديوان الإشراف، يقعد بها المُشْرِف. والثانية سقيفة ديوان المستخرَج. وأميرها من كبار الأمراء. والمستخرج هو ما يبقى قِبَل العمال وقِبَل الأمراء من إقطاعاتهم. والثالثة ديوان الغَوْث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب، فمن لحقه مَظْلَمَة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد، يجلس فيها أمير الإخباريين. والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجَنْدَارِيّة[1] وأميرهم الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفِتْيان، ولهم ثلاث سقائف : إحداها سقيفة الحُبْشان[2] منهم، والثانية سقيفة الهنود، والثالثة سقيفة الصينيين. ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خَانْ بَالِق، وجدنا القان غائبا عنها إذ ذاك. وقد خرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قَرَاقُرُم وبِشْ بالِغ من بلاد الخطا، وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة. وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصَاغَرْجِى، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود، اجتمع عليه من الفرسان مائة فَوْج، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس. وكان خواص

(١) حرس السلطان، غير عربي.

(٢) قال في القاموس: والأُحْبُش بضم الباء جنس من السودان، جمعه حُبْشان وأحابش.

السلطان وأهل دُخْلته(١) خمسين ألفا ، زائدا إلى ذلك(٢) . وكانت الرجالة خمسمائة ألف . ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعه ، لأنه كان قد غير الأحكام التى وضعها تَنْكِيز خان (٣) ، جدهم الذى خرب بلاد الاسلام . فمضوا إلى ابن عمه القائم ، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه ، وتكون مدينة الخَنْسَا إقطاعا له . فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل .

وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك ، فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق (والأنقار) ، وعكفوا على اللعب والطرب مدة شهر . ثم جىء بالقان المقتول ، وبنحو مائة من المقتولين بنى عمه وأقاربه وخواصه ، فحفر للقان ناوُوس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض ، وفرش بأحسن الفرش ، وجعل فيه القان بسلاحه ، وجعل معه ما كان فى داره من أوانى الذهب والفضة ، وجعل معه أربع من الجوارى وستة من خواص المماليك ، ومعهم أوانى الشراب . وبنى باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم . ثم جاءوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ، ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه . وجعل أقارب القان المذكورون فى نواويس ، ومعهم سلاحهم وأوانى دورهم . وصَلَبوا على قبور كبارهم — وكانوا عشرة — ثلاثة من الخيل على كل قبر ، وعلى قبور الباقين فرسا فرسا .

وكان هذا اليوم يوما مشهودا ، لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء ، المسلمين والكفار . وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء ، وهى الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين . وأقامت خواتين القان وخواصه فى الأخبية

---

(١) بطانته .

(٢) يعنى أن ذلك مضاف إلى الفرسان وهو تعبير غريب .

(٣) جنكيز خان .

على قبره أربعين يوما ، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة . وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواه. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم فى هذا العصر . فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم، وسواهم من الأمم يدفنون الميت، ولا يجعلون معه أحدا . لكن أخبرنى الثقات ببلاد السودان ، أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه ، وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم ، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم . ويجعلون معهم أوانى الشراب . ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك ، اختار أن تكون حضرته مدينة قَرَاقُرُم ، لقربها من بلاد بنى عمه ، ملوك تُرْكستان وما وراء النهر . ثم خالفتْ عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان ، وقطعوا الطرق وعظمت الفتن .

ذكر رجوعى إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعَّرت الفتن ، أشار علىّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن، ووقفوا[1] معى إلى نائب السلطان فيروز، فبعث لى ثلاثة من أصحابه، وكتب لى بالضيافة . وسرنا منحدرين فى النهر إلى الخَنْسا ثم إلى قَنْجَنْفُو ثم إلى الزيتون. فلما وصلتها وجدت (الجنوك) على أُهْبة السفر إلى الهند. وفى جملتها (جنك) للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون.

---

(١) لعله يريد : والتمسوا لى الإذن منه فى السفر .

وعرفني وكيله وسُرَّ بقدومي . وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام . فلما قاربنا بلاد طَوَالِسِي تغيرت الريح ، وأظلم الجو وكثر المطر . وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحرا لا نعرفه ، وخاف أهل (الجنك) ، فأرادوا الرجوع إلى الصين ، فلم يمكن ذلك . وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف فى أىّ البحار نحن .

ذكر الرُّخّ

ولما كان اليوم الثالث والأربعون ، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر ، بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا إلى صَوْبه . فَعَجِب البحْرية وقالوا : لسنا بقرب من البر ، ولا يُعْهد فى البحر جبل . وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا . فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة . وابتهلنا إلى الله بالدعاء . ونذر التجار التصدقات الكثيرة . وكتبتها لهم فى زمام(١) بخطى . وسكنت الريح بعض سكون . ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء ، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر ، فعجبنا من ذلك . ورأيت البحْرية يبكون ويودع بعضهم بعضا . فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذى تخيلناه جبلا هو الرخ . وإن رآنا أهلكنا . وبيننا إذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صَوْبه ، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته(٢) . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ، ونزلنا إلى سُمُطْرَة ، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قدِم من غَزَاة له ، وجاء بِسَبْىٍ كثير ، فبعث لى جاريتين وغلامين ، وأنزلنى على العادة . وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه .

---

(١) دفتر أو كناشة ، والكلام على التشبيه .

(٢) حكاية الرخ هذه لا يكاد العقل يصدقها . ولا نظن أن ما رآه ابن بطوطة ومن معه كان طائرا كالجبل . وإنما خيل إليهم أنه كذلك . وقد يكون ما رأوه سحابة .
ونعتقد أن الرخ طائر خرافى ، فقد جاء فى القاموس أنه طائر كبير يحمل الكركدن .

ذكر أعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجَلْوة ، فرأيتهم قد نصبوا فى وسط (المشور) منبرا كبيرا، وكسوه بثياب الحرير . وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها ، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجوه ، ينظر إليهن كل من حضر ، من رفيع أو وضيع . وليست تلك بعادة لهن إلا فى الأعراس خاصة .

وصعدت العروس المنبر ، وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء ، يلعبون ويغنون . ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وفوقه قبة، والتاج على رأسه، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك، وأمراء قد لبسوا البياض، وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رءوسهم (الشّواشىّ) (١) المرصّعة . وهم أتراب العروس ، وليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمَنْظَرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله . وصعد المنبر إلى العروس ، فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها . والخواتين يُرَوّحن عليها . وجاءوا بالفَوْفَل والتّانَبُول ، فأخذه الزوج بيده وجعل منه فى فمها . ثم أخذت هى بيدها وجعلت فى فمه . ثم وضع عليها الستر، ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر . وأكل الناس وانصرفوا . ثم لما كان من الغد ، جُمِع الناس ، وأجرى له أبوه ولاية العهد ، وبايعه الناس ، وأعطاهم العطاء الجَزْل من الثياب والذهب .

---

(١) سبق تفسيرها .

وأقمت بهذه الجزيرة شهرين . ثم ركبت فى بعض (الجنوك) ، وأعطانى السلطان كثيرا من العود والكافور والقَرَنْفُل والصَّنْدل . وسافرت عنه . فوصلت بعد أربعين يوما إلى كَوْلَم ، فنزلت بها فى جوار القَزْوِينى قاضى المسلمين . وذلك فى رمضان . وحضرت بها صلاة العيد فى مسجدها الجامع . وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا ، فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد . ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون . ثم سافرنا من كَوْلَم إلى قَالِقُوط وأقمنا بها أياما . وأردت العودة إلى دِهْلى ، ثم خفت ذلك . فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظَفَار . وذلك فى المحرم سنة ثمان وأربعين . ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا .

ذكر سلطانها

ووجدت سلطانها فى هذه الكَرَّة الملك الناصر ابن الملك المغيث ، الذى كان ملكا بها حين وصولى إليها فيما تقدم . ونائبه سيف الدين عمر التركىّ الأصل . وأنزلنى هذا السلطان وأكرمنى . ثم ركبت البحر فوصلت إلى مَسْقَط وهى بلدة صغيرة ، بها السمك الكثير المعروف بقُلْب ألماس . ثم سافرنا إلى مرسى القُرَيَّات . ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّة . ثم إلى مرسى كَلْبة . ثم إلى قَلْهات ، وقد تقدم ذكرها . وهذه البلاد كلها من عمالة هُرْمُز . وهى محسوبة من بلاد عمان .

ثم سافرنا إلى هُرْمُز وأقمنا بها ثلاثا . وسافرنا فى البر إلى كَوْرَسْتان . ثم إلى اللار . ثم إلى خُنْجُ بال . وقد تقدم ذكر جميعها . ثم سافرنا إلى كَارْزِى وأقمنا بها ثلاثا . ثم سافرنا إلى جَمَكَان . ثم سافرنا منها إلى مَيْمَن . ثم سافرنا إلى بَسَّا ، ثم إلى مدينة شِيراز . فوجدنا سلطانها أبا اسحاق على ملكه ، إلا أنه كان

غائبـا عنها . ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة ، وقد كُفَّ بصره . ثم سافرت إلى مائين[1] ثم إلى يَزْدُ خاص ، ثم إلى كَلِيل ، ثم إلى كُشْك زَر ، ثم إلى أَصْبَهان ، ثم إلى تُسْتَر ، ثم إلى الحُوَيْز ، ثم إلى البصرة . وقد تقدم ذكر جميعها .

وزرت بالبصرة القبور الكريمة التى بها : وهى قبر الزُّبَيْر بن العوَّام ، وطَلْحة ابن عبيد الله ، وحَليمة السَّـعْدية ، وأبى بكر ، وأَنَس بن مالك ، والحسن البصرىّ ، وثابت البُنَـانىّ ، ومحمد بن سِيرين ، ومالك بن دينـار ، ومحمد ابن واسع ، وحَبِيب العجمىّ ، وسهل بن عبد الله التُّسْتَرىّ . رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ثم سافرنا من البصرة ، فوصلنا إلى مَشْهَد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وزرناه . ثم توجهنا إلى الكوفة ، فزرنا مسجدها المبـارك . ثم إلى الحلّة ، حيث مشهد صاحب الزمان . ثم سافرت إلى صَرْصَر ، ثم إلى مدينة بغداد ، ووصلتها فى شوّال سنة ثمـان وأربعين .

ذكر سلطانها

وكان سلطان بغداد والعراق فى عهد دخولى إليها فى هـذا التاريخ ، الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبى سعيد رحمه الله . ولمـا مات أبو سـعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج بزوجته . وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد فى هذه المدة ، متوجها لقتال السلطان أتَابِك أَفْراسْياب ، صاحب بلاد اللُّور[2] . ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأَنْبار ، ثم إلى هِيت[3] ،

(١) بلد من أعمال فارس من نواحى شـيراز . ياقوت . وضبطها ابن بطوطة هـكذا : (مايِين) .

(٢) قال ياقوت : اللور كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان .

(٣) بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار .

ثم إلى الحديثة ، ثم إلى عانة . وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثير العمارة ، كأن الماشي في سوق من الأسواق . وقد ذكرنا أنا لم نر مايشبه البلاد التي على نهر الصين إلا هذه البلاد . ثم وصلت إلى مدينة الرَّحْبَة ، وهي التي تنسب إلى مالك بن طَوْق . ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام . ثم سافرنا منها إلى السُّخْنة ، وهي بلدة حسنة أكثر سكانها من النصارى . وإنما سميت السخنة لحرارة مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء ، يستحمون فيها ، ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد . ثم سافرنا إلى تَدْمُر ، مدينة نبي الله سليمان عليه السلام .

ثم سافرنا منها إلى مدينة دِمَشْق الشام . وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة . وأقمت بها بقية السنة ، والغلاء شديد . وكان قاضي قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المِسْلاتي[1] ، وقاضي قضاة الشافعية تقيّ الدين ابن السُّبكيّ ، وأمير دمشق ملك الأمراء أَرْغُون شاه .

حكاية

ومات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق وأوصى بمال للمساكين . فكان المتولِّي لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر . فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا ، واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ، ومدّوا أيديهم إلى خبز الخبازين . وبلغ ذلك الأمير أَرْغُون شاه ، فأخرج زَبانيته ، فكانوا حيثما لقوا أحدا من المساكين ، قالوا له : تعال تأخذ الخبز . فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة ، وركب من الغد ، وأحضرهم تحت

(١) نسبة إلى مِسْلاتة ، مدينة ساحلية بين طرابُلُس الغرب ومُرْت

القلعة . وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم . وكان أكثرهم برآء من ذلك . وأخرج طائفة الحرافيش[1] عن دِمَشْق ، فانتقلوا إلى حِمْص وحَمَاة وحلَب . وذُكِر لى أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلا وقتل .

ثم سافرت من دِمشق إلى حِمْص ثم حَمَاة ثم المعَرَّة ثم سَرْمِين ثم إلى حلَب . وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رُغْطَىْ . وفى أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين ، بلغنى الخبر فى حلب أن الوباء وقع بِغزَّة ، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف فى يوم واحد . فسافرت إلى حِمْص فوجدت الوباء قد وقع بها . ومات يوم دخولى إليها نحو ثلاثمائة إنسان. ثم سافرت إلى دِمَشْق ووصلتها يوم الخميس. وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام، وخرجوا يوم الجمعة إلى مسجد الأقدام[2] على ما ذكرناه فى السِفر الأول ، فخفف الله الوباء عنهم ، فقد انتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة فى اليوم . ثم سافرت إلى عَجْلُون ثم إلى بيت المَقْدس ، ووجدت الوباء قد ارتفع عنه . ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة بن عز الدين قاضى القضاة بمصر. وهو من الفضلاء الكرماء . ومرتبه على الخَطابة ألف درهم فى الشهر .

حكاية

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ، ودعانى فيمن دعاه إليها ، فسألته عن سببها ، فأخبرنى أنه نذر أيام الوباء أنه إن ارتفع ذلك ومرّ عليه يوم لا يصلى فيه على ميت ، صنع الدعوة . ثم قال لى : ولما كان بالأمس لم أصلِّ على ميت ، فصنعت الدعوة التى نذرت .

---

(١) يقصد الرعاع والسفلة . ولم نر هذا اللفظ فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) سبق أنها أقدام مصورة فى حجر هناك يقال إنها أثر قدم موسى عليه السلام .

ووجدت من كنت أَعهــدهم من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى . رحمهم الله . فلم يبق منهم إلا القليل : مثل المحدِّث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كَيْكَلْدِى العَلائى ، ومثل الصالح شرف الدين الخُشِّىّ ، شيخ زاوية المسجد الأقصى . ولقيت الشــيخ سليمان الشيرازىّ فأضافنى .

ثم سافرت عن القدس . ورافقنى الواعظ المحدِّث شرف الدين سليمان المِلْيانىّ(١) ، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفىّ الفاضل طَلْحَة العبد الوادِى ، فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام ، وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام . ثم سرنا إلى غَزّة ، فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها فى الوباء . وأخبرنا قاضيها أن العُدُول بها كانوا ثمــانين فبقى منهم الربع ، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة فى اليوم . ثم سافرنا فى البر فوصلت إلى دِمْياط . ولقيت بهــا قطب الدين النَّقْشُوانى ، وهو صائم الدهر . ورافقنى منها إلى فارِسْكُور وسَمَنُّود ثم إلى أبى صير . ونزلنا فى زاوية لبعض المصريين بها .

حكاية

وبينما نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلّم ، وعرضنا عليه الطعام فأبى . وقال : إنما قصدت زيارتكم . ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا . ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر ، والفقير بركن الزاوية . فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه ، فمضى إليه فوجده ميتا ، فصلينا عليــه ودفناه . رحمة الله عليه .

---

(١) نسبة إلى مِلْيَــانة ، مدينة فى آخر إفريقية ، بينها وبين تَنَس أربعة أيام اهـ ياقوت .

ثم سافرت إلى المَحَلّة الكبيرة ، ثم إلى نَحْرَارِيّة ، ثم إلى أَبْيار ، ثم إلى دَمَنْهور ، ثم إلى الإسكندرية. فوجدت الوباء قد خفّ بها بعد أن بلغ عدد الموتى ألفا وثمانين فى اليوم . ثم سافرت إلى القاهرة . وبلغنى أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى أحد وعشرين ألفا فى اليوم. ووجدت جميع من كانوا بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا . رحمهم الله .

ذكر سلطانها

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قَلَاوُون . وبعد ذلك خُلِع عن الملك ووَلِيَ أخوه الملك الصالح . ولما وصلت القاهرة وجدت قاضىَ القضاة عز الدين ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، قد توجه إلى مكة فى رَكْب عظيم يسمونه الرَّجَبى ، لسفرهم فى شهر رجب ، وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عَقَبَةَ أَيْلة[1] فارتفع عنهم .

ثم سافرتُ من القاهرة على بلاد الصعيد، وقد تقدم ذكرها، إلى عَيْذاب، وركبت منها البحر فوصلت إلى جُدَّة. ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها ، فوصلتها فى الثانى والعشرين لشعبانَ سنة تسع وأربعين . ونزلت فى جوار إمام المالكية الصالح الولىّ الفاضل ، أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل . فصمت شهر رمضان بمكة ، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعىّ . ولقيت ممن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفىّ، وشهابَ الدين الطَبَرىّ، وأبا محمد اليافعىّ، ونجمَ الدين الأَصْفُونىّ[2].

وحججت فى تلك السنة . ثم سافرت مع الركب الشامىّ إلى طَيْبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزرت قبره المكرم الطيب ، زاده الله طيبا

(١) بلد بين ينبع ومصر ، قاموس .
(٢) أصفون ، بضم الفاء وسكون الواو ونون . قرية بالصعيد الأعلى على شاطئ غربى النيل . ياقوت .

وتشريفا . وصليت فى المسجد الكريم ، طَهَّره الله وزاده تعظيما . وزرت من بالبَقِيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فَرْحُون .

ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العَلَاء وتَبُوك ، ثم إلى بيت المقدس ، ثم إلى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى غَزَّة ثم إلى منازل الرمل. وقد تقدم ذكر ذلك كله. ثم إلى القاهرة . وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين، المتوكل على رب العالمين ، أبا عنان، أيده الله تعالى ، قد ضَمّ الله به نشر الدولة المَرِينيَّة ، وشفى ببركته ، بعد إشفائها ، البلادَ المغربية ، وأفاض الإحسان على الخاص والعام ، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام . فتشوفتِ النفوس إلى المُثول ببابه ، وأمَّلت لثم رِكابه . فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية ، مع ما شَفَّنى من تذكار الأوطان ، والحنين إلى الأهل والخُلَّان ، والمحبة لبلادى التى لها الفضل عندى على البُلْدان .

بلاد بها نيطت علىّ تمائمى * وأول أرض مَسَّ جلدى ترابها

فركبت البحر فى قُرْقُور[1] لبعض التونسيين صغير . وذلك فى صفر سنة خمسين . وسرت حتى نزلت بِجَرْبة . وسافر المركب إلى تونس ، فاستولى العدو عليه . ثم سافرت فى مركب صغيرة إلى قابس ، فنزلت فى ضيافة الأخوين الفاضلين أبى مَرْوان وأبى العباس ابنى مكىّ ، أميرى جَرْبة وقابس . وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم ركبت فى مركب إلى صَفَاقُس . ثم توجهت فى البحر إلى بُلْيانة ، ومنها سرت فى البر مع العرب، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس ، والعرب محاصرون لها.

---

(١) السفينة ، أو الطويلة ، أو العظيمة . قاموس .

ذكر سلطانها

وكانت تونس فى إيالة مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، علم الأعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد، القانت الأوّاب، الخاشع العادل، أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ناصر دين الإسلام، الذى سارت الأمثال بجوده، وشاع فى الأقطار أثر كرمه وفضله، ذى المناقب والمفاخر، والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل، أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ناصر الإيمان، الشديد السطوة فى ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصالح، أبى يوسف بن عبد الحق، رضى الله عنهم أجمعين، وأبقى الملك فى عَقِبهم إلى يوم الدين.

ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن النايميسىّ، لما بينى وبينه من مَوَدَّات القرابة والبلدية. فأنزلنى بداره، وتوجه معى إلى (المشور). فدخلت (المشور) الكريم، وقبلت يد مولانا أبى الحسن رضى الله عنه. وأمرنى بالقعود فقعدت. وسألنى عن الحجاز الشريف وسلطان مصر، فأجبته. وسألنى عن ابن سيفَرَاجِين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه، وإرادتهم قتله بالاسكندرية، وما لقى من أذيتهم، انتصارا منهم لمولانا أبى الحسن رضى الله عنه. وكان فى مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السَّطِّى[1]، والإمام أبو عبدالله محمد بن الصباغ، ومن أهل تونس قاضيها أبو على عمر بن عبد الرفيع، وأبو عبد الله بن هرون. وانصرفت عن المجلس الكريم. فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع

(١) نسبة إلى (سطّة)، مدينة ساحلية بالمغرب الأقصى. ا هـ من المغرب فى تاريخ إفريقية والمغرب.

القتال ، ومعه الشيوخ الجلّة . فسألنى عن ملك الهند فأجبته عما سأل . ولم أزل اتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتى بتونس، وكانت ستة وثلاثين يوما . ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم ، أبا عبد الله الأبُلّيّ ، وكان فى فراش المرض . وباحثنى فى كثير من أمور رحلتى .

ثم سافرت من تونس فى البحر ، فوصلنا إلى جزيرة سَرْدَانيَّة من جزر الروم ، ولها مرسى عجيب عليه خُشب كبار دائرة به . وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا بإذن منهم . وفيها حصون دخلنا أحدها ، وبه أسواق كثيرة . ونذرت لله تعالى ، إن خلّصنا الله منها ، صوم شهرين متتابعين ، لأننا عرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا . ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تَنَس ثم إلى مازُونَة ثم إلى مُسْتَغانم ثم إلى تلِمسان . ثم سافرنا منها. فبينما نحن بقرب أَزْغَنْغَان ، إذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان ، وكان معى الحاج ابن قَريعات الطنّجى ، وأخوه محمد المستَشْهَد بعد ذلك فى البحر . فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما . ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله . ووصلت إلى مدينة تَازَا ، وبها تعرفت خبر موت والدتى بالوباء رحمها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازا ، فوصلت يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة إلى حضرة فاس ، فَمَثَلْت بين يدى مولانا الأعظم ، الإمام الأكرم ، أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، أبى عِنان ، وصل الله عُلُوّه ، وكَبَتَ عدوه . فأنستنى هيبته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحِلمه حِلم ملك الروم ، ودينه دين ملك تُرْكستان ، وعلمه علم ملك الجاوة .

وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة ، والمآثر الكثيرة ، أبو زيّان بن وَدْرار . فسألني عن الديار المصرية ، إذ كان قد وصل إليها ، فأجبته عما سأل . وغمرني من إحسان مولانا أيده الله تعالى ما أعجزني شكره ، والله وليّ مكافأته . وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة ، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البُلْدان : لأن الفواكه بها متيسرة ، والمياه والأقوات غير متعذرة . وقلَّ إقليم يجمع ذلك . ولقد أحسن من قال :

الغرب أحسن أرض ولى دليل عليه
البدر يُرْقَب منه والشمس تسعى إليه

ودراهم الغرب صغيرة ، وفوائدها كثيرة . وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ، ظهر لك الحق فى ذلك ، ولاح فضل بلاد المغرب . فأقول : إن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمانى عشرة أوقية بدرهم نُقْرة (١) . والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب . وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ، ثمانى عشرة أوقية بدرهمين . وهما ثلث النقرة . وأما السمن فلا يوجد بمصر فى أكثر الأوقات . والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يلتفت إليه بالمغرب ، ولأن أكثر ذلك العَدَس والحِمّص ، يطبخونه فى قُدور راسيات (٢) ، ويجعلون عليه الشَّيْرَج (٣) والبِسِلّا (٤) ، وهو صنف من الجُلُبّان ، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت . والقرع يطبُخونه ويخْلطونه باللبن . والبقْلة الحمقاء (٥) يطبخونها كذلك . وأعلى أغصان اللوز يطبخونها

(١) النقرة القطعة المذابة من الذهب أو الفضة . فالمراد درهم من الفضة ذو قيمة خاصة .

(٢) فى القاموس : قدر راسية لا تبرح مكانها لعظمها .

(٣) قال فى شرح القاموس : الشَّيْرَج كصَيْقَل بمعنى السليط وهو دهن السمسم ، معرب .

(٤) البِسِلّا كالترمس أو أقل منه ، لغة مصرية . شرح القاموس .

(٥) هى الرجلة . ويقال لها أيضا : بقلة الحمقاء .

ويجعلون عليها اللبن . والقُلْقاس يطبخونه . وهذا كله متيسر بالمغرب . لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزُّبْد والعسل وسوى ذلك .

وأما الخُضَر فهى أقل الأشياء ببلاد مصر . وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام . وأما العنب فإذا كان رخيصا بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نُقْرة . ورطلهم ثِلثا عشرة أُوقِيّة . وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة ؛ إلا أنها ببلاد الغرب أرخص منها ثمنا : فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة . ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية . وإذا رَخُصَ ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة . وأما الرمان والسَّفَرْجَل فتباع الحبة منه بثمانية فُلوس ، وهى درهم من دراهم المغرب . وأما الخَضَر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع فى بلادنا بالدرهم الصغير . وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة .

فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا ، وأكثرها خيرات ، وأعظمها مرافق وفوائد . ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا إلى شرفها ، وفضلا إلى فضلها ، بإمامة مولانا أمير المؤمنين ، الذى مدّ ظلال الأمن فى أقطارها ، وأطلع شمس العدل فى أرجائها ، وأفاض سحاب الإحسان فى باديتها وحاضرتها ، وطهرها من المفسدين ، وأقام بها رسوم الدنيا والدين. وأنا أذكر ما عاينته وتحقّقته من عدله وحلمه وشجاعته ، واشتغاله بالعلم وتفقّهه ، وصدقته الجارية ، ورفع المظالم .

ذكر بعض فضائل مولانا أيّده الله

أما عدله فأشهر من أن يُسْطر فى كتاب . فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة بالمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء ، وتقديمه النساء لضعفهن ، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نَوْبتها نودى باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين ، يكلمها دون وَسَاطة . فإن كانت متظلمة عجّل إنصافها ، أو طالبة إحسان وقع إسعافها . ثم إذا صُلِّيت العصر قرئت قصص الرجال ، وفَعَل مثل ذلك فيها . ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة، فيردّ إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية . وهذا شىء لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام ، ويظهر فيه مثل هذا العدل : فإن ملك الهند عيَّن بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس ، وتلخيصها ورفعها إليه ، دون حضور أربابها بين يديه .

وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب : فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه ، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلا من وَثِق بربه ، وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى (والعافين عن الناس) . قال ابن جُزَىّ : من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله ، أنى منذ قدومى على بابه الكريم فى آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد ، وهو أوائل عام سبعة وخمسين ، لم أشاهد أحدا أمر بقتله إلا من قتله الشرع فى حد من حدود الله تعالى ، قِصاص أو حرب ، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف . ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الأعصار ، ولا فيما تباعد من الأقطار .

وأما شجاعته فقد عُلِم ما كان منه فى المواطن الكريمة من الثبات والإقدام ، مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم . ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان . وذِكرُ ذلك عند سلطانهم ، فقال : هكذا وإلا فلا . قال ابن جُزَىّ : لم يزل الملوك الأقدمون يتفاخرون بقتل الآساد وهزائم الأعادى . ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد ، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بِحَوْز سَلا(١) ، وتحامته الأبطال ، وفرت أمامه الفُرْسان والرجال ، برز إليه مولانا أيده الله ، غير مُحْتَفِل به ، ولا متهيِّب له ، فطعنه بالرمح بين عينيه طعنة خرَّبها صريعا لليدين وللفم .

وأما هزائم الأعادى فإنها اتفقت للملوك بثُبوت جيوشهم ، وإقدام فُرْسانهم ، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال . وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس ، وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل . فعند ذلك وقع الرعب فى قلوب الأعداء ، وانهزموا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والعاقبة للمتقين .

وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يَعْقِد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح . ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم . فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفروع مذهب مالك رضى الله عنه ، وكتب المتصوِّفة . وفى كل علم منها له القِدْح المُعَلَّى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقى نُكَته الرائقة من حفظه . وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

---

(١) سلا : مدينة بأقصى المغرب ، وحوزها ما يجاورها .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم هـذه النهاية : فقد رأيت ملك الهند يُتَذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على مذهب الشافعى خاصة . وكنت أعجب من ملازمة ملك تُرُكستان لصلاتى العشاء الآخرة والصبح فى الجماعة ، حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله للصلوات كلها فى الجماعة ، ولقيام رمضان . والله يختص برحمته من يشاء .

قال ابن جُزَىّ : لو أن عالما ليس له شغل إلا بالعلم ليلا ونهارا ، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله فى العلوم ، مع اشتغاله بأمور الأمة ، وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية ، ومباشرته من حال ملكه مالم يباشره أحد من الملوك ، ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين . ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان ، إلا جلاّ مُشْكِلَها ، و باحث فى دقائقها ، واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مُغْلَقاتها .

ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التَّصَوُّفى ، ففهم إشارات القوم(١) وتخلق بأخلاقهم ، وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته ، وشفقته على رعيته ، ورفقه فى أمره كله . وأعطى الآداب حظا جزيلا من نفسه ، فاستعمل أحسنها منزعا ، وأعظمها موقعا . وصارت(٢) عنه الرسالة الكريمة والقصيدة ، اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة ، روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنا . وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ، ولا رام إدراكه .

---

(١) هم الصوفيون .

(٢) يظهر أنه محرف عن (صدرت) .

ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى ، وأحاط علما بمحصولها ، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التى فطره عليها ، وجمع له بين الطبيعى والمكتسب منها. وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده ، لإطعام الطعام للوارد والصادر ، فذلك مالم يفعله أحد من الملوك ، غير السلطان أتابك أحمد . وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم ، والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت .

قال ابن جزى : اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات أمورا لم تخطر فى الأوهام ، ولا اهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام . ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضا . ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به . ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده . ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء فى عيد الأضحى . ومنها التصدق بما يجتمع فى مجَابِى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان ، إكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه . ومنها إطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم ، واجتماعهم لإقامة رسمه. ومنها صدقته على الزَّمْنى [1] والضعفاء يقيمون بها أَوَدَهم. ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطَّنافِس [2] الوَثِيرة والقطائف [3] الجياد . وتلك مَكْرُمة لايعلم لها نظير. ومنها بناء المارَسْتانات فى كل بلد من بلاده ، وتعيين الأوقاف الكثيرة لِمؤَن المرضى ، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف فى طِبِّهم . إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر. كافأ الله أياديه وشكر نعمه .

---

(١) جمع زمين وهو ذو العاهة .

(٢) جمع طِنْفِسه وهى البساط .

(٣) جمع قطيفه : دثار مخمل .

وأما رفعه للمظالم عن الرعية، فمنها الرُّتَب[١] التى كانت تؤخذ بالطرقات : أمر أيده الله بمحو رسمها وكان لها مَجْبىً عظيم ، فلم يلتفت إليه . وماعند الله خير وأبقى . وأما كفه أيدى الظُّلّام فأمر مشهور . وقدسمعته أيده الله يقول لعماله : لاتظلموا الرعية . ويؤكدعليهم فى تلك الوصية . قال ابن جُزَىّ : ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلا رفعه التضييف[٢] ، الذى كان عمال الزكاة وولاة البلاد يأخذونه من الرعايا ، لكفى ذلك أثرا فى العدل ظاهرا ، ونورا فى الرفق باهرا . فكيف وقد رفع من المظالم ، وبسط من المرافق مالايحيط به الحصر .

وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم من الرفق بالمسجونين ، ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم ، ما هو اللائق بإحسانه ، والمعهود من رأفته . وشمِل الأمر بذلك جميع الأقطار . وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوْره من القضاة والحكام مافيه زجر الظلمة وردع المعتدين . وما فعله فى معاونة أهل الأندلس على الجهاد ، ومحافظته على إمداد الثغور بالأموال والأقوات والسلاح ، وفَتّه فى عَضُد العدو ، بإعداد العُدَد وإظهار القوة ، فذلك أمر شهير لم يغب علمه عن أهل المغرب والمشرق ، ولا سبق إليه أحد من الملوك .

قال ابن جزى : حسب المتشوِّف إلى عِلم ماعند مولانا أيده الله من سِدَاد[٣] القطر للسلمين ، ودفاع القوم الكافرين ، مافعله فى فداء مدينة طَرابُلُس إفريقية : فإنها لما استولى العدو عليها ، ومدّ يد العدوان إليها ، ورأى أيده

---

(١) يريد المكوس . والتسمية غير عربية .

(٢) مصدر ضيفه أى أنزله عليه ضيفا . والمراد بالتضييف هنا ما يأخذه العامل لنفسه زيادة على ما يأخذه للحكومة ، تسمية اصطلاحية .

(٣) إعداد العُدّة لحماية البلاد من الأعداء ، بكسر السين .

الله أن بعث الجيوش لِنُصْرتها لايتأتى لبعد الأقطار ، كتب إلى خدامه بلاد إفريقية أن يَفْدوها بالمال ، فَفُديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين. فلما بلغه خبر ذلك قال : الحمد لله الذى استرجعها من أيدى الكفار بهذا النزر اليسير . وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقية ، وعادت المدينة إلى الإسلام على يده . ولم يخطر فى الأوهام أن أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا ، حتى جاء بها مولانا أيده الله مَكْرُمة بعيدة ، ومَأْثَرة فائقة ، قلّ فى الملوك أمثالها ، وعزّ عليهم مِثالها . ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله فى الجهاد إنشاؤه الأجفان [1] بجميع السواحل ، واستكثاره من عُدَد البحر . وهذا فى زمان الصلح والمهادنة ، إعدادا لأيام الغَزَاة ، وأخذا بالحزم فى قطع أطماع الكفار . وأكد ذلك بتوجهه أيده الله بنفسه إلى جبال جاناتة فى العام الفارط ، ليباشر قطع الخشب للإنشاء ، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء ، ويتولّى بذاته أعمال الجهاد ، مترجيا ثواب الله تعالى ، وموقنا بحسن الجزاء .

(رجع) ومن أعظم حسناته أيده الله عِمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء ، دار ملكه العلىّ . وهو الذى امتاز بالحسن وإتقان البناء ، وإشراق النور وبديع الترتيب ، وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر ، مما يجاور قَصَبة فاس . ولا نظير لها فى المعمورة اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن وضع . ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق وخُراسان ما يشبهها ، وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحِمّص خارج المدينة البيضاء ، فلا مثل لها أيضا فى عجيب وضعها ، وبديع صنعها . وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية

(١) المراكب الكبار للحرب كما تقدم . وكان ينبغى أن يقول : الجَفَنات أو الجفان ، لأن المفرد جفنة على التشبيه فيما يظهر . وقد سبق فى الحواشى كلام كهذا . ويظهر من كلام المؤلف أنه يعتبر أن المفرد (جفن) ولا وجه له فيما نرى .

(سَرِياقُوس) التى بناها الملك الناصر . وهذه أبدع منها وأشد إحكاما و إتقانا .
والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ، ويكافئ فضائله المُنِيفة، ويديم للإسلام والمسلمين أيامه، وينصر ألويته المُظَفَّرة وأعلامه .

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول : ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم ، وعمنى فضل إحسانه العميم ، قصدت زيارة قبر الوالدة ، فوصلت إلى بلدة طَنجة وزرتها ، وتوجهت إلى مدينة سَبْتَة ، فأقمت بها أشهرا . وأصابنى بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافانى الله . فأردت أن يكون لى حظ من الجهاد والرِباط . فركبت البحر من سَبْتة ، فوصلت إلى بلاد الأندلس ، حرسها الله تعالى ، حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب مذخور للقيم والظاعن . وكان ذلك إثْر موت طاغية الروم ألفُونْس ، وحصاره الجبل عشرة أشهر ، وظنه أنه يستولى على ما بقى من بلاد الأندلس للسلمين. فأخذه الله من حيث لم يحتسب . ومات بالوباء الذى كان أشدَّ الناس خوفا منه .

وأول بلد شاهدته من البلاد الأندلسية جبل الفتح . فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السِراج الرُّنْدىّ ، وقاضيه عيسى البربرىّ . وعنده نزلت . وتطوّفت معه على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ، وأعدَّ فيه من العُدَد ، وما زاد على ذلك مولانا أيده الله . ووددت لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر .

قال ابن جُزَىّ : جبل الفتح هو مَعْقِل الإسلام ، المعترض شَجًا فى حُلوق عبدة الأصنام ، حسنة مولانا أبى الحسن رضى الله عنه المنسوبة إليه ، وقُرْبته التى قدّمها نورا بين يديه . محل عُدَد الجهاد ، ومقر آساد الأجناد ، والثغر الذى افترَّ عن نصر الإيمان ، وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان . ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر . وبه نزل طارق بن زياد مولى

موسى بن نُصَيْر عند جَوازه . فنسب إليه ، فيقال له : جبل طارق ، وجبل الفتح ، لأن مبدأه كان منــه . وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية إلى الآن ، تسمى بسور العرب . شاهدتها أيام إقامتى به عند حصار الجزيرة ، أعادها الله .

ثم فتحه مولانا أبو الحسن ، رضوان الله عليه ، واسترجعه من أيدى الروم ، بعــد تملكهم له عشرين سنة ونَيِّفا . وبعث إلى حصــاره ولده الأمير الجليــل أبا مالك ، وأيده بالأموال الطــائلة والعساكر الجرَّارة . وكان فتحه بعد حصار ســتة أشهر . وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة . ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه . فبنى به مولانا أبو الحسن رحمه الله تعالى عليــه المأْثَرة العظمى بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا ، تهدّم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه . وبنى به دار الصناعة ، ولم يكن به دار صــنعة . وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء ، الآخذ من دار الصنعة الى القَرْمَدَة(١) . ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه ، وزاد بهــا بناء السور بطرف الفتح . وهو أعظم أسواره غَناء وأعمها نفعا . وبعث إليه العُدد الوافرة ، والأقوات والمرافق العامة . وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الإخلاص . ولمــا كان فى الأشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين ، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله ، وثمرة توكله فى أموره على الله ، وبان مصداق ما اطَّرد له من السعادة الكافية . وذلك أنّ عامِل الجبل الخائن ، الذى خُتم له بالشقاء ، عيسى بن الحسن بن أبى مِنْديل ، نزع يده المغلولة عن الطاعة ، وفارق عصْمة الجماعة ، وأظهر النفاق ، وجمح فى الغــدر والشقاق ، وتعاطى ما ليس من رجاله ، وعَمِىَ عن مبدأ حاله السيئ ومآله . وتوهم الناس أنــ ذلك مبدأ فتنة تنفق على

(١) المراد بالقرمدة مصنع القرميد .

إطفائها كرائم الأموال ، ويستعد لاتقائها بالفُرْسان والرجال . فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هـذا التوهم ، وقضى صدق يقينه بانخراق العـادة في هذه الفتنة . فلم تكن إلا أيام يسيرة حتى راجع أهل الجبل بصائرهم ، وثاروا على الثائر ، وخالفوا الشقّ المخالف ، وقاموا بالواجب من الطاعة ، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له فى النفاق ، وأُتى بهما مصفَّدين إلى الحضرة العالية ، فنفذ فيهما حكم الله فى المحاربين ، وأراح الله من شرهما .

ولما خَمَدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن فى حساب أهلها ، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد ، المبارك الأرشد ، أبا بكر المدعوّ من السِمات السلطانية بالسعيد ، أسعده الله تعالى . وبعث معه أنجاد الفُرْسان ، ووجوه القبائل وكُفاة الرجال ، وأدرّ عليهم الأرزاق ، ووسّع لهم الإقطاع ، وحرّر بلادهم من المغارم ، وبذل لهم جزيل الإحسان .

وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكله ، فمثّل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحِصْنه وأبوابه ، ودار صنعته ومساجده ، ومخازن عُدده وأَهْرَاء(١) زرعه ، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء . فصنع ذلك ، فكان شكلا عجيبا ، أتقنه الصناع إتقانا ، يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المِثال . وما ذلك إلا لتشوُّقه أيده إلى استطلاع أحواله ، وتهمُّمه بتحصينه وإعداده . والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه ، ويحقق ما يؤمله فى الفتح .

وتذكرت حين هذا التقييد قول الأديب البارع المُفْلِق ، أبى عبد الله محمد ابن غالب الرُّصافى البَلَنْسى رحمه الله ، فى وصف هذا الجبل المبارك ، من قصيدته الشهيرة فى مدح عبد المؤمن بن على التى أولها :

(١) جمع هُرْى — وهو البيت العظيم تجمع فيه غلات السلطان .

لو جئت نار الهدى من جانب الطُّور قَبَسْتَ ما شئت من علم ومن نورِ

وفيها يقول فى وصف الجبل وهو من البديع الذى لم يُسْبق إليه ، بعد وصفه السفن وجَوَازها :

حتى رمتْ جبل الفتحين مِنْ جبلٍ معظَّم القدر فى الأجبال مذكورِ
من شامخ الأنف فى سَحْنائه(١) طَلَسٌ(٢) له من الغَيْم جَيْبٌ غير مَزْرُورِ
تُمْسِى النجوم على تكليل(٣) مَفْرِقِه فى الجو حائمةً مثل الدنانير
فربما مسحتْه من ذوائبها بكل فَضْلٍ على فَوْدَيه(٤) مجرورِ
وأَدْرَدٍ من ثناياه بما أخذت منه معاجم أعواد الدهاريرِ(٥)
مُحَنَّكٍ حَلَبَ الأيام أَشْطُرَها(٦) وساقها سَوْق حادى العِيرِ للعِيرِ(٧)
مُقَيَّد الخطْو جوّال الخواطر فى عجيب أمريْه من ماض ومنظورِ(٨)
قد واصل الصمت والإطراق مُفْتكرا بادى السكينة مُعْفَرّ الأساريرِ(٩)

---

(١) السحناء هنا اللون .

(٢) الغبرة إلى السواد .

(٣) إلباسه الإكليل وهو التاج .

(٤) الفود معظم شعر الرأس مما يلى الأذن .

(٥) الأدرد ذاهب الأسنان . والثنية الطريق فى الجبل . وهى أيضا إحدى الثنايا الأربع فى مقدم الفم . والمعاجم جمع معجم ، من عجم العود إذا عضه بأسنانه ليرى مقدار صلابته . والدهارير الأزمان الماضية ، لا واحد له .

(٦) مر به خيرها وشرها .

(٧) حادى العير سائقها . والعير الإبل التى تحمل الميرة .

(٨) المنظور المنتظر .

(٩) أسارير جمع أسرار وأسرار جمع سَرَر ، وأسارير الجبهة خطوطها .

كأنه مُكْمَدٌ مما تَعَبَّدَهُ خوفُ الوعيدين من دكٍّ وتسييرِ[1]
أخلِق به وجبالُ الأرض راجفةٌ أن يطمئن غدا من كل محذور

ثم استمر فى قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علىّ .

قال ابن جُزَىّ : ولنعد إلى كلام الشيخ أبى عبد الله ، قال : ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رُنْدَة ، وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا . وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكرىّ ، وقاضيها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ولقيت بها الفقيه القاضى الأديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المُنْتَشاقَرِىّ . وأضافنى بمنزله. ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشَّنْدَرُخ ، المتوفى بعد ذلك بمدينة سَلَا من بلاد المغرب . ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصفّار وسواه . وأقمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت منها إلى مدينة مَرْبَلَة ، والطريق فيما بينهما صعب شديد الوُعُورَة . ومربلة بُلَيْدَة حسنة خِصْبة . ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مَالَقَة ، فأردت التوجه فى صحبتهم . ثم إن الله تعالى عصمنى بفضله ، فتوجهوا قبلى فأُسروا فى الطريق ، كما سنذكره . وخرجت فى إثرهم ، فلما جاوزت حَوْز مربلة ودخلت فى حَوْز سُهَيْل ، مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق . ثم مررت بقُفَّة سمك مطروحة بالأرض ، فرابنى ذلك وكان أمامى بُرْج الناظور[2] ،

---

(١) الكمدة تغير اللون . يعنى كأن هـذا الجبل تغير لونه من خوفه أن يدك أو يسير ، وذلك يوم القيامة .

(٢) الناظور هو حافظ الكرم والنخل ، وكذا الناطور . ولكن المراد هنا من يشرف من مكان عال لينظر عن بعد . وهو بهذا المعنى غير عربى .

فقلت فى نفسى : لو ظهر هاهنا عدو لانذر به صاحب البرج . ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليها فرسا مقتولا . فبينا أنا هنالك إذ سمعت الصياح من خلفى ، وكنت قد تقدمت أصحابى ، فعدت إليهم فوجدت معهم قائد حصن سُهَيْل ، فأعلمنى أن أربعة (أجفان) للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها إلى البر . ولم يكن (الناظور) بالبرج ، فمر بهم الفرسان الخارجون من مَرْبَلَة ، وكانوا اثنى عشر . فقتل النصارى أحدهم ، وفر واحد وأُسِر العشرة ، وقتل معهم رجل حَوَّات ، وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالأرض .

وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضعه ، ليوصلنى منه إلى مَالَقَة . فبت عنده بحصن الرابطة ، والأجفان المذكورة مُرْساة عليه . وركب معى بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة ، إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانيـة أرطال بدرهم صغير . ورمانها الياقوتى لا نظير له فى الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحْوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . قال ابن جُزَىّ : وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالَقى فى قوله ، وهو من مليح التجنيس :

مالقة حييتَ ياتينهـا فالفلك من أجلكَ يأتينها
نهى طبيبي عنكَ فى علةٍ ما لطبيبى عن حياتى نهى

(رجع) وبمالقة يصنع الفَخار المذهَّب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد . ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لا نظير له فى الحسن ، فيه أشجار النَّارَنْج البعيدة[1] . ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبى جعفر ابن خطيبها ولىّ

---

(١) العالية .

الله تعالى ابى عبد الله الطُّنْجالى ، قاعدا بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس ، يجمعون مالا برسم فِداء الأُسارى الذين تقدم ذكرهم . فقلت له : الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم . وأخبرته بما اتفق لى بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث إلىّ بالضيافة ، رحمه الله .

ثم سافرت منها إلى مدينة بَلِّش ، وبينهما أربعة وعشرون ميلا . وهى مدينة حسنة بها مسجد عجيب ، وفيها الأعناب والفواكه والتين ، كمثل ما بمالقة . ثم سافرنا منها إلى الحَمَّة[1] وهى بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء ، وبها العين الحارة على ضِفَّة واد بها . وبينها وبين البلد ميل أو نحوه . وهنالك بيت لاستحمام الرجال ، وبيت لاستحمام النساء .

ثم سافرت منها إلى مدينة غَرْناطة ، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها . وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا ، يخترقه نهر شَنِّيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة . والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . ومن عجيب مواضعها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين ، لا مثل لها بسواها . قال ابن جزىّ : لولا خشيتى أن أنسب إلى العَصَبِيَّة لأطلت القول فى وصف غرناطة ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه . ولله در شيخنا أبى بكر محمد ابن أحمد بن شِيرين البُسْتىّ نزيل غرناطة ، حيث يقول :

رَعَى الله من غرناطة مُتبوَّأً ... يسر حزينا او يُجير طَرِيدا
تبرَّمَ منها صاحبي عند ما رأى ... مسارحها بالثلج عُدْنَ جَليدا
هى الثغر صان الله من أَهَلَّتْ به[2] ... وما خَيْر ثغر لا يكون بَرُودا

(١) الحمة : العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى اه ياقوت . سميت به البلدة للعين الحارة التى بها .

(٢) أهلت به : قالت له : أهلا .

ذكر سلطانها

وكان ملك غَرْناطة فى عهد دخولى إليها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن السلطان أبى الوليد إسماعيل بن فَرَج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر . ولم ألقه بسبب مرض كان به . وبعثت إلىّ والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقتُ بها . ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها ، منهم قاضى الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسينى السَّبْتى ، ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البَيَّانى ، ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لُبّ . ومنهم قاضى الجماعة ، نادرة العصر وطُرْفة الدهر ، أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السُّلَمى البَلَفِيقى ، قدم عليها من المَرِيّة فى تلك الأيام ، فلقيته فى بستان الفقيه أبى القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبى عبد الله بن عاصم . وأقمنا هنالك يومين وليلة .

قال ابن جُزَىّ : كنت معهم فى ذلك البستان ، ومتّعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة . وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة . منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن ، أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجُذَامىّ . وهذا الفتى أمره عجيب ، فإنه نشأ بالبادية ، ولم يطلب العلم . ثم إنه نبغ فى الشعر الجيد ، الذى يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة ، مثل قوله :

يا من اختار فؤادى منزلًا ... بابه العينُ التى ترمُقه
فتح البابَ سهادى بعدكمْ ... فابعثوا طَيْفكمو يُغلقهُ

(رجع) ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها ، الفقيه أبا علىّ عمر ابن الشيخ الصالح الولىّ ، أبى عبد الله محمد بن المحروق. وأقمت أياما بزاويته التى بخارج غرناطة ، وأكرمنى أشد الإكرام . وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة ، المعروفة برابطة العُقاب . والعقاب جبل مُطلّ على خارج غرناطة ، وبينهما نحو ثمانية أميال . وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم .

ثم رحلت من غرناطة إلى الحَمّة ، ثم إلى بَلِّش ، ثم إلى مَالَقة ، ثم إلى حصن ذَكْوان ، وهو حصن حسن كثير المياه والأشجار والفواكه . ثم سافرت منه إلى رُنْدَة ، ثم إلى قرية بنى رِيَاح ، فأنزلنى شيخنا أبو الحسن علىّ بن سليمان الرِيَاحى ، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان ، يطعم الصادر والوارد . وأضافنى ضيافة حسنة . ثم سافرت إلى جبل الفتح . وركبت البحر فى الجفن[1] الذى جُزْت فيه أولا . فوصلت إلى سَبْتَة . ثم سافرت منها إلى أصيلا ، وأقمت بها شهورا . ثم سافرت منها إلى مدينة سَلَا . ثم سافرت من سَلَا فوصلت إلى مدينة مَرّاكُش ، وهى من أجمل المدن ، فسيحة الأرجاء ، متسعة الأقطار ، كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة ، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكُتُبِيّين . وبه الصَّوْمَعة الهائلة العجيبة ، صعدتها وظهر لى جميع البلد منها ، وقد استولى عليه الخراب ، فما شبهته إلا ببغداد ، إلا أن أسواق بغداد أحسن . وبمَرّاكُش المدرسة العجيبة ، التى تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة . وهى من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبى الحسن ، رضوان الله عليه . قال ابن جُزَىّ : فى مَرّاكُش يقول قاضيها التاريخى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوْسى :

لله مراكش الغرّاء مِنْ بلدٍ ... وحبذا أهلها السادات من سَكَنِ
إن حلّها نازح الأوطان مغتربٌ ... أسلَوْه بالأنس عن أهل وعن وطنِ
بين الحديث بها أو العِيان لها ... يَنْشا التحاسدُ بين العين والأذنِ

---

(١) تقدم الكلام على هذا اللفظ فى الحواشى .

(رجع) ثم سافرنا من مَرَّاكُش فى صحبة الرِكاب العلىّ، رِكاب مولانا أيده الله، فوصلنا إلى مدينة سَلَا، ثم إلى مدينة مِكْنَاسة العجيبة الخَضِرة النَّضْرة، ذات البساتين والجنات، المحيطة بها من جميع نواحيها. ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى، فودعت بها مولانا أيده الله. وتوجهت للسفر إلى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سِجِلْماسة، وهى من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب. وتشبهها مدينة البصرة فى كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب. ونزلت منها عند الفقيه أبى محمد البُشْرِىّ، وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قَنْجَنْفُو من بلاد الصين، فأكرمنى غاية الإكرام، واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر. ثم سافرت فى غُرَّة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين، فى رُفْقة مقدَّمها أبى محمد يَنْدَكان المَسُّوفِى رحمه الله. وفيها جماعة من تجار سِجِلْماسة وغيرهم. فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تَغَازَا، وهى قرية لاخير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسُقُفُها من جلود الجمال. ولا شجر بها، وإنما هى رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه فى الأرض، فيوجد منه ألواح ضِخام متراكبة، كأنها قد نُحِتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مَسُّوفة الذين يَحْفِرون على الملح. ويتعيشون بما يُجْلب إليهم من تمر دَرْعة وسِجِلْماسة، ومن لحوم الجمال. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح. وبالملح يتصارف السودان كما يُتَصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعا ويتبايعون به. وقرية تَغَازَا على حقارتها يُتَعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التِبْر. وأقمنا بها عشرة أيام فى جِهد، لأن ماءها زُعاق[1]، وهى أكثر المواضع ذبابا. ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها، وهى مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا فى النادر. ووجدنا نحن بها ماء كثيرا فى غُدْران أبقاها المطر. ولقد وجدنا فى بعض الأيام غديرا بين تلّين من

(١) ملح.

بجارة ماؤه عذب ، فَرَوِينا منه وغسلنا ثيابنا . وكنا فى تلك الأيام نتقـدم أمام القافلة ، فإذا وجدنا مكانا يصلح للرَّعْى رعينا الدواب به . ولقد لقينا قافلة فى طريقنا ، فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم ، فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل ، وعليه ثيابه وفى يده سوط . وكان المـاء على نحو ميل منه . ثم وصلنا إلى تاسَرَهْلا ، وهى أَحْساء[1] ماء تنزل القوافل عليها ، ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ، ويصلحون أسقيتهم ويملئونهـا بالمـاء ، ويخيطون عليهـا التلاليس[2] خوف الريح ، ومن هنالك يُبعث التكشيف .

ذكر (التكشيف)

والتكشيف اسم لكل رجل من مَسُّوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم إلى (إيوالاتن) بكتب الناس إلى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم بالمـاء مسيرة أربع . ومن لم يكن له صاحب بإيوالاتن ، كَتَب إلى من شُهِرَ بالفضل من التجار بها ، فيشاركه فى ذلك . وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء ، فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة ، فيهلك أهلها أو الكثير منهم . وتلك الصحراء كثيرة الشياطين ، فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته ، حتى يضل عن قصده فيهلك[3] ، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، وإنما هى رمال تَسْفيها الريح، فترى جبالا من الرمل فى مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه . والدليل هنالك مَنْ كثر تردده وكان له قلب ذكىّ . ورأيت من العجائب أن الدليل الذى كان لنا أعور العين الواحدة ، مريض الثانية . وهو أعرف الناس بالطريق .

---

(١) جمع حَسْى وهو سهل من الأرض يستنقع فيه المـاء .

(٢) جمع تِلِّيسة ، وعاء يسوى من الخوص .

(٣) هكذا اعتقادهم . و يظهر أنه نشأ عندهم من كثرة ما فى هذه الصحراء من المخاوف .

واكترينا التكشيف فى هـذه السفرة بمائة مثقال من الذهب . وهو من مَسُّوفة . وفى ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنـا ، فاستبشرنا بذلك . وهذه الصحراء منيرة مُشْرِقة ، ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس . وهى آمنة من السُّراق . والبقر الوحشية بها كثيرة ، يأتى القطيع منها حتى يقرب من الناس ، فيصطادونه بالكلاب والنُّشَّاب . لكن لحمها يولّد أكله العطش ، فيتحاماه كثير من الناس لذلك . ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد فى كروشها المـاء . ولقـد رأيت أهل مَسُّوفة يعصِرون الكَرِش منها ، ويشربون المـاء الذى فيه . والحيّات أيضا بهذه الصحراء كثيرة .

حكاية

وكان فى القافلة تاجر تِلِمسَانى يعرف بالحـاج زيّان ، ومن عادته أن يقبض على الحيات ويَعْبَث بها ، وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهى . فلما كان ذات يوم ، أدخل يده فى جُحْر ضبٍّ ليخرجه فوجد مكانه حية ، فأخذها بيده ، وأراد الركوب ، فلسعته فى سبّابته اليمنى ، وأصابه وجع شديد . فكُويت يده ، وزاد ألمـه عشىّ النهار . فنحر جملا وأدخل يده فى كرِشه ، وتركها كذلك ليـلة ، ثم تناثر لحم إصبعه ، فقطعها من الأصل . وأخبرنا أهل مَسّوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه . ولو لم تكن شربت لقتلته .

ولمـا وصل إلينا الذين استقبلونا بالمـاء شربت خيلنا . ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عَهِدْنا . وكنا نرحل بعد صلاة العصر ، ونَسْرِى الليل كله ،

وتنزل عند الصباح. وتأتى الرجال من مَسُّوفة و بَرْدامة وغيرهما بأحمال الماء للبيع.
ثم وصلنا إلى مدينة (إيوالاتن) فى غرة شهر ربيع الأول ، بعد سفر شهرين كاملين من سِجِلْماسة . وهى أول عِمالة السودان ، ونائب السلطان بها فَرْبا حسين . وفَرْبا معناه النائب . ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رَحَبة ، وتكفَّل السودان بحفظها . و توجهوا إلى الفَرْبا ، وهو جالس على بساط فى سَقِيف ، وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقِسِىّ ، وكبراء مَسُّوفة من ورائه . ووقف التجار بين يديه ، وهو يكلمهم بِتُرجمان على قربهم منه احتقارا لهم . فعند ذلك ندِمتُ على قدومى بلادهم ، لسوء أدبهم واحتقارهم للا بيض . وقصدت دار ابن بَدَّاء ، وهو رجل فاضل من أهل سَلاَ ، كنت كتبت له أن يكترى لى دارا ففعل ذلك .

ثم إن مُشْرِف إيوالاتن ، ويسمى مَنْشَا جُو ، استدعى من جاء فى القافلة إلى ضيافته ، فأبيت حضور ذلك . فعزم الأصحاب علىّ أشد العزم ، فتوجهت فيمن توجه . ثم أُتِى بالضيافة ، وهى جَرِيش مخلوط بيسير عسل ولبن ، قد وضعوه فى نصف قرعة صيَّروه شِبه الجفنة . فشرب الحاضرون وانصرفوا . فقلت لهم : ألهذا دعانا الأسود ؟ قالوا : نعم ، وهو الضيافة الكبيرة عندهم . فأيقنت حينئذ أن لاخير يُرتجى منهم . وأردت أن أسافر مع حُجَّاج إيوالاتن . ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم . وكانت إقامتى بإيوالاتن نحو خمسين يوما . وأكرمنى أهلها وأضافونى . وبلدة إيوالاتن شديدة الحر. وفيها يسير نُخَيلات يزدرعون فى ظلالها البِطيخ . وماؤهم من أحساء بها . ولحم الضأن كثير بها . وثياب أهلها حِسان مِصْرية . وأكثر السكان بها من مَسُّوفة . ولنسائها الجمال الفائق . وهنّ أعظم شأنا من الرجال .

ذكر مَسُّوفة الساكنين بإيوالاتن

وشأن هؤلاء عجيب ، وأمرهم غريب . فأما رجالهم فلا غَيْرة لديهم . ولا يُنْسب أحدهم إلى أبيه، بل ينتسب لخـاله . ولا يرث الرجلَ إلا أبناء أخته دون بنيه . وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا، إلا عند كفار بلاد المُـلَيْبار من الهنود . وأما هؤلاء فهم مسلمون محـافظون على الصـلوات ، وتعلم الفقة وحفظ القرآن . وأما نسـاؤهم فلا يحتشـمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج . ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها .

ولـما عزمت على السفر إلى (مالِّى) و بينها و بين إيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمُجِد ، اكتريت دليلا من مَسُّوفة ، وخرجت فى ثلاثة من أصحابى . وتلك الطريق كثيرة الأشجار . وأشجارها عادِيّة ضخمة ، تستظل القافلة بظل الشجرة منها . و بعضها لا أغصان لها ولا ورق ، ولكن ظل جَسَدِها بحيث يستظل به الإنسان. و بعض تلك الأشجار قد استأسن داخلُها، واستنقع فيه ماء المطر ، فكأنها بئر . و يشرب الناس من المـاء الذى فيها . و يكون فى بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت فى داخلها رجلا حائكا وهو ينْسُج ، فعجبت منه . وفى أشجار هذه الغابة التى بين إيوالاتن ومالِّى مايشبه ثمرة الإجّاص والتفاح والخوخ والمِشْمِش ، وليست بها . وفيها أشجار تثمر شبه الفَقُّوص[1]، فإذا طاب انفلق عن شيء شِبْهِ الدقيق ، فيطبخونه و يأكلونه ، و يباع بالأسواق . و يستخرجون من هذه الأرض حباتٍ كالفول، فيقلونها و يأكلونها. وطعمها كطعم الحِمِّص[2]

(١) انظر صفحة ٣١٨

(٢) يقال فيه : حِمَّص وحِمِّص .

المقلوّ. وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسْفَنج وقلوه (بالغرْتى)، وهو ثمر كالإجّاص شديد الحلاوة . ويُدَقّ عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع : فمنها أنهم يطبخون به ويُسْرجون السُّرُج ، ويقلون به هذا الإسْفَنج ، ويدَّهِنون به ، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطِّحون به الدور كما تُسَطَّح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر ، ويحمل من بلد إلى بلد فى قَرْع كبار ، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القُلَّة ببلادنا . والقرع ببلاد السودان يعظم . ومنه يصنعون الجفان ، يقطعون القرعة نصفين ، فيصنعون منها جفنتين ، وينَقُشونها نقشا حسنا . وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه ، يحملون فرشه وأوانيه التى يأكل ويشرب فيها . وهى من القرع .

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما ، وإنما يحمل قطع الملح وحَلْى الزجاج ، وبعض السِّلَع العِطْرية . وأكثر ما يعجبهم منها القَرَنْفُل والمَصْطَكا . فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النَّبْق ، والأرز (والفُونى) ، وهو كحب الخردل يصنع منه العصيدة ، ودقيق اللُّوبياء. فيشترى منهن ما أحب من ذلك . وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتن ، وصلنا إلى قرية زاغَرِى ، وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ، ويسكن معهم جماعة من البيض .

ثم سرنا من زَاغَرِى ، فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل ، وعليه بلدة كارْسَخُو . والنيل ينحدر منها إلى كَابَرَة ، ثم إلى زاغة. ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالّى . وأهل زَاغَة قدماء فى الإسلام ، ولهم ديانة وطلب للعلم . ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تُنْبُكْتُو ، ثم إلى كَوْكَوْ ، وسنذكرهما ، ثم إلى بلدة مُولِى من بلاد الِليميّين ، وهى آخر عمالة مالّى ، ثم إلى يُوفِى ، وهى من أكبر بلاد السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ، ولا يدخلها

الأبيض من الناس ، لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها . ثم يحدو إلى بلاد النُّوبة ، وهم على دين النصرانية . ثم إلى دُنْقُلة وهى أكبر بلادهم ، وسلطانها يدعى بِابنِ كنز الدين ، أسلم على أيام الملك الناصر . ثم يحدر إلى جنادل ، وهى آخر عمالة السودان ، وأول عمالة أسْوان من صعيد مصر . ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارِب صغير . ولقد نزلت يوما إلى النيل لقضاء حاجة ، فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر ، فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه ، وذكرت ذلك لبعض الناس . فقال : إنما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح ، فحال بينك وبينه .

ثم سرنا من كارْسَخُو ، فوصلنا إلى نهر صَنْصَرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالِّى . وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بالإذن . وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البِيض ، ليكتروا لى دارا . فلما وصلت إلى هذا النهر جُزْت فى (المعدية) ولم يمنعنى أحد ، فوصلت إلى مدينة مالِّى حضرة ملك السودان ، فنزلت عند مقبرتها . ووصلت إلى مَحَلَّة البيض ، وقصدت محمد ابن الفقيه الجُزُولى ، فوجدته قد اكترى لى دارا إزاء داره ، فتوجهت إليها . وجاء صهره الفقيه المقرِئ عبد الواحد بشمعة وطعام ، ثم جاء ابن الفقيه إلىّ من الغد . ولقيت القاضى بمالّى عبد الرحمن ، جاءنى . وهو من السودان : حاج فاضل له مكارم أخلاق . بعث إلى بقرة فى ضيافته . ولقيت الترجمان دُوغَا ، وهو من أفاضل السودان وكبارهم . وبعث إلى بثور . وبعث إلىّ الفقيه عبد الواحد غَرَارتين من (الفُونِى) وقرعة من (الغَرْتِى) . وبعث إلىّ ابن الفقيه الأرز والفونى . وقاموا بحقى أتم قيام . شكر الله حسن أفعالهم .

وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان . فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره . وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عَصيدة تصنع من شيء شِبْه القلقاس ،

يسمى القافى. وهى عندهم مفضَّلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعا مرضى، وكنا ستة، فمات أحدنا . وذهبت أنا لصلاة الصبح فَغُشِىَ علىّ فيها . وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا، فأتى بشىء يسمى (بَيْدَرا)، وهو عروق نبات، وخلطه بالأَنِيسُون والسكر، ولتّه بالماء، فشربته وتقيأت ما أكلته، مع صَفْراء كثيرة . وعافانى الله من الهلاك، ولكنى مرِضت شهرين .

ذكر سلطان مالِى

وهو السلطان مَنْسَا سليمان، ومنسا معناه السلطان، وسليمان اسمه . وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء . واتفق أنى أقمت هـذه المدّة ولم أره بسبب مرضى. ثم صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبى الحسن رضى الله عنه، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب . وحضرت معهم، فأتوا بالربعات[1]، وختم القرآن . ودعوا لمولانا أبى الحسن رحمه الله، ودعوا لمنسا سليمان . ولما فُرِغ من ذلك، تقدمت فسلمت على مَنْسَا سليمان، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى: يقول لك السلطان: اشكر الله . فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها

ولما انصرفت بعث إلى الضيافة، فوُجِّهتْ إلى دار القاضى، وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه، فخرج ابن الفقية من داره مسرعا حافى القدمين، فدخل علىّ وقال : قم، قد جاءك (قُماش) السلطان وهديته .

(1) الربعة أجزاء المصحف الشريف مجموعة فى وعاء أو صندوق، وهى مسمية عرفية . وأصل الربعة جونة العطار، وهى سلة صغيرة مغشاة بالجلد يوضع فيها العطر .

فقمت، وظننت أنها الخلَع والأموال ، فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز ، وقطعة لحِم بقرىّ مقلوة بالغرْتِى ، وقرعة فيها لبن رائب . فعند ما رأيتها ضحكت ، وطال تعجبى من ضعف عقولهم ، وتعظيمهم للشىء الحقير .

ذكر كلامى للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلىّ

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلىّ فيهما شئ من قِبَل السلطان. ودخل شهر رمضان. وكنت فى خِلال ذلك أتردد إلى (المشور)، وأسلم عليه ، وأقعد مع القاضى والخطيب . فتكلمت مع دُوغا التُرجمان ، فقال : تكلم عنده ، وأنا أعبر عنك بما يجب. فجلس فى أوائل رمضان، وقمت بين يديه، وقلت له : إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقِيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر، ولم تُضِفْنى ولا أعطيتنى شيئا . فماذا أقول عنك عند السلاطين ؟ فقال : إنى لم أرك ولا علمت بك . فقام القاضى وابن الفقيه فردّا عليه ، وقالا : إنه قد سلّم عليك ، وبعثت إليه الطعام . فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها ، ونفقة تَجْرِى علىّ . ثم أعطى القاضى والخطيب والفقهاء مالا ، ليلة سبع وعشرين من رمضان ، يسمونه الزكاة . وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مِثْقالا وثلثا ، وأحسن إلىّ عند سفرى بمائة مثقال ذهبا .

ذكر جلوسه بقبته

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من جهة (المشور) طِيقان[1] ثلاثة من الخشب ، مُغَشّاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب، أو هى فضة مذهبة، وعليها ستور (مِلَف)[2] .

(١) جمع طاق ، وهو ماعطف من الأبنية . قاموس .

(٢) سبق فى الحواشى أنه نسيج يشبه مايسمى (الجوخ) عندنا واللفظ بهذا المعنى غير عربى .

فإذا كان يوم جلوسه بالقبة ، رُفِعت الستور فعَلِم أنه يجلس. فإذا جلس أخرج من شُبّاك أحد الطيقان (شرابة) حرير ، قد ربط فيها منديل مصرىّ مرقوم . فإذا رأى الناس المنديل ضُرِبت الأطبال والأبواق . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد ، فى أيدى بعضهم القِسىّ ، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدَرَق . فيقف أصحاب الرماح مِنهم ميْمنَة وميْسرَة . و يجلس أصحاب القِسىّ كذلك ، ثم يؤتى بفرسين مُسْرجين ملُجْمين ومعهما كَبْشان ، يذكرون أنهما ينفعان من العين . وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين ، فيدعون نائبه قَنْجا موسى. وتأتى (الفَرارية) ، وهم الأمراء. و يأتى الخطيب والفقهاء، فيقعدون أمام (السِلحدارية) يَمْنةو يَسْرةفى(المشور). و يقف دُوغا الترجمان على باب (المشور)،وعليه الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه عمامة ذات حَوَاش ، لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفا غِمْده من الذهب ، وفى رجليه الخُفّ والمهاميز . ولا يلبس أحد ذلك اليوم خُفّا غيره، و يكون فى يده رمحان صغيران، أحدهما من ذهب والآخر من فضة ، وسِنَاناهما من الحديد .

ويجلس الأجناد والولاة والفِتْيان وغيرهم فى خارج(المشور)،فى شارع هنالك متسع فيه أشجار . وكل (فَرارىّ) بين يديه أصحابه بالرماح والقِسىّ والأطبال والأبواق ، وأبواقهم من أنياب الفيلة ، وآلات[1] الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، ولها صوت عجيب . وكل فَرَارىّ له كِنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مُشاة وركبان . و يكون بداخل(المشور)تحت الطيقان رجل واقف : فمن أراد أن يكلم السلطان كلّم دُوغا ، و يكلم دوغا ذلك الواقف ، و يكلم الواقف السلطان .

---

(١) معطوف على قوله : بالرماح

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضا فى بعض الأيام (بالمشور) .وهنالك مِصْطَبَة تحت شجرة،لها ثلاث درجات يسمونها (البَنْى) ، تفرش بالحرير وتجعل المخَادّ عليها، ويرفع (الشطر) وهو شبه قبة من الحرير ، وعليه طائر من ذهب على قدر البازى . ويخرج السلطان من بابٍ فى ركن القصر ،وقوسه بيده، وكِنانته بين كتفيه . وعلى رأسه (شاشيّة) ذهب ، مشدودة بِعصابة ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رِقاق ، طولها أزيد من شبر . وأكثر لباسه جُبّة حمراء مُوَبَّرة[1] من الثياب الروميّة التى تسمى المُطَنْفَس . ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر[2] الذهب والفضة . وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح . ويمشى مشيا رويدا ، ويكثر التأنى . وربما وقف ينظر إلى الناس . ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر . وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار[3] .ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين ، فيدعون النائب (والفراريّة)، فيدخلون ويجلسون . ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما . ويقف دُوغا على الباب ، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار .

ذكر تذلل السودان لملكهم وتتْريبهم له وغير ذلك من أحوالهم

والسودان أعظم النــاس تواضعا لملكهم ، وأشدهم تذللا له . ويحلفون باسمه . فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها ، نزع المدعو ثيابه

---

(١) ذات وَبَر

(٢) المراد من قنابر الذهب هنا غير ظاهر — ويحتمل أن يكون المراد صورا من الذهب على شكل هذا الطائر المعروف وهو القُبَّرَة . ويسمى أيضا القُنْبُراء . والجمع قنابر .

(٣) سبق الكلام على هذا اللفظ فى الحواشى .

ولبس ثيابا أخلاقا ، ونزع عمامته وجعل (شاشيّة) وسخة ، ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدم بذلّة ومَسْكَنة ، وضرب الأرض بمرفقيه ضربا شديدا ، ووقف كالراكع يسمع كلامه .

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليـه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ، ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعل المغتسل بالمـاء . وكنت أعجب منهم كيف لا تعمَى أعينهم . وإذا تكلم السلطان فى مجلسـه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رءوسهم وأنصتوا للكلام . وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته ، ويقول : فعلت كذا يوم كذا ، وقتلت كذا يوم كذا ، فيصدقه من علم ذلك . وتصديقهم أن ينْزِع [1] أحدهم فى قوسه ، ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى . فإذا قال له السلطان : صدقت ، أو شكره ، نزع ثيابه وترّب . وذلك عندهم من الأدب . قال ابن جُزَيّ : وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان ، أعزه الله ، أنه لمـا قدم الحاج موسى الونْجَراتى رسولا عن مَنْسَا سليمان ، إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه ، كان إذا دخل المجلس الكريم ، حمل بعض ناسه معه قُفَّة تراب ، فيترّب إذا قال له مولانا كلاما حسنا ، كما يفعل ببلاده .

ذكر فعله فى صلاة العيد وأيامه

وحضرت بمالّى عيدى الأضحى والفطر ، فخرج الناس إلى المصلَّى ، وهو قريب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان . وركب السلطان وعلى رأسه الطَّيْلَسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ، ما عدا القاضى والخطيب والفقهاء ، فانهم يلبسونه فى سائر الأيام . وكانوا يوم العيد

(١) نزع فى قوسه مدّها استعدادا للرمى .

بين يدى السلطان ، وهم يهللون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير . ونُصِب عند المصلى خِباء ، فدخله السلطان وأصلح من شأنه . ثم خرج إلى المصلى ، فقُضِيت الصلاة والخطبة . ثم نزل الخطيب ، وقعد بين يدى السلطان، وتكلم بكلام كثير . وهنالك رجل بيده رمح ، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب : وذلك وعظ وتذكير ، وثناء على السلطان ، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه .

ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على (البَنْبى) ، وتأتى (السلحدارية) بالسلاح العجيب ، من تراكش [1] الذهب والفضة ، والسيوف المحلاة بالذهب ، وأغمادها منه ، ورماح الذهب والفضة ، ودبابيس البلُّور . ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشرِّدون الذباب ، وفى أيديهم حِلْية من الفضة تشبه رِكاب السَّرْج . ويجلس (الفرارية) والقاضى والخطيب على العادة . ويأتى دُوغا التُّرجمان بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة ، وعليهن الملابس الحسان ، وعلى رءوسهن عصائب الذهب والفضة ، وفيها تفافيح ذهب وفضة . وينصب لدُوغَا كرسى يجلس عليه ، ويضرب آلة من قَصَب وتحتها قُرَيْعات . ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله . وتغنى النساء والجوارى معه ، ويلعبن بالقسىّ ، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه ، عليهم جِباب [2] (الملَفّ) الحمر ، وفى رءوسهم (الشَّواشى) البيض . وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه . ثم يأتى أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون فى الهواء . ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل لعب . ويلعب دُوغا بالسيف لعبا بديعا . وعند ذلك يأمر السلطان له

---

(١) سبق تفسير هذه الكلمة ، وأنها جمع تركش ، جعبة السهام ، غير عربية .

(٢) جمع جبة .

بالإحسان ، فيؤتى بصُرَّة فيها مائتا مثقال من التبر . ويذكر له ما فيها على رءوس الناس ، ويقوم (الفراريّة) فينزعون فى قسيّهم شكرا للسلطان . وبالغد يعطى كلَّ واحد منهم دُوغا عطاء على قدره . وفى كل يوم جمعة بعد العصر ، يفعل دُوغا مثل هذا الذى ذكرناه .

ذكر الأضحُوكة فى إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يوم العيد وقد أتم دُوغا لعبه ، جاء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه الشقْشاق[1] ، وجُعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم . وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان : إن هذا (البَنْبى) الذى تجلس عليه ، جلس فوقه من الملوك فلان ، وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان ، وكان من أفعاله كذا . فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على دَرَج (البنبى) ، ويضع رأسه فى حِجْر السلطان ، ثم يصعد إلى أعلى (البنبى) ، فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهو يتكلم بلسانهم . ثم ينزل . وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام ، فاستمروا عليه .

---

(١) لم نجد الشقشاق فيما بأيدينا من الكتب . ولعله يريد الشِّقِرّاق ، طائر مرقط بحمرة وخضرة وبياض .

حكاية

وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام، فأتى أحد فقهائهم، وكان قدم من بلاد بعيدة ، وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا ، فقام القاضى فصدّقه ، ثم صدّقهما السلطان . فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه، وترّب بين يديه . وكان إلى جانبى رجل من البيض فقال لى : أتعرف ما قالوه ؟ فقلت : لا أعرف . فقال : إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم ، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد ، فهاله أمره . فقال : هذا جراد كثير . فأجابته جرادة منها وقالت : إن البلاد التى يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها . فصدّقه القاضى والسلطان ، وقال عند ذلك للأمراء : إنى برىء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمنى به ، فذنوب ذلك الظالم فى عنقه ، والله حسيبه وسائله . ولما قال هذا الكلام ،وضع (الفراريّة) عمائمهم عن رءوسهم ،وتبرءوا من الظلم .

حكاية

وحضرت الجمعة يوما ، فقام أحد التجار من طلبة مَسُّوفة ، ويسمى بأبى حفص ، فقال : ياأهل المسجد ، أشهدكم أن مَنْسَا سليمان فى دعوتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . فلما قال ذلك ، خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان ، فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئا ؟

(١) يريد أنه يحتكم معه إلى النبى عليه السلام

فقال: مَنْشَاجو إيوالاتن ، يعنى مُشْرِفها ، أخذ منى ما قيمته سمّائة مثقال ، وأراد أن يعطينى فى مقابلتــه مائة مثقال . فبعث السلطان إليــه للحين ، فحضر بعد أيام ، وصرفهما للقاضى ، فثبت للتــاجر حقه فأخذه . وبعد ذلك عُزِل المشرف عن عمله .

حكاية

واتفق فى أيام إقامتى بمالىّ أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوّة قاسا . ومعنى قاسا عندهم الملكة ، وهى شريكته فى الملك ، على عادة السودان ، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر . وسجنها عنــد بعض (الفرارية) ، وولّى فى مكانها زوجته الأخرى بَنْجُو ، ولم تكن من بنــات الملوك . فأكثر الناس الكلام فى ذلك ، وأنكروا فعله . ودخلت بنات عمه على بَنْجُو يهنئنها بالملكة ، فجعلن الرماد على أذرعهن ، ولم يُتَرِّبْنَ رءوسهن .

ثم إن السّلطان سَرَّح قاسا . فدخلت عليهــا بنات عمه يهنئنها بالسَّراح ، وترَّبن على العادة . فشكت بَنْجُو إلى السلطان . فغضب على بنات عمه ، فخفن منه واستجرن بالجامع . فعفا عنهن واستدعاهن ، ورضى عنهن ، وصرن يأتين باب السلطان غُدُوّا وعَشِيّا مدة سبعة أيام . وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان . وصارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها وعلى رءوسهم التراب ، وتقف عند (المشور) متنقّبة لا يرى وجهها . وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها . فجمعهم السلطان فى (المشور) ، وقال لهم دُوغا على لسانه : إنكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاسا ، وأنهــا أذنبت ذنبا كبيرا . ثم أتى بجارية من جواريها مقيّدة مغلولة ، فقيل لها : تكلمى بما عندك . فأخبرت أن قاسا بعثتها

إلى جَاطَل ابن عم السلطان ، الهـارب عنه إلى كَنْبُرْنِى ، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه ، وقالت له : أنا و جميع العساكر طوع أمرك . فلما سمع الأمراء ذلك قالوا : إن هـذا ذنب كبير وهى تستحق القتل عليه . نخـافت قاسا ذلك ، واستجارت بدار الخطيب . وعادتهـم أن يستجيروا هنالك بالمسجد ، وإن لم يمكن فبدار الخطيب .

وكان السودان يكرهون مَنْسَا سليمان لبخله . وكان قبله مَنْسَا مغَا ، وقبل مَنْسَا مغَا مَنْسَا موسى ، وكان كريمـا فاضلا يحب البيض ويحسن إليهم . وهو الذى أعطى أبا إسحاق الساحلىّ فى يوم واحد أربعـة آلاف مثقال . وأخبرنى بعض الثقات أنه أعطى مُدْرِك بن فَقُّوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد .

حكاية

وأخبرنى الفقيه مُدْرِك هـذا أن رجلا من أهل تِلِمْسان يعرف بابن شيخ اللّبَن ، كان قد أحسن إلى السلطان مَنْسَا موسى فى صـغره بسبعة مثاقيل وثلث ، وهو يومئذ صبى . ثم اتفق أن جاء إليه فى خصومة وهو سلطان ، فعرفه وأدناه منه ، حتى جلس معه على (البَنْبِى) ، ثم قَرَّره على فعله معه . وقال للأمراء : ما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟ فقالوا له : الحسنة بعشرة أمثالها ، فأعطه سبعين مثقالا . فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكُسْوة وعبيدا وخدما ، وأمره ألا ينقطع عنه . وأخبرنى بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن . وهو من الطلبة ، يعلم القرآن بمـالّى .

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه . وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه . ومنها شُمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان القناطير المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثِقَة من البيض حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسَجَّادته ، فيبسطها له بموضع يستحقه به ، حتى يذهب إلى المسجد . وسجاداتهم من سَعَف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة . ولولم يكن لأحدهم إلا قميص خَلَق غسله ونظفه وشهِد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود ، إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تُفك عنهم حتى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد ، وأولاده مقيَّدون ، فقلت له : ألا تُسرِّحهم؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن . ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك . وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

ومن مساوئ أفعالهم أنّ الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا ؛ ولقد كنت أرى فى رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فإن عادة (الفَرَارِيّة) أن يُفطروا بدار السلطان، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه ، وهنّ عرايا . ومنها جعلهم التراب والرماد على رءوسهم تأدبا . ومنها ما ذكرته من الأضحوكة فى إنشاد الشعراء . ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الجِيَف والكلاب والحمير .

ذكر سفرى عن مالّي

وكان دخولى إياها فى الرابع عشر لجُمادَى الأولى سنة ثلاث وخمسين ، وخروجى عنها فى الثانى والعشرين للمحرم سنة أربع وخمسين . ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب . وقصدنا طريق ميِمة . وكان لى جمل أركبه ، لأن الخيل غالية الأثمان ، يساوى أحدها مائة مثقال . فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل ، لا يُجاز إلا فى المراكب . وذلك الموضع كثير البعوض ، فلا يمر أحد به إلا بالليل . ووصلنا الخليج ثلث الليل ، والليل مُقْمِر .

ذكر الخيل التى تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضِفّته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ؛ فعجبت منها وظننتها فيلة، لكثرتها هنالك . ثم إنى رأيتها دخلت فى النهر ، فقلت لأبى بكر بن يعقوب : ما هذه الدواب ؟ فقال : هى خيل البحر ، خرجت ترعى فى البر . وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ؛

ورءوسها كرءوس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . ورأيت هـذه الخيل مرة أخرى لمـا ركبنا النيل من تُنْبُكْتُو إلى كَوْكَوْ ، وهى تعوم فى المـاء وترفع رأسها وتنفخ . وخافها أهـل المركب ، فَقَرُبوا من البر لئلا تُغرقهم . ولهم حيلة فى صيدها حسنة : وذلك أن لهم رماحا مثقوبة ، قد جعل فى ثَقْبها شرائط وثيقة ، فيضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته ، وجذبوه بالحبـل حتى يصـل إلى الساحل . فيقتلونه ويأكلون لحمه . ومن عظامها بالساحل كثير . وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة ، عليها حاكم من السودان ، حاج فاضل يسمى فَرْبَامَغَا . وهو ممن حج مع السلطان مَنْسَا موسى لمـا حج .

حكاية

أخبرنى فَرْبَامَغَا أن مَنْسَا موسى لمـا وصل إلى هذا الخليج ، كان معه قاض من البيض يُكْنَى بأبى العباس ، فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته. فلما وصلوا إلى مِيمة شكا إلى السلطان أنّ أربعة آلاف المثقال سرقت من داره. فاستحضر السلطان أمير مِيمة ، وتوعّده بالقتل إن لم يُحضر من سرقها. وطلب الأمير السارق فـلم يجد أحدا . ولا سارق بتلك البلاد . فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهدّدهم. فقالت له إحدى جواريه : ماضاع له شيء ، وانما دفنها بيده فى ذلك الموضع. وأشارت له إلى الموضع ، فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان ، وعرفه الخبر . فغضب على القاضى ، ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم . فأقام عندهم أربع سنين . ثم ردّه إلى بلده . وإنما لم يأكله الكفار لبياضه ، لأنهم يقولون : إن أكل الأبيض مضر ، لأنه لم يَنْضَج ، والأسود هو النضيج بزعمهم .

حكاية

قدمتْ على السلطان مَنْسا سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم ، ومعهم أميرهم. وعادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطا كبارا، وتكون فتحة(١) القُرْط منها نصف شِبْرٌ . ويلتحفون بملاحف الحرير . وفى بلادهم معدن الذهب . فأكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادما ، فذبحوها وأكلوها ، ولطّخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين . وأُخْبِرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك .

ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج ، فوصلنا إلى بلدة قُرِى مَنْسَا . ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه ، فأخبرنى راعيه بذلك، فخرجت لأنظر إليـه ، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجِيَف . فبعثت غلامين كنت استأجرتهما لخدمتى ، ليشتريا لى جمـلا بزاغَرِى ، وهى على مسيرة يومين . وأقام معى بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب ، وتوجّه هو لينتظرنا بمِيمة، فأقمت سبعة أيام، أضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة، حتى وصل الغلامان بالجمل .

حكاية

وفى أيام إقامتى بهذه البلدة، رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لى : محمد بن بطوطة لمـاذا لا يقرأ سورة يس فى كل يوم ؟ فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم فى سفر ولا حَضَر . ثم رحلت إلى بلدة مِيمَة ، فنزلنا على آبار

---

(١) الظاهر أنه يقصد بفتحة القرط قطره .

بخارجها . ثم سافرنا منها إلى مدينة تُنْبُكْتُو . و بينها و بين النيل أربعة أميال . وأكثر سكانها مَسُّوفَة أهل اللثام . وحاكمها يسمى فَرْبَا موسى . حضرت عنده يوما وقد قَدِم أحد أهل مَسُّوفة أميرا على جماعة ، فجعل عليه ثوبا وعمامة وسَراويل كلها مصبوغة ، وأجلسه على دَرَقة(١) ، ورفعه كبراء قبيلته على رءوسهم . وبهذه البلدة قبر الشاعر المُفْلِق أبى إسحاق الساحِلى الغَرْناطى . وبها قبر سراج الدين بن الكُوَيْك ، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية .

حكاية

كان السلطان مَنْسَا موسى لما حج ، نزل بِرَوْض لسراج الدين هذا بِبِركة الحَبَش خارج مصر ، وبها ينزل السلطان . واحتاج إلى مال فتسلَّفه من سراج الدين . وتسلَّف منه أمراؤه أيضا . وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال ، فأقام بمالِّى . فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له . فلما وصل تُنْبُكْتُو أضافه أبو إسحق الساحلىّ ، فكان من القَدَر موته تلك الليلة ، فتكلم الناس فى ذلك ، واتهموا أنه سُمّ . فقال لهم ولده : إنى أكلت معه ذلك الطعام بعينه ، فلوكان فيه سم لقتلنا جميعا ، لكنه انقضى أجله . ووصل الولد إلى مالِّى واقتضى ماله ، وانصرف إلى ديار مصر .

ومن تُنْبُكْتُو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة . وكنا ننزل كل ليلة بالقُرى ، فنشترى مانحتاج إليه من الطعام والسمن ، بالملح وبالعِطْرِيّات وبحَلْى الزجاج . ثم وصلت إلى بلد أُنْسِيتُ اسمه ، له أمير فاضل حاج يسمى فَرْبَا سليمان ، مشهور بالشجاعة والشدة ، لا يتعاطى أحد النزْع

---

(١) الدرقة : الترس .

فى قوسه[١] . ولم أر فى السودان أطول منه ولا أضخم جسما . واحتجت بهذه البلدة إلى شىء من الذرة فجئت إليه ، وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلمت عليه وسألنى عن مَقْدَمى ، وكان معه فقيه يكتب له ، فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه : يا فقيه ، قل لهذا الأمير : إنا نحتاج إلى شىء من الذرة للزاد ، والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سِرا ، ويكلم الأمير فى ذلك بلسانه . فقرأه جهرا ، وفهمه الأمير ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى (مشوره) ، وبه سلاح كثير من الدَّرَق والقِسىّ والرماح . ووجدت عنده كتاب (المُدْهِش لابن الجَوْزِىّ) ، فجعلت أقرأ فيه . ثم أُتِى بمشروب لهم يسمى الدَّقْنُو ، وهو ماء فيه جَرِيش الذرة مخلوطا بيسير عسل أو لبن . وهم يشربونه عِوض الماء . لأنهم إن شربوا الماء خالصا أضرَّ بهم . وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن . ثم أُتِى ببطيخ أخضر فأكلنا منه . ودخل غلام ، فدعاه وقال لى : هذا ضيافتك ، فاحفظه لئلا يفر . فأخذته وأردت الانصراف ، فقال : أقم حتى يأتِى الطعام . وجاءت إلينا جارية له دِمَشْقِيّة عربيّة ، فكلمتنى بالعربىّ . فبينما نحن فى ذلك ، إذ سمعنا صُراخا بداره ، فوجّه الجارية لتعرف خبر ذلك ، فعادت إليه ، فأعلمته أن بنتا له قد توفيت ، فقال : إنى لا أحب البكاء ، فتعال نَمْش إلى البحر ، يعنى النيل ، وله على ساحله ديار . فأُتى بالفرس فقال لى : اركب ، فقلت : لا أركبه وأنت ماش . فمشينا جميعا ، ووصلنا إلى دياره على النيل ، وأُتِى بالطعام فأكلنا ، وودّعته وانصرفت . ولم أر فى السودان أكرم منه ولا أفضل . والغلام الذى أعطانيه باق عندى إلى الآن .

---

(١) ماهر فى الرماية ، فائق فيها .

ثم سرت إلى مدينة كَوْكَوْ، وهى مدينة كبيرة على النيل، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك. وبها الفَقُّوص[1] العنَانِى الذى لا نظير له. وتعامُل أهلها فى البيع والشراء بالوَدَع، وكذلك أهل مالِّى. وأقمت بها نحو شهر. وأضافنى بها محمد بن عمر من أهل مِكْناسة. وكان ظريفا مَزَّاحا فاضلا. وتوفى بها بعد خروجى عنه. وأضافنى بها الحاج محمد الوَجْدِى التازِى، وهو ممن دخل اليمن.

ثم سافرت منها إلى تَكَدَّا فى البر مع قافلة كبيرة للغُدامِسِيِّين[2]، ودليلهم ومقدَّمهم الحاج وُجِّين، ومعناه الذئب بلسان السودان. وكان لى جمل لركوبى وناقة لحمل الزاد. فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة، فأخذ الحاج وُجِّين ما كان عليها وقسمه على أصحابه، فتوزَّعوا حَمْله. وكان فى الرُّفقة مغربىّ من أهل تَادَلَا، فأبى أن يرفع من ذلك شيئا، كما فعل غيره. وعطِش غلامى يوما، فطلبت منه الماء فلم يسمح به.

ثم وصلنا إلى بلاد بَرْدامة، وهى قبيلة من البربر، ولا تسير القوافل إلا فى خَفَارتهم. والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنا من الرجل. وهم رحّالة لا يقيمون. وبيوتهم غريبة الشكل، يقيمون أعوادا من الخشب ويضعون عليها الحُصُر. وفوق ذلك أعواد مشتبكة، وفوقها الجلود أو ثياب القطن. ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صُوَرا، مع البياض الناصع، ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السِمَن. وطعامهن حليب البقر وجَرِيش الذرة، يشربْنَه مخلوطا بالماء غير مطبوخ، عند المساء والصباح. وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء. واجتهدنا فى السير إلى أن وصلنا إلى

---

(١) الفقوص البطيخة قبل النُضج، مصرية اهـ قاموس. ولكن الذى يظهر أن هذا نوع آخر غير البطيخ.

(٢) غُدامِس بلدة بالمغرب ضاربة فى بلاد السودان اهـ قاموس.

مدينة تَكَدًّا . ونزلت بهـا فى جوار شيخ المغاربة سـعيد بن على الجُزُولى . واضافنى قاضيها أبو إبراهيم إسحق الجاناتىّ . وهو من الأفاضـل . وأضافنى جعفر بن محمد المَسُّوفى .

وديار تَكَدًّا مبنية بالحجارة الحمر . وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك . ولا زرع بها إلا يسيرا من القمح يأكله التجار والغرباء . ويباع بحساب عشرين مُدًّا[1] من أمدادهم بمثقال ذهب . ومُدّهم ثلث المد ببلادنا . وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مُدًّا بمثقال ذهب . وهى كثيرة العقارب . وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ . وأما الرجال فقلما تقتلهم . ولقد لدغتْ يوما وأنا بها ولدا للشيخ سعيد بن على عنـد الصبح ، فمات لحينه وحضرت جنازته . ولا شغل لأهل تَكَدًّا غير التجارة ، يسافرون كل عام إلى مصر ، ويجلبون من كل مابها من حِسان الثياب وسواها . ولأهلها رفاهيَة وسَـعة حال . ويتفاخرون بكثرة العبيد والخادمات . وكذلك أهل مالّى و إيوَالاَتن . ولا يبيعون المعلَّماتِ منهن إلا نادرا و بالثمن الكثير .

حكاية

أردت لمـا دخلت تَكَدًّا شراء خادم مُعَلَّمة فـلم أجدها . ثم بعث إلىّ القاضى أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا . ثم إن صاحبها ندِم ورغب فى الإقالة ، فقلت له : إن دللتنى على سواها أقلتك . فدلنى على خادم لعلىّ أَغْيُول ، وهو المغربىّ التَّادَلىّ ، الذى أبى أن يرفع شيئا من أسبابى[2] ، حين وقعت ناقتى ، وأبى أن يسقى غلامى المـاء حين عطش .

---

(١) المد مكيال ، وهو ملء كفى الانسان المعتدل ا ه قاموس .

(٢) متاعى .

فاشتريتها منه وكانت خيرا من الأولى . وأَقَلْتُ صاحبي الأول . ثم نَدِم هذا المغربيّ على بيع الخادم ، ورغب فى الإقالة وألحّ فى ذلك ، فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله ، فكاد أن يجن أو يهلك أسفا . ثم أقلته بعد .

ذكر معدن النحاس

ومعدِن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه الأرض ، ويأتون به إلى البلد ، فيسْبِكونه فى دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فإذا سبكوه نحاسا أحمر ، صنعوا منه قُضْبانا فى طول شبر ونصف ، بعضها رِقاق وبعضها غِلاظ ، فتباع الغِلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال . وهى صَرْفهم ، يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح . ويحملون النحاس منها إلى مدينة كُوبَر ، من بلاد الكفار ، وإلى زَغَاى ، وإلى بلاد بَرْنُو ، وهى على مسيرة أربعين يوما من تَكَدَّا . وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه إدريس ، لا يظهر للناس ، ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب . ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفِتيان ، وبالثياب المُجَسَّدة[1] .

ذكر سلطان تَكَدَّا

وفى أيام إقامتى بها توجه القاضى أبو إبراهيم ، والخطيب محمد ، والمدرس أبو حفص ، والشيخ سعيد بن علىّ ، إلى سلطان تكدا ، وهو بربرىّ يسمى إزار . وكان على مسيرة يوم منها . ووقعت بينه وبين التَكَرْكَرِىّ ، وهو من

(١) مصبوغة بالجَسَد وهو الزعفران .

سلاطين البربر أيضا منازعة ، فذهبوا للإصلاح بينهما . فأردت أن ألقاه ، فاكتريت دليلا وتوجهت إليه . وأعلمه هؤلاء بقدومى ، فجاء إلىّ راكبا فرسا دون سرج ، وتلك عادتهم . وقد جعل عوض السرج طِنْفِسة (١) حمراء بديعة . وعليه مِلْحفة وسراويل وعمامة ، كلها زُرْق . ومعه أولاد أخته ، وهم الذين يرثون ملكه . فقمنا إليه وصافحناه . وسأل عن حالى ومَقْدَمى ، فأعلم بذلك .

وانزلنى ببيت من بيوت البناطِيِّين ، وهم كالوُصْفَان (٢) عندنا ، وبعث برأس شاة مشوىّ فى السَفُّود ، وقَعْب (٣) من حليب البقر . وكان فى جوارنا بيت أمه وأخته ، فجاءتا إلينا وسلمتا علينا . وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العَتَمة ، وهو وقت حَلْبهم . ويشربونه ذلك الوقت وبالغُدُوّ . وأما الطعام (٤) فلا يأكلونه ولا يعرفونه . وأقمت عندهم ستة أيام . وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء . وأحسن إلىّ بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب . وانصرفت عنه ، وعدت إلى تَكَدَّا .

ذكر وصول الأمر الكريم إلىّ

ولما عدت إلى تَكَدَّا ، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السِجِلْمَاسِىّ ، بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، آمرا لى بالوصول إلى حضرته العلية ، فقبلته وامتثلته على الفور . واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث . وقصدت السفر إلى تَوَات ، ورفعت زاد سبعين ليلة ،

(١) هى البساط .

(٢) جمع وصيف وهو الخادم . ولكن الجمع المعوّل عليه (وُصَفاء) .

(٣) القعب : القدح الضخم الجافى .

(٤) المقصود بالطعام هنا القمح .

إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكَدَّا وتَوَات، وإنما يوجد اللحم واللبن والسمن، يشترى بالأثواب. وخرجت من تكَدَّا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان، سنة أربع وخمسين فى رُفْقة كبيرة، فيهم جعفر التَوَاتىّ، وهو من الفضلاء، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تَكَدَّا. وفى الرُفْقــة نحو ستمــائة خادم. فوصلنا إلى كَاهُر، من بلاد السلطان التَكَرْكَرِىّ. وهى أرض كثيرة الأعشاب، يشترى بها الناس من برابرها الغنم ويقدّدون لحمها، ويحمله أهل تَوَات إلى بلادهم.

ودخلنا منهـا فى بَرِّيّة لا عمارة بها ولا ماء، وهى مسيرة ثلاثة أيام. ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها، إلا أن بها المـاء. ووصلنا إلى الموضع الذى يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر، وطريق تَوَات. وهنالك أَحْسَاء ماء يجرى على الحديد، فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه. وسرنا من هنالك عشرة أيام، ووصلنا إلى بلاد هَكَّار، وهم طائفة من البربر مُلَثَّمون، لا خير عندهم. ولقينا أحد كبرائهم، فحبس القافلة حتى غَرِموا له أثوابا وسواها. وكان وصولنا إلى بلاهم فى شهر رمضان، وهم لا يُغِيرون فيه ولا يعترضون القوافل. وإذا وَجَدَ سراقها المتاع بالطريق فى رمضان، لم يعرِضوا له. وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر.

وسرنا فى بلاد هكّار شهرا، وهى قليلة النبات، كثيرة الحجارة، طريقها وَعْر. ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لِثَام كهؤلاء، فأخبرونا بأخبار بلادنا، وأعلمونا أن أولاد خَرَاج وابن يَغْمُــور خالفوا، وسكنوا تَسَابيت، من تَوَات. فخاف أهل القافلة ذلك. ثم وصلنا إلى بُودا وهى من أكبر قرى تَوَات، وأرضها رمال وسِبَاخ(١)، وتمرها كثير ليس بطيب،

(١) جمع سَبَخة، وهى أرض ذات نَزّ وملح.

لكن أهلها يفضلونه على تمر سجِلْمَاسة . ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت . وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل أهلها التمر والجراد، وهو كثير عندهم يختزنونه كما يُختَزَن التمر، ويقتاتون به ، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس ، فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد . وأقمنا ببُودَا أياما . ثم سافرنا فى قافلة، ووصلنا فى أوسط ذى القعدة إلى مدينة سجِلْمَاسة، وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة، وذلك أوان البرد الشديد. ونزل بالطريق ثلج كثير . ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببُخَارى وسَمَرْقَنْد وخُراسان وبلاد الأتراك ، فلم أر أصعب من طريق أم جُنَيْبَة .

ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطَّمع ، فأقمت هنالك يوم الأضحى . ثم خرجت فوصلت إلى حضرة فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله . فقبَّلت يده الكريمة ، وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك . وأقمت فى كَنَف إحسانه بعد طول الرِحْلة . والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل إحسانه ، وسابغ امتنانه ، ويديم أيامه ، ويمتع المسلمين بطول بقائه .

وها هنا انتهت الرحلة المسماة (تحفة النظّار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) . وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة ، عام ستة وخمسين وسبعمائة . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال ابن جُزَىّ

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة، أكرمه الله . ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحَّال العصر . ومن قال : رحال هذه الملة، لم يبعد . ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطَنا ،

بعد طول جولانه ، إلا لمـا تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا ، وأعمهم فضائل ، وأكثرهم إحسانا ، وأشدهم بالواردين عليـه عناية ، وأتمهم لمن ينتمى إلى طلب العلم حماية .

فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى ، لأن وفقـه فى أول حلّه وترحاله لاستيطان هذه الحضرة، التى اختارها هذا الشيخ ، بعد رحلة خمسة وعشرين عاما . إنها لنعمة لا يُقدر قدرها ، ولا يُوفَّى شكرها . والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ، ويبقى علينا ظل حُرمته ورحمته ، ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين .

اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين، وخصصته بالحلم والعقل الرصين ، فمدّ لملكه أسباب التأييد والتمكين ، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين ، واجعل الملك فى عقبه إلى يوم الدين ، وأره قرّة العين فى نفسه وبنيه ومُلكه ورعيته ، يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر ، عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى ١٨ من المحرم سنة ١٣٥٣ (٢ من مايو
سنة ١٩٣٤) .

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ١٠٧٨٢-١٩٣٣-١٥٠٠٠